رواية

بيلي
بث مباشر

رامي أحمد

عنوان الكتاب :بيلي

المؤلف : رامي أحمد

المراجعة اللغوية : عبد الهادي عباس

الإخراج الداخلي : رشا عبدالله

تصميم الغلاف : رامي أحمد

رقم الإيداع : 2796/ 2017

ردمك : 978-977-6549-26-5

الطبعة الأولى: يناير 2017

المدير العام : هاله البشبيشي

المدير التنفيذي : شريف الليثي

دار تويا للنشر والتوزيع

dartoya2015@gmail.com

Dar.toya دار تويا للنشر و التوزيع

@Dar_Toya

Dar.toya

(+2) 01150483084 - (+2) 01000706014

٣٥ شارع النصر – المعادي – القاهرة – مصر

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

رواية

بيلي

بث مباشر

رامي أحمد

دار تويا للنشر والتوزيع

إهداء

- الى أسرتي.. أمـي.. أبي.. أخـواتي.. وأسـباب البهجـة في الحيـاة نـور - روان - محمد..ثـم عائلتـي الكبيرة..أحبكـم جميعـاً..

- شـلة "مـش طايـق".. أصدقـاء الطفولـة وفـترة المراهقـة والجنـون.. جميعكـم في القلـب.. أفتقدكـم فـرداً فـرداً..

- إدارة ال Multimedia بالهيئـة العامـة للإسـتعلامات كاملـة إدارة و إشراف وزمـلاء.. قلوبكـم الصافيـة لهـا منـي كل آيـات الشـكر والعرفـان..

- رفقـاء "مقهـى ألـووو".. أجـدع نـاس.. ربنـا مايحرمنـي مـن اهتمامكـم يـارب..

- أحمـد عمـرو سـعودي وأسرتـه جميعهـم.. عائلتـي الثانيـة.. أحبكـم في اللـه..

وشكر واجب لكل من أساتذتي وزملائي من الوسط الأدبي:

د/ محمـد نجيـب عبداللـه - هالـة البشـبيشي - أحمـد عبـد المجيـد - شريـف عبدالهـادي - آن أدهـم - محمـد صـادق - شريـف الليثـي - محمـد عصمـت - محمـد جـلال ومـراد ماهـر.. وآخـرون لا تتسـع الصفحـات لشـكرهم..

ولكنـي أخـص المذكوريـن بشـكري عـن هـذا العمـل خصوصاً..بإختصـار حـين طلبـت العـون أو الدعـم.. حتـى وان كان نفسـياً وجدتهـم.

شكراً جزيلاً ومن كل القلب..

شـيماء عبـد الصبـور - محمـد سـالم - سـارة الخشـن- دعـاء الأسـود - داليـا سامي-نشـوى عبـد الحميـد - نرمـين رسـلان - جهـاد فـؤاد أبـو زيـد - هبـة هـارون - منـة سـلام - دينـا محمـد - نهـى محـب - رانيـا سـمير- هيـدي لاشـين- مهـا صفـوت - كريـم أوديـن - هـاني ماهـر- د/ مصطفـى الفرمـاوي - هديـل سرحـان- مـون مـون ورضـوى رفاعـي.

يـاكل أحبـائي القـراء والكتـاب والأصدقـاء الرائعـين.. لكـم أهـدي كل حـرف أكتبـه..

وإليه..

الى اليأس الجاثم فوق صدري.. عله يرحل.

رامي أحمد

بعضُ الأشخاصِ مثلي لا بدَّ أن يظلّوا مجهولين..

وبعضُ النهاياتِ في رأيي لا بدَّ وأن تبقى مبهمةً..

تمهيد

في الغرفةِ الضيقةِ أمامي وقف..

مسـح وجهـه بدهـانٍ أبيـض.. وضـع أنفًـا مسـتديراً.. ثـم ارتـدى فـوق رأسـه الشَّـعر المسـتعار..

بأحمـر شـفاه في يـدي رسـمتُ لـه ابتسـامةً أكـبر مـن تلـك التـي تتسعُ لها شـفتاه.. قبـل أن أنـزوي إلى جنـبٍ لتأمـل تلـك المشـاعر التـي صـدح بهـا المـكانُ برغـم السـكوت..

صدى الصمتِ كعادته يُحاورني .. فأتسائل..

أحقـاً نبـدو جميعًـا متشـابهين مـن تحـت قنـاع المهـرج؟.. أم أن مشـاعرنا حينهـا في ظـل ألـوان البهجـة هـي مـا يَأتلِـف؟

أرقـب اسـتناده عـلى الكـرسي الخشـبي محـاذرًا رِجْـلاً منـه مكسـورة..

الشاشـــة أمامـــه.. والكامـــيرا تواجهـــه ولا ترّصـــد عدســـتُها ســـواه..

الآن يتنهد في عمقٍ ويبتسمُ ضاغطًا زِرَّ البث المباشر..

والآن نبدأ..

"الخميـــس.. الخامـــس مـــن أغســـطس ٢٠١٥م.. الســـاعة الســـابعة مســـاءً..

أعزائي المتابعين جميعًا..

أهـــلاً وســـهلاً بكـــم في موعدكـــم المتجـــدد مـــع الفيديـــو الأســـبوعي التاســـع للباحثـــين عـــن الســـعادة..

أودُّ تقديـــم شـــكرٍ مـــن القلـــب لكـــم في البدايـــة عـــلى كل مـــا قدمتمـــوه في ســـبيل نـــشر عروضنـــا بـــأيِّ وســـيلةٍ كانـــت..

شـــكرًا لـــكلِّ مـــا وصلنـــا مـــن تعليقـــاتٍ خصّـــت أكـــثر مـــن ثمانمائـــة ألـــف متابـــعٍ عـــلى الصفحـــة..

شكرًا للسعادة.. لكلِّ من بحث عنها.. واقتفى معنا أثرها..

ثم شكرًا للحزن الذي نبهنا يوم فقدناها..".

يبـــدو مضطربًـــا بعـــض الـــشيء.. صمـــت قليـــلاً لالتقـــاط أنفاســـه.. وتابـــع:

"أعتـــذر عـــن المقدمـــة المملـــة.. لكنهـــا الوحيـــدة المناســـبة لعـــرضٍ ســـيختلف قليـــلاً عـــن ســـابقيه..

لـن أحدثكـم اليـوم عـن سـببٍ تاسـعٍ مـن أسـباب السـعادة كـما اعتدتـم في ثمـان حلقـاتٍ فائتـةٍ..

ليـس لأني لا أملكـه.. ولكـن لأني اكتشـفت.. أنـه وبرغـم كل الأسـباب الماضيـة.. مـا زال هنالـك شيء مفقـود..

شيء ناقصٌ لا أعلمه.. هل تساءلتم عنه مثلي؟..

لمـاذا فقـدت ضحكاتنـا بريقًـا نـراه في عـين طفـلٍ صغـيرٍ لا يُـدرك مـن أسـباب السـعادة واحـدًا؟..

أي عائـقٍ وقـف بنـا عـلى حافـة الفـرح ومنعنـا مـن مواصلـة الطريـق.. لـنرضى فقـط بمـا تسـلل لأنفاسـنا مـن عبَقـه في الأفـق؟..

كأنمـا رسـم العبـوس فـوق قلوبنـا خطوطـاً لا تمحـى.. فصـارت غايتنـا السـعادة.. ولا ندركهـا.

رغـم أننـا اتَّبعنـا كل منطـقٍ.. والتمسـنا بالعقـل كل وسـيلةٍ.. وتحسسـنا السـبل لاهثـين وراء الأسـباب..

لكننـا في النهايـة لم نجـنِ غـير نفحـاتٍ مـن الفـرح قصـير مداهـا.. يخبـو عطرهـا في ذات لحظـات اشـتمامه.. ويـزول..״

صمـتَ مـرةً أخـرى مسـتجمعًا شـتات أفـكاره منسـقًا في رأسـه الكلـمات قبـل أن يسـتمر:

"حسـن.. يُخيـل لي أن خطـأ في طريـق البحـث أضلَّنـا.. لـزم علينـا التخـلي عـن قواعـده.. تلـك التـي تربطنـا بواقـعٍ لا نستشـعر تحـت نطاقـه البهجـات المنبعثـة مـن كل مـا يُحيـط..

علينا اتخاذ سبلٍ جديدةٍ..

نحن نحتفظُ بما لدينا فقط بتقديمه للآخرين.

مقولة طالما آمنت بها..

ثقـة بهـا شـاركتكم كل مـا عايشـته مـن لمحـات سـعادتي عـلى اختـلاف المراحل..وبمقتضاهـا اليـوم أيضًـا.. أشـارككم وسـيلتي الأخـيرة صـوب قمتهـا ببعـض مـا ملكتـم مـن فضـول.. وبأقـصى مـا ملـك قلبـي مـن رغبـة وجنـونٍ..

لقـد قـررت أنـا.. صاحـب الابتسـامة المنقوصـة مـن تحـت هـذا القنـاع.. ان أنتـزع كل مخـاوفي عـلى مـرأى ومسـمع منكـم جميعـاً..

وأن أخـوض تجربـة احـتراق كاملـة, لتحريـري كليـاً وبشـكل نهـائي, مـن كيـان مـادي صرت أراه اليـوم معيقـاً..

علهـا تمنحنـي الخـلاص فيحفظـه قلبـي.. أو تمنحكـم إيـاه فتحفظنـي بـه قلوبكـم..

أيًّا كان ما سيكون..

في انتظاركم جميعًا..

من نفس هذا المكان وعبْر ذات القناة..

في فيديو عاشر وأخير سيتم عرضه يوم الخميس القادم..

الثاني عشر من أغسطس ٢٠١٥م .. الساعة السابعة مساءً..

بتوقيت القاهرة.. ".

***

..البدايةُ..

الخميس.. الثاني عشر من أغسطس ٢٠١٥م ..

السادسة صباحًا.. بتوقيت القاهرة..

سماء وسط القاهرة المحملة بنسمات الفجر وما بعده بقليلٍ..

يتسلل نَدى الصبح عبْر أنفاسه..

يقرأ بعينيْه كل شيء في لحظة استيقاظ المفردات..

سائق أجرة إلى جنب الطريق منهمك في غسل سيارته.. وتلميذ محمَّل بحقيبةٍ حنت ظهره في الطريق لمستقبل أسهم في رسمه فاشلون..

الأبـواب الجـرارة يتـوالى صـوتُ صعودهـا مـن متجـرٍ إلى الآخـر.. مـع همهـمات ترنـح بهـا المسـتيقظون لتوِّهـم يبـدأون يومًـا جديـدًا..

ذات الصور المتكررة داخل نفس إطارات الروتين المملة..

لا يتغـير شيء فيهـا سـوانا.. دوائـر مغلقـة منـذ الأزل رغـم اختلافاتنـا نكررهـا..

وفي خضمِّها كان هو..

فتحي.. عامل المشرحة العجوز..

يسـير في طريـق رجوعـه المعتـاد بعـد مناوبـة عملـه الليليـة مـن المشـفى العـام بخطواتـه المميـزة وهيئتـه التـي تختلـف..

ملابسُـه منمقـةٌ هـذا الصبـاح.. وعينـاه الواثقتـان تبحثـان بـين الوجـوه أمامـه عـن شيء مفقـودٍ..

البهجة..

تساءل أين هي؟

لماذا لم تصح هي الأخرى من بين ما استيقظ؟

وكيف هجرت كل الوجوه؟

تبـدو وجـوه المـوتى بحكـم تعاملـه معهـا أكـثر اسـترخاءً ورضـا مـن وجـوه أولاء السـائرين مـن حولـه يبـدأون يومًـا جديـدًا في عمـرٍ مـا زالـوا يمتلكـون منـه بقيـة..

هـذه المعادلـة الحياتيـة الشـاذة كيـف يبـدو هـو فيهـا الأكثر غرابـةً بقبعـةٍ سـوداء يعتمرهـا وعصًـا مـن الخشـب قصيرة؟

يسـتنكرُ نظـراتِ تسـاؤلهم المختلسـة عـن ماهيـة شـبح شـابلن السـائر في شـوارعهم هـذا الصبـاح.. ويسـير غـير آبـهٍ بهـا.. يُجيـب مـن داخلـه عليهـا بألـف لسـانٍ..

لستُ أغرب ما في الصورة أيها البائسون..

أشـياء عديـدة في واقعكـم تتخطـى غرابـةً هيئتـي .. غريـب أنكـم اعتدتموهـا وانشـغلتم هنـا عنهـا بنظـرات البلاهـة والفضـول..

يا كل المستغربين ..

أنا خيطٌ انفلت من بَكرة السعادة قبل انفراطها..

أنا سببٌ من أسباب البهجة.. ودليلُ الساعين وراءها..

أنـا فرصـةٌ.. لم تنتظـر يومًـا أحـدًا.. ولـن يمنحكـم الدهـرُ إياهـا ثانيـة..

استرسـلت خواطـره الداخليـة صادحـةً وهـو يُواصـل الطريـق..

تجذبه الشوارع فينحرف من أحدها إلى الآخر..

يعـبُر الأزقَّـة راسـمًا بمسـاره بـين جـدران البيـوت القديمـة عقـدة كان حلهـا في تلـك الحـارة الضيقـة حيـث أخـيرًا وقـف..

صفٌّ من البنايات يُطلُّ على السور نصف المهدم أمامه لما يبدو أنها كانت قديمًا مدرسةً تحوَّلت بفعل الإهمال إلى مكبِّ نفايات..

توقَّف أمام الباب الحديدي الصدئ لواحدةٍ منها تبدو عجوزًا كغيرها..

رمق السلسلة الحديدية الملتفَّة بين ضلفتيْه يجمع بين طرفيْها قفلٌ معدنيٌّ كبيرٌ في المنتصف قبل أن يمدَّ يده في جيبه بحثًا عن مفتاحه:

- يلعن أبو الزهايمر.. نسيت المفتاح..

زفر بالعبارة في حنقٍ وهو يمدُّ يده لهزِّ الباب محاولاً لفت انتباه أحدهم في تلك الساعة المبكرة من الصباح متمتمًا:

- وبعدين؟ ودا مين اللي هيصحالي دلوقتي؟..

صاح بصوتٍ عالٍ:

- يا للي هنا.. حد يفتحلي الباب ياخوانا نسيت مفتاح المدخل..

رجَّ الباب الصدئ مرةً أخرى فأصدر مع احتكاكه بالسلسلة الحديدية ضجيجًا بدا مناسبًا لإيقاظ فيلٍ.. بيد أن الفيلة لا تسكن الحارات..

لحظاتٌ طوالٌ منه انسلّت.. وأناسٌ كثرٌ عليه مروا..

فتـى الجرائـد فـوق دراجتـه التـي عـبر بهـا برعونـةٍ مسرعًـا مـن خلفـه يُحييـه:

- صباح الخير يا عم فتحااااااااي.

رفع يده بدوره:

- صباح الخير.

بائع اللبن..

صاحب الدكان القريب..

وحتـى قِـط الشـارع المتسـول.. مـرَّ متمسـحًا يلعـقُ حـذاءه قبـل أن يدفعـه فيرحـل منشـغلاً بنبـش أكيـاس القمامـة التـي ألقيـت في إهـمالٍ حـول سـور المدرسـة المقابـل..

"وبعديـن بقـى في التعليقـة دي؟ أنـا هفضـل كـدا كتـير ولـلا إيه؟".

تمتـم بالكلمـة في انزعـاجٍ يائـسٍ.. قبـل أن يطـل عليـه مـن الداخـل ذلـك الصغـير ذو السـنة وبضعـة شـهور بقميـصٍ مفتـوحٍ ولا شيء دونـه عـلى عتبـة بـاب الشـقة المقابلـة.. متطلعًـا إليـه مـن خلـف البوابـة الحديديـة الموصـدة أمامـه بنظـرةٍ خاويـةٍ وجـد فيهـا بشـارة أمـل وهـو يقـول:

- حـمادة حبيبـي.. صباحـك جميـل يـا صغنـن.. بابـا ومامـا صاحيـين جـوة عنـدك؟

لم يبـد عـلى الصغـير أنـه فهـم حرفًـا مـما قـال ونظرتـه البلهـاء مـا زالـت معلقـةً بوجهـه.. فاضطـر لاسـتعمال لغـة الإشـارة وهـو يُكـرر سـؤاله:

- بابـا.. مامـا.. فينهـم يـا حـمادة؟ ناديلهـم عشـان عمـو فتحـي نـسي المفتـاح وعايـز يدخـل..

كان يُحـرك يديْـه عـلى جانبـيْ رأسـه يمينًـا ويسـارًا.. راسـمًا بوجهـه علامـات اسـتفهام حـاول بهـا إيصـال المعنـى إلى الوجـه الصغـير الـذي ظلـت نظرتـه كـما هـي للحظـة أخـرى قبـل أن تتهلـل أسـاريره ويفـترَّ ثغـره عـن ضحكـةٍ طفوليـةٍ سـاذجةٍ أخـذ يتقافـز عـلى أثرهـا مصفقًـا يُطالـب بمزيـدٍ..

مطَّ فتحي شفتيْه متهكمًا على نفسه:

- إيه اليوم اللي باين من أوله دا؟..

لم يكـد يُنهـي عبارتـه حتـى اختـلَّ تـوازن الصغـير إثـر قفزاتـه.. فسـقط مرتطـمًا رأسـه بأرضيـة المدخـل في عنـفٍ..

شـهق فتحـي في انفعـالٍ لم ينبـس معـه ببنـت شـفة وهـو يتابـع الجسـد المسـجَّى أرضًـا أمامـه في ثبـاتٍ مُـترددًا طنـين الارتطـام عـبر أذنيْـه..

تُطـل عينـاه الصغيرتـان عليـه بنظـرة عـدم إدراكٍ سـبقت انفجـاره في البـكاء الهسـتيري...

تنفَّس فتحي الصُّعداء..

على أية حال هو لم يمت.. وهذا جيد.. ثم أن صراخهِ المزعج قد يوقظ أحدهم.. وهذا ممتاز..

أربعيني مجهدٌ مثله بحاجةٍ لفك احتجازه القهري من وراء تلك البوابة..

أربعيني مجهدٌ مثله بحاجةٍ إلى النوم بعد مناوبة عمل ليلي طويلة..

على صوتِ الصراخ تظهر الأم.. بمنامةٍ صيفيةٍ بدت فوق الجسد البدين المتعرِّق أتعس منه حظًّا..

تنظرُ إلى خامس أبنائها دون مبالاة.. تلكز مؤخرته العارية بقدمها قائلة:

- قوم يا موتشي.. قوم يا حبيبي يالا محصلش حاجة.. يالا يا حبيبي عشان تاخد النُّنة..

ثم ترمق بكل النوم في عينيْها فتحي متفاجئةً بوجوده قائلةً:

- صباح الخير يا عم فتشحي.. لا مؤاخذة طالعة بقميص النوم مش واخدة بالي إنك واقف.. إنت عارف بقى العيال ودوشتهم..

قالتها وهي تتثاءب رافعة بيدها المنامة لتغطيةِ مساحةٍ أكبر من صدرها..

أي فتنةٍ بين أطنان الدهن تُحاول تخبئتها؟

همس محدثًا نفسه:

- يا شيخة اتنيلي.. دوتشي وفتشحي؟

ثم رفع صوته قائلاً:

- ولا يهمك يا ست زهرة.. صباح النور.. معلش بالمرة بعد إذنك ممكن تفتحيلي الباب عشان نسيت المفتاح؟..

تساءلت في فضولٍ:

- إيه هما الجماعة مش بايتشين معاك فوق النهاردة؟

هزَّ رأسه نافيًا وهو يُجيب:

- لا فوق، بس أنا المفتاح مش معايا.. نسيته.. ممكن تفتحيلي بعد إذنك؟..

أومأت برأسها علامة الفهم وهي تتثاءب مرةً أخرى قبل أن ترفع أصبعها مشيرةً كأنما تذكرت شيئًا ما قائلةً:

- لا مؤاخذة يا عم فتشحي في السؤال.. هما مسميينك شابلن عشان الطاقية والعصاية الصغيرة اللي في إيدك دي .. صحّ كدا؟

رفع لها إبهامه محييًا ذكاءها وهو يُتمتم:

ـ بالضبط كدا برافو عليكي..

ثم بزفرة إرهاقٍ واضحة كرَّر طلبه:

ـ ممكـن تفتحيـلي البـاب بقـى عشـان بقـالي ربـع سـاعة واقـف؟..

ابتسـمتْ في إعجـابٍ بنفسـها ثـم هـزَّت رأسـها ثانيةً، مشـيرة إليـه أن فهمـت وهـي تدلـف عائـدةً إلى الداخـل لجلـب المفتـاح المطلـوب بعـد لكـزةٍ أخـرى مـن قدمهـا عـلى مؤخـرة الصغـير الـذي كتـم صراخـه وهـي تقـول في تكاسـلٍ:

ـ من عينيا.. وإنت قوم بقى كفاية زنّ..

نهـض الأخـير في صمـتٍ يتبعهـا إلى الداخـل رامقًـا العجـوز بنظـرة لـوم..

هـذا الصغـير يُحملـه ذنـب سـقوطه.. كـما حمَّلـت هـي أذنـه ذنـب عـدم تنظيمهـا للبيـت بنشـاز صراخهـا الـذي انبعـث مرتفعًـا مـن الداخـل:

"يـا ولاد الكلـب مـين الـلي بيلعـب في الحاجـة كـدا؟ فـين مفتشـاح القفـل الكبـير يـا عبـد اللـه.. كنـت حاطـاه بإيـدي في الجزامـة..".

ربَّاه على كمِّ الحروف العجيبة في كلامها..

استهلكت وقتًا في البحث، تململ خلاله حتى ظهرت مع المفتاح أخيرًا وشرعت تفتح له ملقيةً سؤالاً آخر:

- صحيح يا عم فتشحي عايزة أسألك.. هو الأخ الطويل دا اللي قاعد معاكوا فوق فعلاً كان فنان في التلفزيون؟ أصلي الصراحة ولا عمري شفته قبل كدا..

راقب بتلهفٍ لحظة ولوج المفتاح في يدها داخل القفل.. وتمنى لو أنها فتحت له قبل السؤال وهو يُجيب محاولاً اختزال الردّ:

- آه فنان يا ست زهرة.. بس عالراديو مش التلفزيون..

قالها والباب ينفتح على نظرة عدم استيعاب في عينيها حوت سؤالاً آخر حاول بكلمات شكر سريعةٍ تفاديه وهو ينطلق صاعدًا بخطواتٍ نهمةٍ- رغم إجهاده- الدرج..

خطواتٌ سريعةٌ أبطأها العمر والإجهاد تباعًا حتى وصل لسطح البناية..

اتكأ على بابٍ خشبي محى الزمن غالب طلائه وإن بدت برغم ذلك مقروءةً تلك الكلمات المحفورة فوقه..

" ولو في يوم زارك وجع.. اضحك عليه.. خليك جدع ".

قرأها كما تعوَّد.. ثم ابتسم..

لحسن الحظ هو يحمل المفتاح الداخلي..

أخرجه وفتح به الباب..

صـوتُ موسـيقى السـيرك المرتبـط بفتحـه يرتفـع مـع أضـواء ملونـة انعكسـت عـلى الحوائـط للحظـاتٍ عـبر خلالهـا إلى الداخـل وأعـاد البـاب مـرةً أخـرى لوضعـه المقفـول معيـدًا للمـكان سـكونه..

الساعة تقترب من الثامنة..

توقـف قليـلاً لالتقـاط أنفـاسٍ فقدهـا في رحلـة الصعـود أتتـه محملـةً بزفير النائمـين عـلى الأرض أمامـه.. وبـصره يـدور في نواحـي المـكان وفيهـم..

ذلـك البديـن صاحـب الكـرش المبالـغ في حجمـه.. محمـود عـز الديـن.. يـكاد خشـب الأريكـة التـي تمـدد فوقهـا يصـدر أنينًـا مـن ثقلـه..

إلى الأسـفل منـه عـلى الأرضيـة عصـا مقشـة اسـتقرت عـلى جنبهـا ملقبـة بــ (بلبـل).. المونولوجسـت المنسي بـلال مـرزوق.. هـو مـن سـألت عنـه زهـرة منـذ دقائـق..

عـلى مسـافةٍ منهـم بلبـاسٍ رمـادي وشـخيرٍ يفـوق الصـادر مـن حظـيرة خراتيـت.. رقـدت جثـةٌ أخـرى عملاقـة البنيـة كثـة الشـارب تُدعـى بيومـي.. يُطلقـون عليـه فيـما البـيْن اسـم بارومـة..

مساحة مـن فـراغٍ عـلى أرضيـة المـكان كانـت بجـوار هـذا البارومـة سيشـاركهم هـو النـوم فوقهـا..

لم يكــن المــكان غــير صالــةٍ صغــيرةٍ.. عــلى جانبهــا الأيــسر ممــرٌّ ضيـقٌ حـوى حمامًـا ومطبخًـا أضيـق .. وإلى اليمـين منهـا بـابٌ خشـبي آخـر منغلـقٌ عـلى حجـرةٍ بـدت في اطـار المشـهد مميـزة ..

يقبع خلفها من تحت قناع المهرج آخر أفرادٍ الفريق..

(بيلي)..

***

- ١ -

السَّبَبُ الأوَّلُ للسَّعَادةِ

شيءٌ كان هنا.. ثم غافلنا رحيله..

***

- (بيلي)

علـى النـداء المتسـلل عـبر أذنيْـه بصـوت شـقيقته زينـب استـيقظ.. يبـادل وجههـا المبتسـم تثاؤبـه..

نبيل إبراهيم العوضي..

صبيًّـا كان حينهـا.. يعيـش مـع أخـتٍ تكـبره بعـشرةِ أعـوامٍ.. وأب منحهـما كل حياتـه بعـد وفـاة الزوجـة.. داخـل بيـت دافـئ..

ينهـض اسـتعدادًا ليـومٍ جديـدٍ في مدرسـةٍ مواجهـةٍ تمامًـا للمنـزل لا يتطلبـه الوصـول إليهـا غـير أقـدامٍ يعـبر بهـا الرصيـف المقابـل.. ويـدٍ يُعانـق بهـا كـف سـلوى..

(بلوى)، كما اعتاد أن يُطلق عليها..

جارتـه ذات الشـعر البنـي المجعـد والوجـه المسـتدير.. تلـك التـي اعتـاد وجودهـا معهـم كجـزءٍ لا يتجـزأ مـن تفاصيـل حياته البسـيطة الهادئـة كطباعـه..

تـرك لدفـةِ القـدرِ مهمـة اقتيـاده فـوق بسـاط العمـر في رحلـةٍ خطفـت منـه بـراءة سـنوات الطفولـة.. وغافلـت سـذاجته في فـترة المراهقـة.. ثـم انتقلـت بـه لمرحلـة الانطـلاق المطـوق بحريـةٍ متعقلـةٍ في أعـوام الدراسـة الجامعيـة..

رحلـةٌ خاطفـةٌ رغـم طولهـا.. تغـيرت فيهـا الأشـياء وإن ظلـت نسائمها..

مـا زال الأب برغـم شـيبٍ وخَـط رأسـه يمتلـك النظـرة الحانيـة..

مـا زالـت سـلوى.. تـوءم روحـه التـي صـاغ الزمـن أنوثتهـا فصـارت آنسـة.. تحتضـن بعفويـةٍ كفـه في طريقهـما إلى الجامعـة تمامًـا كـما اعتـادت في الصغـر..

وكذلـك زينـب.. مـا زالـت تـؤدي دورهـا.. برغـم مسـحةٍ مـن اليـأس تصاحبهـا إثـر خمسـة أعـوامٍ فقدتهـا في عَلاقـةٍ علقـت فيهـا كل أمـاني الفتيـات عـلى خاتـم خطبـة حـول إصبعهـا ألقـت بـه مـع دموعهـا في النهايـة بـين راحـة شـخصٍ عانـده في حبهـا القـدر ولم تسـعفه الظـروف..

تأثرهـا بالأمـر بـدا جليًّـا في صمتهـا الحزيـن الدائـم.. وفي ذلـك القبـول السريـع الفـوري لأول مـن طـرَق بابهـم لخِطبتهـا فيـما بعـد..

لقـد وافقـت مبـاشرةً حينهـا.. لم تطلـب حتـى مهلـةً للتفكير.. ولم تـشرك أحـدًا في قرارهـا الـذي تجاوبـوا باستسـلامٍ معهـا فيه..

كذلـك لم يحـدد نبيـل أيهـما حينهـا سـاءه.. أكانـت موافقتهـا السريعـة غـير المـبررة لشـخصٍ لا تعرفـه ولم يشـعرْ هـو نحـوه بـأي ارتيـاح؟..

أم كان الخوفُ من اقتراب رحيلها ؟..

لطالما اعتبرها بديلًا للأم بالنسبة له.. تلك التي رحلت بعد إنجابه ولم يرها إلا من خلال الصور..

كانوا كل دنياه التي لم يعرف فيها سواهم..

بقاء ثلاثتهم حوله كان يشعره بأمانٍ أفقده منه القدر جزءًا برحيل الأب..

ببساطةٍ مات الموظف الحكومي البسيط..

عاد من عمله بعد يومٍ شاق طويلٍ.. تناول غداءً أعدته له زينب ثم دخل إلى غرفته ليخرج محمولاً منها..

درسٌ قاسٍ أول.. ولقطةٌ من اللقطات النادرة التي كشفت فيها الحياة لنبيل عن وجهها الأوحل..

لم يبك يومها.. رغم الصدمة إلا أن دمعةً واحدةً لم تجسر على الخروج من مقلتيْه في يوم العزاء..

أصبرًا كان أم ألمًا مكتوم ؟.. لا يعرف..

لم يعرف أيضًا لأي الأسباب انهمرت دموعه المكبوتة كلها أمام سلوى في اليوم التالي عند مدخل البناية حين استقبلته متمتمةً بتعاطفٍ حقيقي:

- البقاء لله يا نبيل.. عشان خاطري متزعلش..

حين احتضنت كفَّه ذلك اليوم شعر بكثيرٍ من الدفء..

هـو دفءٌ أنسـاه الألم فعـاد الأدراج يتعقـب بـه مـن جديـدٍ خطـى الأيـام..

قدمـاه اليتيمتـان تـتركان فـوق الزمـن أثـرًا أسـود.. يخبـو بفعـل النسـيان مـع الوقـت..

سـبعة أشـهر مـرَّت مـن بعـد الوفـاة أتاهـم بعدهـا خطيـب أختـه غـير المريـح متلهفًـا لإتمـام الزيجـة..

برغـم بقايـا مـن ألم الفـراق مـا زالـت فيهـم كان مطلـب الرجـل منطقيًّـا لم يجـدوا أمامـه بديـلاً عـن الإذعـان..

فلترقد روح والدهم في مثواها بسلامٍ إذن..

ولتخلـعْ زينـب عبـاءة الحـزن لترتـدي فسـتانها الأبيـض أمـام عينيـه المتأهبتـين لرحيـلٍ آخـر..

***

تهافتــت لفحــاتُ الهــواء البــاردة عــلى وجــه تلــك التــي جلســت وحيــدةً مســتندةً إلى قاعــدة أحــد تماثيــل الأســود الرابضـة المحيطـة بكوبـري قـصر النيـل في سـاعةٍ مبكـرةٍ مـن نهـار اليـوم..

تتطايـر خصيـلاتُ شـعرها المعالجـة بلـونٍ أصفـر فاقـع أسـفل طرحـة أظهـرت منـه أكـثر مـما سـترت.. مرتديـةً عبـاءة

سـوداء تطايـرت هـي الأخـرى كاشـفةً عـن بنطـال جينـز ضيـق مزيــن بزخرفــة ورود ملتمعــة..

كان في وضـع جلوسـها المريـب.. وذلـك المكيـاج المبالـغ فيـه عـلى وجهها دافـعٌ لهذيـن الصبيـين حامـلي الحقائـب المدرسـية للاقـتراب منهـا في بـطءٍ، يهمـس أكثرهـما جـرأةً وأطولهـما قامـةً بكلمـة تحـرش حـاول إخراجهـا واثقـةً:

ـ إيه.. ما تيجي؟

التفتـت نحـوه في هـدوءٍ متطلعـةً لـه ولصديقـه الـذي ارتبك أمامهـا، ثـم قالت:

ـ آجي يا حبيبي وماله.. فين؟

تلعثـم المتكلـم وحـار لسـانه، بينـما أشـارت هـي إليـه بسـبابتها أن اقـترب مائلـةً نحـوه في ميوعـةٍ حتـى بـات يشـعرُ بلفـح أنفاسـها السـاخنة فـوق وجهـه وهمسـت:

ـ إنت مش بتقولي آجي؟ معاك أنا بقى.. قوللي فين؟

شـعر الفتـى برأسـهِ يغـلي وأذنيـه المحمرتـين تُعلنـان عـن ذلـك، بينـما تراجـع رفيقـه الصامـت لمراقبـة الموقـف و..

"عـلى مدرسـتك يالـلا يـا ابنـي إنـت وهـو.. وخفـوا مـن سندوتشـات الحـلاوة".

انطلقت الكلمةُ بصوتٍ أنثوي من خلف الفتى مُحمر الأذنين فارتجف ملتفتًا مع صديقه نحو مصدرها في حين مطَّت الجالسة شفتيْها في تهكمٍ لائمةً صاحبة العبارة المقاطعة:

- يا شادية ليه كدا حرام عليكي؟ طيرتي مني الزبون..!!

قالتها ثم انفجرت في ضحكةٍ مرتفعةٍ قصيرةٍ، ابتعد على أثرها الولدان عن تلك الأجواء التي زجَّا بنفسيهما فيها..

بينما ضحكت شادية بدورها وهي ترد:

- زبون إيه يخرب بيت عقلك يا بت إنتي بقيتي بتاعة عيال؟

ضربت كفها بالأخرى، ثم لوحت بهما وهي تهتف:

- يا أختي، وأنا يعني لقيت الكبار وقلت لأ؟ دانا ليلتين بنشّ..

قالتها رافعةً سبابتها للسماء مستطردةً:

- الله يخرب بيت البُعدا.. ضربولنا السياحة في عز الموسم..

صدرت عبر شفتيْ شادية ضحكةٌ أخرى قائلةً:

- يخرب بيت فقرك يا سماح.. قال سياحة قال.. دانتي اللي مشغلاها..

ثم غمزتْ، وهي تستطرد:

- لا والإستايل الخليجي دا كمان لايق عليكي أوي.. وايد حلو..

تقاسما الضحكة بينما سماح تلوح مصرحةً بلغة الغواني:

وحياتك ياختي سفيش مله ساجة حرير.. قال مشغلاها.. أفتحلك البلوتوث حتى أوريهولك.. صحرا.

أشارت لها شادية وهي تتسلق للجلوس جوارها متمتمةً:

- عقبال ربنا ما يتوب عليكي إنتي كمان من السكة دي زي ما تاب عليا..

إلى السماء رفعت سماح كفيها مرةً أخرى، وهي تُغمغم في برودٍ:

- يسمع من بقك ربنا.. دليني بس عالسكة الحلال اللي تجيب قرش وأنا أسيب سكتي دي ..

ابتسمت شادية دون تعليقٍ على العبارة وقد جاورتها في جلستها..

كانت السيارات من حولهم في الشارع قد بدأ عددها في التزايد.. وشعاع الشمس الأصفر يفترش مساحةً أكبر من الطريق باعثًا دفئًا رقيقًا في أوصال العابرين.. مع التماعاتٍ ذهبيةٍ فوق سطح حصيرة النيل الممتد جوارهم تُحيط

جوانبه بعض مراكب صيد صغيرة ومنشآت مختلفة الحجم والأشكال..

لحظة تأمل عابرة بعين شادية قطعتها سماح وهي تسأل

- وإنتي بقى معدية بالصدفة كدا وللا في مصلحة؟

غمغمت شادية فورًا ودون تردد:

- مصلحة.

اعتدلت سماح متأهبةً، وهي تقول في حماس:

- حبيبتي.. اشجيني.

تابعت شادية في جديةٍ:

- شغلانة تبع محمود باشا.. قاللي إنه هيحتاجنا فيها النهاردة.. وسابلي فلوسها بس مقاليش تفاصيل.. بلّغي إنتي باقي البنات وخلينا على تليفون مع بعض.

ضاقت حدقتا سماح في محاولةٍ لتذكر الاسم وهي تكرره:

- محمود باشا؟ مين محمود باشا يا شادية؟

اندفعت شادية تُذكرها:

- محمود باشا يا بنتي بتاع قعدة (كازينو).

ارتفـع حاجبـا سـماح متذكـرةً صاحـب الاسـم وتراجعـت برأسـها للـوراء تصيـح:

- أيوه افتكرته.. الراجل التعبان ده.. هو لسه فيه نَفَس؟

نطقـتْ سـطرها الأخـير بـشيءٍ مـن سـخريةٍ انعقـد لهـا حاجبـا شـادية التـي هتفـت في حـدةٍ:

- بعـد إذنـك يـا سـماح.. متتكلميـش عـن الراجـل بالطريقـة دي.

لوت شفتيها مستمرةً في تهكمها، وهي تقول:

- ليـه يعنـي؟ وبعديـن هـو أنـا غلطـت؟ هـو مـش دا الراجـل الـلي وقـع في كازينـو وجريتـي بيـه عالمستشـفى مـن كام شـهر؟

أومأت شادية برأسها أنْ نعم، قائلةً في إصرارٍ:

- أيوه هو.. وبرضو بكررها.. متتكلميش عليه كدا.

أطلقت سماح ضحكةً قصيرةً أخرى، وهزت كتفيها قائلة:

- ماشي يا ستي.. مش هزعلك.. تأسفاتنا لمحمود باشا.

ثم استطردت:

- مـع إني مـش عارفـة يعنـي إيـه الفـرق بينـه وبـين أي زبـون تـاني عرفناه؟

تجاهلتْ سؤالها شادية وهي تُخرج من جيبها رزمة أوراق نقدية وضعتها في حِجر زميلتها، قائلة تستعد للرحيل:

- دا العربون اللي دفعه.. خليه معاكي عشان توزعيه عالبنات بمعرفتك والباقي قدَّريه زي ما إنتي عايزة.. المهم تكوني جاهزة لما أقولك.

قالتها ثم ألقت عليها السلام وهبطت راحلةً تتابعها نظراتُ صاحبتها التي جلست تُقلب في الرزمة بين يديْها هامسة في انتعاش :

- مفهوش نفس بس معاه فلوس.

قبل أن تلتفت رامقةً وجه الأسد فوقها مغمغمةً:

- مكشر ليه إنت كمان؟ بتحب محمود باشا برضو؟

نطقت جملتها ثم انفجرت بضحكةٍ عاليةٍ وعيناها ترمقان الرزمة مرةً أخرى..

في استمتاع..

***

الثامنة صباحًا بتوقيت القاهرة..

"جيت؟"

غمغـم بهـا ضخـمُ الجثـة بعينـيْن ناعسـتيْن وشـفتيْن تـوارت غلظتهـما تحـت شـاربٍ كـثٍّ وهـو لا يـزال ممـدًا عـلى أرض المـكان يتابـعُ فتحـي الـذي انهمـك في تبديـل ملابسـه فأومـأ الأخـير برأسـه دون ردٍّ، ثـم سـأل:

ـ مـش مواعيـد صحيانـك دي يـا بيومـي.. أنـا قلقتـك ولـلا إيـه؟

حرَّك بيومي رأسه نافيًا وهو يتثاءب متمتمًا:

ـ أنا منمتش أصلاً.. مش جايلي نوم من إمبارح.

رفـع فتحـي أحـد حاجبيْـه في تعجـبٍ وهـو يغلـق أزرار بيجامتـه اسـتعدادًا للنـوم، ثـم غمغـم:

ـ غريبـة دي؟ طـب وهتبـدأ اليـوم إزاي دا إنـت شـغلك في القسـم كـمان سـاعة ونـص لسـه؟

زفـر بيومـي في ضيـق متلفتـًا في المـكان حولـه بغـير قـدرةٍ عـلى التركيـز في شيء وهـو يتسـاءل:

ـ الساعة كام معاك؟

أجابه:

ـ ٨ وخمسة.

أنهى عبارته قبل أن يستطرد مستفسرًا:

- وبعدين طالما صاحي كل دا مدخلتلناش الأوضه ليه؟ دا أنا قاعد مع بيلي جوه بقالي شوية حلوين من ساعة ما رجعت.

بان الشرود على وجه الرجل وهو يُغمغم:

- مش عارف.. مبفهمش حواراتكوا، دي حاجة.. والحاجة التانية إني خايف ودماغي عمالة تودي وتجيب.

أطلق الأخير ضحكةً قصيرةً ساخرًا:

- معقولة دي؟ الأمين بيومي اللي راعب المنطقة كلها بيقوللي أنا حتة التمرجي الغلبان إنه خايف؟!

مطَّ بيومي شفتيْه في عصبيةٍ يُغمغم:

- ومخافش ليه يعني هو أنا مش بني آدم؟

لوَّح بذراعه فتحي وهو يقول:

- بهزر يا عم.

ثم استطرد يسأله:

- إيه اللي شاغل بالك؟ اليوم وللا حاجة تانية؟

أجابه في اقتضابٍ كمن يُلقي الهم بعيدًا عن كاهله:

- اليوم طبعًا موترني.. بس اللي شاغلني أكتر هو محمد.

أدرك فتحي ما يعنيه.. صمت للحظةٍ محاولاً بين ركام الإجابات المنطقية في عقله البحث عن ردٍّ لم يجده.. فاكتفى بمطِّ شفتيه وتحويل الأمر إلى مزحةٍ مرةً ثانيةً، وهو يتمتم:

- ما له محمد؟ ويشغلك في إيه بس اللي متمش على بعضه تسع سنين ده؟

قالها وهو يتجه نحو الفراغ المتبقي بلا أجسادٍ على أرضية المكان جواره ليتمدد فوقه في حين نهض بيومي من رقدته متجهًا نحو الحمام الصغير وهو يقول في ضيقٍ:

- إنت فايق يا فتحي باين عليك.. فاسيبني في حالي.

اعتدل فتحي من رقدته التي لم ينهها جاعلاً بيومي في نطاق رؤيته، وبملامح كستها الجدية سأل:

- إيه ياعم إنت زعلت من الهزار واللا إيه؟

غمغم بيومي وهو يفتح صنبور المياه في الحمام منتظرًا خيط الماء الرفيع ليغسل به وجهه:

- لا مزعلتش.

ثم تنهَّد مستطردًا بصوتٍ متألمٍ:

- عارف إنك بتحاول تهون عليا.. أنا اللي أعصابي يظهر بايظة النهاردة شويتين.

كانت قطرات الماء النافذة من فوهة الصنبور تتساقط بطيئةً كالدموع مع صوت حشرجةٍ في مواسيرها المغذيةِ تعلن اختناقها بالجفاف.. فأعاد الصنبور لوضعه، واعتدل يُكمل:

- حاسس إن مفيش فايدة يا فتحي.. دماغي بتقوللي يعني هو إيه اللي ممكن يصلح كل اللي حصل ده؟

أنا عكيت الدنيا.. بوظت كل حاجة.. وافتريت على ناس كتير أوي وكأن مفيش عالأرض غيري.

قالها وتنهد ملتقطًا أنفاسه قبل أن يتابع دون توقف:

- مكسرتنيش غير نظرة محمد.. هيا اللي شُفت فيها حقيقتي وعرفت منها حجمي الطبيعي.. فمتستغربنيش لما أقولك إني بجد خايف.

تمتم فتحي:

- حاسس بيك والله يا بيومي.. كتير فعلاً مبيبقاش في إيدينا نصلح كل اللي كسرناه.

صمت بيومي مع كلمة الأخير وأطرق برأسه حزنًا وهو لا يزال يقف أمام الحوض يتطلع إلى وجهه الضخم وعينيْه المنتفختيْن في مرآةٍ قديمةٍ انتشرت بقع الرطوبة فوقها كما انتشر خِزي الماضي فوق ملامحه.

- محتاجين نغير مراية الحمام دي يا فتحي.. شكلنا فيها بقى شبه العفاريت.

قالها محاولاً تغيير دفة الحديث، فأتاه رد الأخير يُعيده إليها قائلاً في شرودٍ :

- احنا اللي محتاجين نتغير ، مش المراية يا صاحبي.

خرج بيومي من الحمام ممسكًا بمنشفةٍ في يده ألقاها على وجه الأخير وهو يهتف بتهكمٍ مريرٍ:

- يا أخي يخرب بيت ردودك..عايز مني إيه يا عم إنت؟ إنت يعني يا تهرج يا تنكد على أهلي؟

قهقه فتحي ضاحكًا وهو يُزيح المنشفة عن وجهه إلى جنبٍ، ثم غمغم معدلاً من وضع رقوده:

- عايز أنام الصراحة.. كفاية عليك كدا.

قالها واستدار برأسه لينام قبل أن يستطرد في بطءٍ:

- على فكرة أنا برضو خايف زيك بالضبط.. بس عايز أقولك إن الخوف ساعات هو اللي بيحركنا ناحية الطريق الصح..

أنا في مشاكل كتير في حياتي كان ممكن الخوف يمنعها.. أو عالأقل يخليني أتحرك عشان ألحقها قبل ما تحصل..

احمد ربنا إن وضعك يا بيومي أحسن من وضعي ..على الأقل خوفك على حاجة لسه مضاعتش.. حاجة لسه قدامك فرصة ترجعها.

تنهَّد..

أغمض عينيه للحظات سكونٍ مع ذكرياته.. ثم أكمل:

- القصد.. خلينا ننسى اللي فات.. ونركز في اللي عايشين عشان نحققه النهاردة.. يجوز نغسل بيه الماضي.

تمتم بيومي وهو يقترب من بذلته الميري البيضاء المعلقة بشكلٍ حاول جعله منظم على ظهر أحد الكراسي المحيطة بطاولة طعامٍ صغيرةٍ في ركن المكان:

- يا ريت يا فتحي.. يا ريت.

رفع فتحي إحدى حاجبيه في تعجبٍ وهو يسأله:

- إنت نازل دلوقتي واللا إيه؟ شغلك لسه كمان ساعة.

شرع في ارتداء البذلة وهو يُجيب:

- مش نازل عالشغل على طول.. هتمشى مع نفسي.. محتاج أشم شوية هوا.

قالها وهو يدور بعينيْه في المكان الضيق بحثًا عن شيء ما قبل أن يشير إلى فتحي هاتفًا:

ـ ناولني البيريه اللي واقع جنبك دا ونام عشان إنت ابتديت أصلاً تحول وإنت بتكلمني من التعب.

تحسس فتحي الأرض بيده حتى لامست المطلوب فأمسك به وألقاه بالمتبقي له من طاقة على امتداد ذراعه ناحية بيومي متمتمًا في تثاؤبٍ:

أنا فعلاً خلاص مش قادر.. تصبح على خير.

انحنى بيومي يلتقط القبعة التي سقطت أرضًا أمامه، ثم اعتدل يرد:

ـ وأنت من أهله.

قالها واتجه لفتح الباب الذي أصدر من جديدٍ أنواره وموسيقاه الصاخبة..

وخرج..

***

تثاءب سائق الحافلة المدرسية المتوقفة إلى جنب الطريق في تململٍ من فوق مقعده فاركًا عينيْه وهو يتابع المدرسة المرافقة التي وقفت على عتبة الباب المفتوح منتظرةً التوءمتين الصغيرتين اللتين استعدتا لعبور الشارع من الرصيف المقابل تمسك كل واحدةٍ منهما في يدي والدتهما التي قالت في عصبيةٍ جاذبةً إحداهن من يدها إلى الخلف:

ـ قلنـا نبـص يمـين وشـمال الأول قبـل مـا نعـدي الشـارع يـا عاليـا.

استسـلمت الطفلـة للأمـرِ لاويـةً شـفتيْها وهـي تتابـعُ الطريـق الخـالي إلى حـدٍّ مـا مـن السـيارات.. بينـما تدخلـت الأخـرى قائلـةً:

ـ أنا ببص يمين وشمال يا ماما.

هزَّت الأم رأسها، وهي تعبر بهم الشارع في حذرٍ متمتمةً:

ـ برافو عليكي يا ليلة إنتي شاطرة وبتسمعي الكلام.

أخرجـت الطفلـة لسـانها خلسـةً لإغاظـة شـقيقتها.. ثـم قالـت تسـأل الأم:

ـ ماما أنـا بابـا سـارة صاحبتـي هياخدهـا النهـاردة تتفسـح في النـادي بعـد المدرسـة.. ممكـن أروح معاهـا؟

كانـت تجذبهـم بخطـىً واسـعةٍ لعبـور الطريـق في اتجـاه المرافقـة تلـك التـي أطلـت عليهـم بابتسـامةٍ مـن عـلى بـاب الحافلـة فاتحـةً ذراعيْهـا وهـي تقـول بنـبرةِ تشـجيعٍ:

ـ يـلا الحلويـن ليلـة وعاليـا.. مـين الـلي هتدخـل البـاص الأول؟

هرولـت الفتاتـان رغـم ذراعـيْ والدتهـما المتشـبثة بهـما متسـلقتيْن بوابـة الحافلـة لتجذبهـما مُدرسـتهما مـن حافتهـا إلى الأعـلى، بينـما الأم تقـول محدثـةً ليلـة:

- مـش سـارة دي البنـت الشـقية الـلي عورتـك بهزارهـا في وشـك مـن شـهر؟ لا يـا ليلـة مـش هينفـع تروحـي مـع حـد.. هتخلصـوا المدرسـة وترجعـوا إنتـي وأختـك مـع بعض في البـاص.. ويـوم الأجـازة أنـا هوديكـوا النـادي بنفـسي.

مطت الطفلة شفتيْها تحدثها عبر إحدى النوافذ معترضةً:

- ليه يا ماما؟ أنا عايزة أروح مع سارة.

رمقتها الأم بنظرةٍ محذرةٍ، وهي تقول:

- وبعدين؟

اسـتكانت الطفلـةُ دون اقتنـاعٍ جالسـةً إلى جـوار أختهـا، بينـما السـائق يسـتعد لإغـلاق البـاب والتحـرك لولا أن اسـتوقفته الأم وهـي تهتـف:

- لحظة واحدة؟ إنت مين، أنا أول مرة أشوفك؟

رفـع الرجـل حاجبيْـه متعجبًـا، بينـما تدخلـت المدرسـة بنفـس ابتسـامتها توضـح لـلأم:

ـ دا عـم صفـي يـا دكتـورة.. سـواق جديـد عندنا في المدرسـة.. نـزل النهـاردة معانـا بـس عشـان عـم أحمـد واخـد أجـازة مرضي.

ثم التفتت نحو صفي قائلةً:

ـ دي الدكتـورة هنـاء يـا عـم صفـي.. مامـة البناتيـت الحلوين دول عليـا وليلة.

تدخلتْ إحدى الصغيرتين تهتف:

ـ اسمي عاليا.. عااليا.. مش عليا يا ميس.

ثم محدثةً والدتها، قالت:

ـ دي بتقول اسمي غلط يا ماما.

عنفتها هناء بنظرةٍ، وهي تقول:

ـ دي؟ اسمها الميس يا عاليا.. خليكي مؤدبة.

ابتسـمت لهـا المُدرسـة أنْ لا مشـكلة في حـين التفتـت هـي مـرةً ثانيـةً نحـو السـائق توصيـه:

ـ خـلي بالـك مـن الطريـق والنبـي يـا عـم صفـي.. امـشِ عـلى مهلك.

أومـأ الرجـل لهـا أنْ حسـنًا، وهـو يُطالـع سـاعته التـي أعلنـت عقاربهـا بعـض تأخـير مغمغـمًا:

- متقلقيش يا دكتورة.

ثـم ضغـط زر البـاب الـذي تحـرَّك منغلقًـا أمامهـا في سرعـةٍ كـررت خلالهـا وصاياهـا للفتاتـين:

- امسكوا إيد بعض..

كلوا كل السندوتشات..

اقعدوا مؤدبين في الفصل..

متاخـدوش حاجـة مـن حـد .. ولـو حـد اتعرضلكـوا مـن زمايلكـم مـتردوش عليـه.. روحـوا بلغـوا الميـس.

تحركـت السـيارة مـع كلماتهـا مبتعـدةً تراقـب تلويـح الطفلتـين لهـا مـن داخلهـا حتـى اختفـت..

لبرهـةٍ وقفـت سـارحةً مـع الأفـق قبـل أن تتنهـد محدثـةً نفسـها:

- ربنا يحفظكوا.

اتجهت بعد كلماتها عائدةً نحو المنزل..

دلفـت إلى المدخـل واسـتقلت المصعـد الكهربـائي الـذي صعـد بهـا إلى طابقهـا حيـث وقفـت أمـام بـاب شـقتها تطرقـه ففتحـت لهـا بجسـدها الضئيـل خادمتهـا الآسـيوية مفسـحةً لهـا مجـال الدخـول..

هــذا القلــقُ الــذي بــدا جــزءًا لا يتجــزأ مــن شــخصيتها.. وتلـك العصبيـة المفرطـة مـع الخـوف مـن كل مـا يُحيـط لم يكـن أبــدًا طبيعتهــا..

كانــت أكــثر هــدوءًا في الســابق.. لكــن الحيــاة عــلى وجــهٍ قبيــحٍ أيقظتهــا..

لا أمــان فــوق هــذه الأرض.. الخطــر يُحيــط بجميعنــا في كلِّ ثانيــةٍ ومــن كل الجوانــب..

الكلُّ يُكشر عن أنيابه في انتظار فرصةٍ سانحةٍ للانقضاض..

هــذا مــا أضحــت تؤمــن بــه واســترجعه عقلهــا وهــي تدخــل إلى المــكان وتقــف أمــام التقويــم المُعلــق فــوق أحــد جــدران الصالــة ..

ذلك التاريخ ..

الثاني عشر من أغسطس.. العام ألفان وخمسة عشر ..

يطالعها بجموده متحدياً ..ويراهن على عدم النسيان ..

معلناً ذكرى مضت منذ عام على يوم تغيرت فيه..

كلياً..

***

-٢-

السَّبَبُ الثَّانِي للسَّعَادَةِ

فرحة لمحناها في عيونِ آخرين..

***

تزوجت زينب..

كان زفافًا بسيطًا.. ضمَّته حوائط البيت الصغير..

بعضُ الزينة.. وسلاسل الأنوار المعلقة في المدخل.. مع سماعاتٍ ضخمةٍ تُصدر دبيبًا يعلو فوق صوت الأغاني نفسها..

كراسي المقهى الخشبية استقبلت عددًا لا بأس به من أقارب وأصدقاء العريس طاف صغارهم كنملٍ في أرجاء المكان بقطع الحلوى وزجاجات المياه الغازية..

بضعُ ساعاتٍ من الضجيج انتهى بعدها كل شيء.. مخلفًا الفراغ لنبيل الذي وجد نفسه يقف في المدخل ملوحًا لزينب وهي ترحل..

جميلةً كانت بفستانها الأبيض.. وهذا الفرح البادي على ملامحها لم يره منذ زمنٍ جعلها أجمل..

العروسات جميلات في أفراحهن على أية حالٍ.. لكن جمال زينب في نظره يفوق..

ربما لأنها أخته.. ربما لأنها تستحق.. وربما لأنه لم يجد عزاءً لنفسه من الفراق غير سعادتها..

لوحت له بدورها قبل أن تدلفَ إلى السيارة مع شريكها الجديد مبتعدةً ومن خلفها فوج سيارات ودراجات بخارية

تـرك قائدوهـا العنـان لصافـرات التنبيـه الخاصـة بهـم تعبـيرًا عـن الفرحـة..

لقد رحل الجميع.. وبقي هو..

صعـد درج البيـت الـذي بـدا موحشًـا برغـم الأضـواء المبهجة التـي انعكـس ضيُّهـا فـوق كل الأشـياء.. وصـوت الأغـاني التـي لم يـزل المـكان مـن بعـدِ رحيلهـم يصخـب بهـا..

سـحب بيـده طـرفيْ السـلك المعلـق في صنـدوق الكهربـاء الموجـود بجـوار بـاب المدخـل فكفـت الأغـاني وانطفـأت الأنـوارُ جميعُهـا، ثـم أكمـل صعـوده بهـدوءٍ..

دفـع بـاب الشـقة المـوارب بقدمـه ودار بنظـره في المـكان المقلـوب رأسًـا عـلى عقـبٍ..

هـذه الكـراسي الخشـبية هنـا وهنـاك سـيأتي عاملـو المقهـى في الصبـاح لجمعهـا.. زجاجـات الميـاه الغازيـة بعضهـا خـالٍ والبعـض الآخـر مقلـوبٌ أفـرغ محتوياتـه فـوق الأرضيـة التـي تشربـت منهـا الكثـير إلى جـوار علـب وأطبـاق طعـام فارغـةٍ وبقايـا قِطـع مـن الحلـوى..

يـترك كل شيء حولـه ويتجـه نحـو الهاتـف ذي القـرص الـدوار، ذلـك الـذي أصرَّ والدهـم عـلى الاحتفـاظ بـه وفـاءً لذكـرى قديمـةٍ يحملهـا..

طلب سلوى فأتاه صوتها عبر الأثير..

- كنت مستنية مكالمتك دي.. عارفة إنه شعور غريب..

- "أنا وحيد"..

تمتم لها بالكلمة ناقلاً أصدق شعور يكتنفه ..

لم ينجح في الهروب من حقيقة الأمر التي رددها في نفسه وشعر بها بين حوائط بيتٍ قديمٍ هو كل ما تبقى له..

طمأنته..

أخبرته أن شعوره طبيعي.. تقمصت كعادتها وقت ضعفه دور الحكيم العارف مكتمل الوعي..

لم ينتهِ العالم من حولك.. سيستمر بصورٍ مختلفةٍ.. وستستمر كذلك معه ذكرياتك هنا في البيت الصغير..

تعيش فيه بنصيبٍ من معاش والدك.. مختزنًا جزءًا من ميراثك المستحق..

ستبحث عن وظيفةٍ تُحقق خلالها ذاتك.. وستتكرر زياراتك لزينب وزوجها هذا الذي أعلم أنك لا تطيقه..

ثم وبغضِّ النظر عن كل ما سبق.. سأظل دومًا هنا معك..

أي وحدة تلك التي تحدثني عنها وأنا بالقرب منك؟ بلواك التي لا فرار لك منها..

حدثتـه بذلـك ونفذتـه عـلى مـدى أسـابيع ظـل خلالهـا عـلى حالـه بنفـس الشـعور..

حساسية مفرطة تكتنفه وتشوِّش في عينه الرؤية..

رغم مكالماتها.. يستشعر انشغال زينب بزوجها عنه..

رغم محاولاتها.. يستشعر تعاطف سلوى في حديثها معه..

يســكنه الحــزن برغــم وجودهــم مستســلمًا لأشــجانه.. مصدقًــا هذيــان شــعوره المختلــق..

قلَّت مكالماته وزياراته لزينب..

وتغيَّر مع سلوى أسلوبُه..

برغــم احتياجــه الشــديد لهــا أصابهــا بــداء الملــل.. وكأنمــا طــرح الأسى بــذوره فــوق أرضٍ كانــت تجمعهــما..

خسرها باستسلامه للحزن..

آخـر لقـاء لهـما تقاسـما فيـه الخطـى كعادتهـما يبحثـان عـن وظيفـةٍ.. تحدثـت هـي كـما اعتـادت.. ثـم جـاء عليـه الـدور فصمـت..

غُصة من الضعف كتمته ولاحظتها..

في بعــض الأحيــان نجــد أنفســنا وقــد وقفنــا عاجزيــن مستســلمين أمــام ضيــاع أشــياء كان المــوت في ســبيل بقائهــا أفضــل..

تظل الأنفاس الواهنة تُعاتبنا.. أي شيء سلبنا إرادة الدفاع عنها؟..

لو كان الخوف لقضى عليه خوفنا الأكبر من الفقدان..

ولو كان الضعف.. فالضعف في حضرة المحبين قوة..

ليته شيئًا واحدًا ليقتل.. لكنه خليطٌ من الأشياء..

خليطٌ من المشاعر الجاثمة ضاقت بها أنفاسه فتمتم لها في آخر طريق عودتهما ذات ليلةٍ بصوتٍ مختنقٍ:

- بكره متصحينيش معاكي.. انزلي لوحدك كملي تدوير.. عشان أنا تعبت.

فهمت معنى العبارة التي لم يُدرك نفسه كيف صاغها.. ثم رحلت في حرجٍ متألمٍ لتنفيذ مطلبه..

تركته متفرغًا للوحدة بعدها.. عاكفًا في البيت لا يبرحه وكأنه يستعد لفراقه هو الآخر على يد زوج شقيقته الذي أتاه ذات يومٍ مطالبًا بنصيبها في الشقة الباقية من التركة لم تُقسم..

لم يعترض نبيل.. بدافع استسلامه لكل شيء لم يعترض.. بيعت الشقة وتقاسموا ثمنها الذي استأجر بنصيبه منه غرفةً أصغر على سطح نفس البناية..

غرفـة شـاركت أنفاسـه ضيقهـا.. وكثـير مـن الأسى عـلى مـا تغـير مـن أحـوال.. مـع ذكريـاتٍ اعتـاد عقلـه اجترارهـا في لحظـات ونَـسٍ بينـه وبـين سـماء ليـالٍ كان يمضيهـا جالسًـا بجـوار السـور المرتفـع أمـام بابهـا الخشـبي..

فوق السطح.

***

التاسعة صباحًا بتوقيت القاهرة..

مرتحناش .. من يوم ما سافرت.. واستنينا يجينا الرد..

مرتحنـاش مـن يـوم مـا سـافرت.. واسـتنينا يجينـا الـرد.. كنـا زمـان في الهـوا داييــ

.....صمت.. مع زفرة ضيق..

مرتحناش من يوم ما سافرت.. واستنينا يجينا الرد..

مرتحنــ..

....

مرتحناش من يوم ما سافرت.. واستنـ..

زفـر ثانيـةً بـلال مـرزوق المنولوجسـت نحيـل الجسـد طويـل القامـة في حنـقٍ وهـو يمـد يـده للمـرة الثالثـة ناحيـة الهاتـف الملقـى بالقـرب مـن جسـده الممـدد عـلى أرضيـة المـكان ضاغطًـا

زرَّ إلغـاء المكالمـة قبـل أن يُمسـك بـه هـذه المـرة ويلقيـه لأعـلى نحـو صاحـب الكـرش الضخـم صائحًـا في غيـظٍ:

- عنـك مـا ارتحـت يـا بعيـد.. اصحـى يـا عـم إنـت موبايلـك مـش مخلينـا عارفـين نغفّـل.

فتـح محمـود عينيْـه بغتـةً مـع ارتطـام الهاتـف بوجهـه ونـدَّت منـه آهـة حـادة لم يهتـم لهـا بـلال وهـو يُعـاود محاولات نومـه الفاشـلة مـرةً أخـرى..

لحظـات مـرَّت اسـتوعب فيهـا رفيقـه الموقـف فتمخضـت شـفتاه لفظًـا كاد أن يفصـح عنـه لـولا ارتفـاع رنـين هاتفـه مـن جديـدٍ.. رفعـه بيـده متطلعًـا عـبر الشاشـة الصغـيرة التـي قرَّبهـا مـن عينـه للحـد الأقـصى يقـرأ اسـم مُحدثـه.. ثـم نظـر إلى السـاعة التـي أشـارت عقاربهـا إلى التاسـعة وبضـع دقائـق صباحًـا قبـل أن ينقلـه إلى أذنـه ضاغطًـا زرَّ الإجابـة وهـو يُغمغم بصـوتٍ بـدا فيـه النعـاس هـو المسـيطر:

- صباح الخير يا شادية.

أتـاه صـوتٌ أنثـوي عـبر الأثـير مـن الجانـب الآخـر مرتفعًـا واضحًـا في أذنـه وكـرذاذ حـروف عـلى مسـامع بـلال الراقـد بالقـرب منـه مسـتفزًا فضولـه الـذي تغلـب عنـده عـلى الرغبـة في النـوم..

صمت محمود مستمعًا قبل أن يُجيب:

- يعنـي إيـه في الشـارع مـن دلوقتـي؟ لا أكيـد مـش بـدري أوي كـدا.. أسـاسي كنـت هكلمـك أول مـا أصحـى طبعًـا.

لحظة صمت أخرى..

- بالذمــة دا صــوت واحــد صاحــي؟.. يــا بنتــي أنــا الــلي عايــزك.. بقولــك إيــه؟ اقفــلي يــا شــادية وهكلمــك لمــا أصحــى كــدا وأكــون فايــق.. ســلام.

بادلتـه شـادية بضـع كلـماتٍ مـن الجهـة الأخـرى أنهـى عـلى إثرهـا المكالمـة بسرعـةٍ بـدت طريقتهـا في نظـر بـلال غـير مباليـةٍ فاعتـدل بجسـده سـاندًا ذراعـه عـلى الأريكـة، وهـو يسـأل:

- شادية اللي كانت بتكلمك؟

في غـير اهتـمامٍ تأكـد بنفـس طريقـة الـرد مسـتخدمًا عينًـا ضعيفـة النظـر مـن إغـلاق المكالمـة قبـل أن يلقـي بالهاتـف إلى جـواره فـوق الأريكـة وهـو يمـطُّ شـفتيه متمتـمًا:

- اللــه؟!.. دا إنــت مركّــز مــع المكالمــة ومــش عايــز تنــام بقــى؟!

لوَّح بلال بيده في غيظٍ، قائلاً:

- أنــام إزاي وعمــرو ديــاب بتاعــك شــغال زن جنــب وداني كل خمــس دقايــق؟ دي اتصلــت أكــتر مــن خمــس مــرات..

قال مرتحناش قال يا تسعيناتي يا متصابي.

أشار إليه محمود:

ـ خليـك في حالـك طيـب يـا عـم القديـم.. الحاجـات دي إنـت ملكـش فيهـا.

تنهـد بـلال خافضًـا رأسـه لوهلـةٍ.. قبـل أن يعـاود رفعهـا متسـائلاً بنفـس العصبيـة:

ـ يـا أخـي أنـا مـش فاهـم إنـت أي واحـدة في الدنيـا دي ممكـن تعرفـك عـلى خيبـة إيـه؟ إيـه الـلي ممكـن تشـوفه مهـم يعنـي فيـك والـلا مميـز أنـا مـش واخـد بـالي منـه؟

راق اغتياظـه الواضـح بـين الحـروف لمحمـود وأثـار فيـه غـرورًا وجـد نفسـه يتمتـم بـه وهـو يجيبـه متهكـمًا:

ـ إيه يا بلبل إنت غيران وللا حاجة؟

بـدت البلاهـة عـلى وجـه بـلال وهـو يُعـدل مـن وضعـه مؤكـدًا التطلـع في وجـه صديقـه الواثـق بفـمٍ مفتـوحٍ ولسـانٍ علـق اضطرابًـا للحظـة قبـل أن يقـول في حـدَّةٍ:

ـ غـيران آه.. باصصلـك في الكـرش والصلعـة والحاجـة وسـتين سـنة الـلي عنـدك.. يـا أخـي بـلا كلام فـاضي.

جـاءه ردٌّ محمـود عـلى هيئـة ضحكـةٍ طويلـةٍ أدرك منهـا وقوعـه في شَرك الاسـتفزاز الـذي نصَبـه لـه، فاسـتطرد في حنـقٍ:

- ماشي يا كتلة الرخامة.. أنا الغلطان أعطل نفسي في كلام فاضي معاك بدل ما أركز في اللقاء المهم اللي هعمله كمان كام ساعة.

قالها وهو يُعيد جسده إلى وضعية الرقود، بينما اعتدل نحوه محمود قائلاً في اهتمامٍ:

- خلاص يا عمي متزعلش.. واستنى متنامش عايزك.

سأله بلال متململاً:

- عايزإيه؟

تحسست يد محمود الأريكة على الفور تبحث عن هاتفه الذي ألقاه منذ قليلٍ عليها، قائلاً:

- جاتلي رسالة عالموبايل الساعة ٢ الفجر ومعرفتش أقراها عشان نظري زي ما أنت فاهم.. عايزك تشوفهالي.

تمتم له بلال وهو على وضعه دون أن يلتفت:

- طيب يا محمود خليها دلوقتي.. هقراهالك لما أصحى.

اعتدل محمود أكثر ملتفًا بأطنان الشحوم على جسده إلى وضعٍ أقرب للجلوس مادًّا يده يهز بها كتف بلال في إصرارٍ، قائلاً:

ـ لما تصحى إيه دا أنا كنت ناوي أصحيك أصلاً ساعة ما وصلت.. معلش أنا شاكك إنها من بنتي.. هي الوحيدة اللي بتبعتلي في الأوقات الغريبة دي.

من خلف أثر النعاس المغلف لعبارته أجاب بلال:

ـ مش شرط يا محمود.. ما يجوز إعلان من شركة الاتصالوالـلاعـرضبامـبرزمقدمينـهلعملائهـمالمميزيـن.

هزَّ محمود رأسه أن لا، وهو يجاوبه محاولاً تحفيزه:

ـ لا يا بلال "هيا" أنا عارف.. ولولا مشكلة الشبكية اللي في عيني والدكاترة اللي قالولي ماجهدهاش كنت قريتها.. فانجز كدا وخليك جدع عشان أسيبك تنام.

مرَّت لحظة سكون بعد انتهاء عبارته قلب خلالها بلال تهديد الأخير في رأسه قبل أن يعتدل متطلعًا إليه وهو يقول:

ـ ناولني الموبايل يا رخم خلينا نخلص.

تهللت أسارير محمود وهو يناوله الهاتف في سرعة مراقبًا بتلهف أصابعه التي ضغطت الأزرار استعدادًا للقراءة قبل أن يبتسم الأخير مغمغمًا بشيء من سخريةٍ:

ـ سبحان الله.. بنتك شكلها عبيطة زيك يا محمود.

قالها، فمال نحوه الأخير بلهفته يتساءل:

ـ طلعت "هيا"؟

أومأ برأسه قائلاً وهو يُعاود التطلع في الشاشة أمامه:

ـ مـش باعتالـك غـير بيتـين شـعر سـمعتهم في حتـة تقريبًـا والـلا إيـه أنـا معــرفش.

ـ ملكش دعوة.. اقراهم بس.

حثـه بالكلمـة محمـود فتثـاءب قبـل أن يـشرع قارئًـا بصـوتٍ مسموعٍ:

اسمع يا سيدي بتقولك إيه:

عشان خاطري.. تسيب الحب يتعود عليك وحده..

وسيبه لوحده هيغير كتير أوي فيك..

مفيش ولا حلم هيسيبك تموت بعده..

دا حلمك أحلى شيء فيه إنه بيصحيك..

وأنا في البعد مش بعند..

ولا اختارت الفـ...

قطـع قراءتــه قبــل اكتمالهــا.. والتفــت إلى صــوت هنــات البـكاء التـي صـدرت عـبر أنفـاس محمـود الـذي أخفـى وجهـه بـين راحتيْـه للحظـاتٍ تمتـم بعدهـا بصـوتٍ متهـدجٍ:

ـ كمِّل يا بلال.. سكت ليه؟

تنهَّد بلال في إشفاق وهو يتطلع إليه قائلاً:

ـ أكمّل إيه ياعم بس! هو أنا كل ما هقرالك رسالة منها هتعيط كدا؟

على حاله ظل محمود لثوانٍ قصارٍ تمالك خلالها بعض الجأش وغمغم:

ـ وحشتني أوي يا بلال.

ثم عاد ليُخفي دموعه المنهمرة من جديدٍ بين كفيه وهو يكمل:

ـ اعذرني.. أنا آسف!

راقبه بلال في صمتٍ للحظاتٍ مستشعرًا كمَّ أساه المختزن قبل أن تفصح شفتاه عن عبارةٍ همس بها بصوتٍ خفيضٍ:

ـ ولا يهمك.

قالها وهو يُعاود تأمل ما تبقى من الكلمات..

كان يعرف سرَّ أوجاع الأخير ويتفهمها..

هو مثله كذلك..

يُدرك أن فراغًا يتركه الغائبون وراءهم لا مالئ له غير الدموع..

ليته ينسى.. وليت رفيقه يفعل..

حتى النسيان يبدو لهم هروبًا صعب المنال..

هم عاشقو ذكرى لا يملكون في الحياة سواها..

رحلت عنه رغبة النوم..

تنهد ثم نهض في هدوءٍ تاركًا لرفيقه خصوصية الحزن..

اتجه إلى حيث حقيبةٍ قماشيةٍ صغيرةٍ ملقاةٍ بركنٍ من أركان المكان مدَّ يده داخلها ملتقطًا بعض أشرطة تسجيل قبعت تحت كمٍّ من الأتربة فيها..

حملها بين كفيه نافثًا عنها الغُبار..

هنا ما تبقى له من ماضٍ يفتقده..

وذكريات تُراود اشتياقه في كل صباح..

***

في آخر نفقِ العدم المحيطِ به رآها..

سيدةً عجوزًا كانت.. تقف متشحةً بعباءةٍ سوداء وتحمل في يدها أكياسًا مُلئت ببعض الحاجيات على ناصية ذلك الشارع الضيق في انتظار إحدى عربات التوكتوك..

بجوارها على الرصيف جلس صبي صغيرٌ بدت على وجهه أمارات التعب والتأفف، أشارت إليه أن انهض وأنفاسها المجهدة بدورها تسبق كل الحروف قائلةً:

- قوم يا ابني من عالرصيف هتبهدل هدومك.

ضرب الفتى الأرض بقدميْه صائحًا في تذمر:

- أنا تعبت بقى يا تيتة.. بقالنا ساعة بنلف في السوق.

منحته ابتسامةً مشجعةً رغم التعب أخفت وراءها آلام عظامها الروماتيزمية، وهي تقول:

- معلش يا حسام أديك بتساعد تيتة عشان تحضرلك الأكل اللي بتحبه.. مش إنت بتحب المسقعة برضو؟

بنفس التذمر أجاب:

- لا مش بحبها خلاص أنا تعبان أوي ورجلي وجعتني.

قالت له في تعاطفٍ:

- خلاص هانت يا حبيبي.. هنشاور لأي توكتوك نركبه يدخلنا الشارع جوه.. ومش هنمشي كتير.. استحمل معلش.

لم تمض دقائق بعد كلامها حتى توقف بالفعل أمامهم أحد التكاتك التي أشارت إليه في حين هتف الصغير مستنجدًا:

- آخر الشارع معاك.

أشـار الرجـل بالموافقـة لهـما، فاسـتقل مـع جدتـه العربـة الصغـيرة التـي انطلقـت بهـما متقافـزةً مرتجـةً فـوق مقبـات الطريـق ومطباتـه..

مـن حسـن الحـظ أن حصلـوا عـلى توصيلـة في مثـل تلـك السـاعة المتأخـرة مـن بعـد انتصـاف الليـل..

الشـارعُ مُظلـمٌ لدرجـةٍ مقلقـةٍ.. والـكلاب الضالـة تنبـحُ متراكضـةً خلـف العربـة الصغـيرة المنطلقـة، بينـما الصـوت الصاخـب للأغنيـة الشـعبية التـي يرافقهـما بهـا السـائق رحلتـه يصـم أذن السـيدة الكبـيرة ولا يعلـو فوقـه سـوى صـوت آلام عظامهـا المتزايـدة مـع الارتجـاج..

وصلوا إلى البيت أخيرًا، فترجَّلا..

امرأةٌ عجوزٌ منهكةٌ وفتى صغيرٌ يُصارع للبقاء يقظًا..

البنايةُ المستقرة أمامهما بقدرةٍ إلهية رغم قدمها تنتظر..

دلفا بحملهما إلى مدخلها المعتم..

الظلام دامسٌ..

والفتـي يُقـاوم رغبـة النـوم المسـيطرة حتـى كاد لا يقـوى عـلى رفـع قدميْـه عتبـةً واحـدةً..

نظرت إليه مغمغةً:

- استحمل يا حسام مش هننام عالسلم.. لما نطلع نام براحتك؟

أغلق حسام عينيْه واستند بجسده عليها مغمغمًا:

- عايز أنااااااام.

في اللحظة التي دلف فيها خلفهما إلى المدخل ذلك الجارالذي ما أن تبينها من وسط العتمة حتى ألقى عليها التحية قائلاً:

- حاجّة وداد أخبارك إيه؟

هزَّت هي رأسها وهي تنظر إليه مجيبةً:

- بخير الحمد لله يا إبراهيم.

ثم تركته ينحني نحو الصغير مداعبًا، وهو يقول:

- إزيك ياعم حسام؟ ..ها ؟؟ اتجوزت واللا لسه؟

لم يُجبه صاحب الخمس سنوات، فمدَّ يده يربت على رأسه مرةً أخرى مستفهمًا قبل أن تُشير إليه وهي تمسح بكفها على رأس الصغير متمتمةً:

- لا حسام كدا خلاص بياكل رز مع الملايكة.

ثم تابعت ويدها تتحسس الحائط في الظلام بحثًا عن زرِّ إضاءة السلم:

- لسه صغير يا حبة عيني وأمه مش معوداه عالمرمطة.. خدته معايا السوق ولفينا نجيب حاجات للغدا بكرة عشان عازمة عيالي عندي فراجع زي مانت شايف كدا.

ضحك الجار ضحكة قصيرة وهو يرد:

- ربنا يخليهولكوا ويديكي الصحة.. هو الحفيد الأولاني كدا فأي عيله بيبقى متدلع.. أمال خاله فتحي فين؟

تنهدت قائلةً بعد آهة ألمٍ ندَّت رغمًا عنها:

- ربنا معاه هو كمان تقريبًا عنده ضغط في المستشفى النهاردة.. كلمته أكتر من مرة عشان يجيبلي اللي محتجاه وهو راجع مردش عليا.

قالتها ثم التفتت تتطلع بعينٍ حاولت بها تبديد الظلام المسيطر نحو السلم القديم الذي بدا أمامها شاهقًا متحديًا وتمتمت:

- إيه العتمة اللي إحنا فيها دي؟

هزَّ الجار رأسه مغمغمًا:

- الكهربا قاطعة بقالها ساعتين ومش هترجع الليلادي.

زفرت في ضيقٍ ثار معه ألمها مغمغمةً:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. ليه كدا بس؟

هزَّ كتفيه بلا معنى، وقال:

ـ ولا أعـرف.. كلمـت المصلحــة قالـولي إن في عطـل في كبـل المعرفـش إيـه وهياخـد وقـت في تصليحـه.. أنـا حتـى كنـت نـازل أجيـب شـمع عشـان الجماعـة عنـدي بيخافـوا ينامـوا في الضلمـة.

ابتسمت له قائلةً:

ـ آه ومالـه.. الشـموع حلـوة بتـدي نـور ورومانسـية في نفـس الوقت.

ضحك مرةً أخرى، ثم تقدم بعرض خدماته قائلاً:

ـ طـب هـاتي عنـك بقـى الحاجـة الـلي إنتـي شـايلاها دي يـا مامـا أطلعهـا معـاكي.

أشارت إليه أن لا وهي تتشبث بما في يدها وترد:

ـ لا سـيبلي أنــا الحاجــة دي خفيفــة عليــا.. إدينــي بــس شـمعتين مالـلي جبتهـم دول أنـور بيهـم عنـدي.. وشـيللي حســام بــس طلعــه معايــا عشــان تبقــى خدمتنــي.

لم ينتظـر الرجـل سـماع المزيـد فأخـرج مـما في يـده اثنـين أعطاهـما لهـا ثـم هـمَّ بحمـل الصغـير الواقـع في مرحلـة النـوم الرماديـة ورفعـه إلى صـدره قائـلاً:

ـ بس كدا يام فتحي؟ دا إنتي تؤمري.

صعـدا السـلالم المتهالكـة معًـا لا يبطئهـما سـوى خطواتهـا الثقيلـة.. وأنفاسـها الأثقـل..

يـئنُّ الأورطـي تحـت أطنـان شـحمها.. وينفـرد الروماتيـزم بتعذيـب مفاصلهـا..

تقـف بـين الهينـة والأخـرى مسـتندةً إلى السـور جوارهـا لالتقـاط الأنفـاس، ثـم تتابـع الصعـود حتـى وصـلا.

فتحـت البـاب بمفتاحهـا القديـم.. أفسـحت للرجـل مجـالًا دلـف خلالـه بحملـه ووضعـه فـوق الأريكـة الكبـيرة في الصالـة مغمغمـةً تشـكره:

- كتر خيرك يا ابني.. معلش تعبتك معايا.

هـزَّ رأسـه لهـا أنْ لا داعـي لمثـل تلـك العبـارات وهـو يتمنـى لهـا مسـاءً سـعيدًا عـاد معـه أدراجـه إلى الخـارج لتغلـق هـي البـاب مـن ورائـه في هـدوء..

***

بأناقتـه المعهـودة.. ووجهـه البـارد الخـالي مـن أي تعبـيرٍ عـلى صـوت كعـوب المدافـع المرتطمـة بـالأرض والأيـادي المرتفعـة بتحيـةٍ عسـكريةٍ عـلى جانبيْـه دلـف..

تُلاحقـه الأقـدام المرتبكـة إلى داخـل مركـز الشرطـة والأكـف المرتعشـة بالتحيـة كأصواتهـم بـين الحـين والآخـر..

صباح الخير سعادة الباشا.

صباح الخير يا ياسر باشا.

في الثلاثينيــات مــن عمــره كان.. وســيمٌ لدرجــةٍ صنعــت تباينًـا صارخًـا بينـه وبـين مـا حولـه مـن وجـوه بشـوارب ضخمـة وأجســام مترهلــة..

مغـرورٌ بشـكلٍ لم يسـمح لـه بالنظـر حتـى في وجـه أحدهـم وهـو يتابـع طريقـه المخـلى أمامـه برغـم الازدحـام متجهًـا إلى مكتبـه الخـاص الـذي اسـتقبله بمعطـر الـورد المنتـشر في أرجائـه..

ضاقــت حدقتــاه للحظــةٍ بعــد الدخــول وهــو يقــف في منتصـف الغرفـة مستنشـقًا الرائحـة الزكيـة قبـل أن يُغمغـم في هــدوءٍ دون أن يلتفــت:

- أنـا قلـتُ للحـمار الـلي بـيرش المعطـر دا إن ريحتـه بتخنـق لـو اتـرش زيـادة.

أتتـه الهمهـمات مـن ورائـه، فالتفـت بهـدوءٍ نحـو اثنـين مـن عسـاكره وعامـل الشـاي الواقفـين خلفـه صائحًـا:

- ياريـت حـمار تـاني بقـى يفتحلنـا الشـباك عشـان ريحـة الزفـت العاليـة دي تخـف شـوية.

سـارع أحـد العسـاكر بتنفيـذ الأمـر.. بينـما اندفـع الآخـر لتعليـة درجـة التبريـد بالمـكان.. قبـل أن يشـير هـو لكليْهـما

بالخـروج.. في حـين اقـترب حمـدي عامـل الشـاي واضعًـا فنجانًـا مـن القهـوة أمامـه متمتـمًا:

- صباح النور معاليك.. القهوة المظبوطة بتاعة سيادتك.

قالهـا وهـو يقـف كالعـادة منتظـرًا التـمام مـن سـيده عـبر رشـفة أولى يعلـن بعدهـا عـن رضـاه.

مـدَّ النقيـب يـاسر يـده ممسـكًا بالفنجـان ثـم رفعـه نحـو شـفتيْه مرتشـفًا منـه القليـل في بـطءٍ حـارقٍ لأعصـاب الرجـل المنتظـر يتأمـل في كل تفاصيلـه..

الشعر المصفف بعناية.. الملابس المهندمة..

ساعة اليد الجذابة بشكلٍ لا يُوصف..

وفنجـان القهـوة التـي أعادهـا الأخـير إلى مكانهـا معيـدًا معهـا الرجـل إلى واقعـه وهـو يمنـي نفسـه بعـدم التعنيـف ككل يـومٍ قبـل أن يتسـاءل:

- إيه يا باشا؟ أغير لحضرتك القهوة لو مش عاجباك؟

أشـار إليـه باقتضـابٍ خالعًـا سـترته ليضعهـا عـلى ظهـر كرسـيه الجلـدي الوثـير:

- غيرهـا آه.. ومتجيبـش قهـوة أصـلاً عشـان قريـت إنهـا بتـضر الكبـد.. هاتـلي عصـير برتقـال.

أومـأ حمـدي برأسـه عـلى الفـور أنْ سـمعًا وطاعـةً رغـم عـدم توافـر البرتقـال..

الباشـا لا يعنيـه في شيء مـا إذا كان طلبـه متاحًـا في المـكان أم لا..

حتماً سيأتيه بالبرتقال حتى وإن اضطر لزراعته..

دار ما دار بخاطره في بضع ثوانٍ وهو يرد:

ـ تحت أمر معاليك.. دقايق ويكون العصير عند سيادتك.

أمال له الآخر طرف شفته مبتسمًا، وهو يقول:

ـ تقريبًـا إنـت الوحيـد هنـا يـا حمـدي الـلي لسـه مصابـوش النهـاردة داء الحموريـة.

هـزَّ الرجـل رأسـه بـلا معنـى، بينـما تابـع الأخـير بنفـس الهـدوء:

ـ خـدت بالـك مـن الحـمار الـلي رايـح يـزودلي التكييـف أصلاً وإحنـا فاتحـين الشـبابيك؟.. دا لـو جحـش صغـير مكانـش هيعمـل كـدا.

تساءل الرجل في اهتمامٍ حذرٍ:

ـ تحب سيادتك أطفيه؟

أشار إليه أنْ لا، قائلاً:

ـ لا، سيبه وروح شوف اللي وراك.

هزَّ رأسه مرةً أخرى، ثم تمتم:

ـ تؤمرني بحاجة تانية حضرتك؟

بغير اهتمام أجابه وهو يشير إليه بالرحيل:

ـ متنساش العصير!

هـز رأسـه مـرةً أخـرى ثـم خـرج مـن المـكان مغلقًـا البـاب خلفـه قبـل أن يتنفـس الصعـداء..

على الفور اقترب منه زميلاه العساكر وأحدهما يسأله:

ـ ها.. إيه الأخبار؟

أشار إلى أحدهما قائلاً في شماتة:

ـ قال عليك حمار.

ثم أشار ناحية الآخر.. مكملاً:

ـ وعليك إنت كمان.

ثم أشار إلى صدره، وتابع:

ـ وأنا لسه جحش صغير لحد ما أجيبله العصير اللي طلبه.

قالهـا وانطلـق تـاركًا الزميلـين يحـاولان اسـتيعاب كلماتـه.. متطلعـيْن كلاهـما نحـو الآخـر في بلاهـةٍ..

***

انتهى بلال من إعداد القهوة خاصته وهو يقف داخل المطبخ الصغير في المكان باحثًا عن فنجانٍ صغيرٍ صبَّ فيه ما صنع قبل أن يخرجَ به متحركًا في بطءٍ بين الجسديْن النائميْن متجهًا إلى الخارج..

بعض هنَّاتٍ صدرت من خلفه فالتفت إلى مصدرها ليجده فتحي وقد تعرَّق جسده بالكامل وهو يرقد مغمضَ العينين يُقاوم كابوسًا ما خلال نومه فوضع الفنجان الساخن جانبًا ومال نحوه يُحاول الاطمئنان عليه:

- فتحي؟ إنت صاحي؟

لم يجبه الغارق في عالمه السرمدي.. بينما ارتفعت في ذات اللحظة بشكلٍ مفاجئ داخل المكان موسيقى السيرك مع تلك الأنوار المختلفة التي صاحبت طرَقات على الباب الخارجي من يدٍ لا تطيق الصبر..

زفر في انزعاجٍ من هذه الضوضاء المفاجئة ثم همَّ متجهًا نحو الباب ليفتحه..

على عتبة الباب ومن خلفها السطح وقفت بعباءتها السوداء شادية.. تذكرها بتلك الوحمة الكبيرة إلى جانب عينها والتي حاولت تغطيتها بقلم تحديد بالغت في استخدامه حول العينين..

بفـمٍ يلـوك كتلـةً ضخمـةً مـن العلكـة بـدا أنهـا لا تنتهـي خـرج سـؤالها:

- محمود باشا هنا؟

ظـل صامتًـا يتطلـع لهـا برهـةً فمـدَّت هـي رأسـها إلى داخـل المـكان تُحـاول رؤيـة مـا خلـف كتفـه، قائلـةً:

- إنت مبتردش ليه؟ الباشا موجود واللا لأ؟

امتلك هو في لحظته زمام الكلمات فأشار إليها يتساءل:

- باشا إيه يا بنتي؟

تراجعت واضعةً يدها في وسطها مكررةً مع مللٍ:

الله؟ ما أنا قلت عايزة محمود باشا.. أغنيها؟!

تنبـه لطريقتهـا الفجـة في الحديـث معـه فهـم بتوبيخهـا لـولا أن قاطعـه صـوت محمـود الناعـس مـن خلفـه يهتف:

- إنتي جيتي يا شادية؟

مـا أن سـمعت هـي الصـوت حتـى اندفعـت إلى داخـل المـكان مزيحـةً بيدهـا بـلال الـذي أفسـح لهـا الطريـق مرغـمًا، قائلـةً في لهفـةٍ:

- طب ما الباشا جوه أهو.. إوعالي كدا فسّح لي طريق.

ثـم اسـتطردت ناظـرة إلى محمـود الـذي ظـل مسـتلقيًا كـما هـو فـوق أريكتـه يرمقهـا بعينيْـه المنتفختـيْن:

- جيـت يـا باشـا.. فـوق كـدا وكفايـة كسـل.. الظهـر هيـأذن وإنـت لسـه نايـم؟

قالتهـا وهـي تتجـه نحـوه خالعـةً عباءتهـا التـي ألقـت بهـا عـلى جنـبٍ.. فتمتـم وهـو يرفـع يـده في تكاسـلٍ دون أن يتحـرك مـن مكانـه ممسـكًا بيدهـا يصافحهـا مازحًـا:

- الضهر هيأذن؟.. ماشي يا بنت إمام الزاوية.

ثم أشار إليها بالجلوس، فابتسمت لتهكمه وهي تقول:

- مـا تتريقــش طيــب.. أنــا صحيــح لســه ملتزمتــش بــكل الفــروض بــس أهــي بدايــة.

جلســت حيــث أشــار وتأملــت المــكان مــن حولهــا بعينــين خاويتـين التقطتـا جسـد فتحـي الراقد بالقـرب منهم، مسـتطردة:

- إيـه عشـة الفـراخ دي يـا محمـود باشـا؟ ومـين الـلي نايـم هنـاك ده؟ إنـت مأجـر أوضـة شِرك؟

ابتســم لامحًــا نظــرة الاســتنكار المرتســمة عــلى وجــه بــلال الواقـف خلفهـما قبـل أن يُحدثهـا قائـلاً:

- بطـلي أسـئلة دلوقتـي وقوليـلي.. إيـه الـلي جايبـك بـدري كـدا؟ يـا بنتـي أنـا مـش قايلـك لمـا أصحـى هكلمـك؟

مسـحت بيدهـا فـوق صـدره قائمـةً بمـا يشـبه التدليـك وهـي تـرد:

- عـادي يعنـي أنـا ورايـا حاجـة؟ مـا أنـت عـارف مـن بعـد مـا سـبت الشـغل وأنـا فاضيـة.. وبعديـن مـش أحسـن مـا أتأخـر عليـك؟

ربـت فـوق يدهـا الماسـحة عـلى صـدره قبـل أن يحملهـا بعيـدًا عنـه احترامًـا لنظـرة بـلال الواقـف مشـدوهًا وراءهـا بجـوار البـاب المفتـوح.. ثـم قـال في امتنـانٍ:

- ربنا يخليكي يا شادية.. طول عمرك جدعة وأنا عارف.

ثم دفعها في كتفها يحثها على النهوض مستطردًا:

- بـس معلـش قومـي اقعـدي بـرة كـدا ربعايـة لحـد مـا أفـوق وأطلعلـك.

رمقته هي بعينها في تشككٍ مغمغمةً:

- شكلك هتنام تاني.

هـزَّ رأسـه وهـو يسـحب نفسًـا عميقًـا مـن الهـواء مـلأ بـه صـدره قائـلاً:

- يعني.. ربعاية كدا وهطلعلك.

ثم استطرد وهو يُحاول الاعتدال في مكانه:

- ناوليني بس إزازة المية اللي جنب رجلك دي الأول عشان ريقي ناشف.. والبسي عبايتك عشان الهوا على سطوحنا هنا بحري.

استمرت في النظر إليه منحنيةً تجلب له زجاجة المياه.. فأخذها منها قبل أن تنهض كما طلب مغادرة المكان إلى الخارج مارة من أمام بلال الواقف على نفس حاله بجوار الباب يتابعها في امتعاضٍ ميزته، فقالت محتدةً:

- إيه يا عم إنت بتبصلي بقرف كدا ليه؟

ارتفع حاجبا بلال لأسلوبها في دهشةٍ، فغمغمت:

- هوا إيه أصله دا؟

ندَّت من بين شفتيْ محمود خلفهما ضحكةٌ قصيرةٌ أشار بعدها إلى بلال قائلاً:

- معلش يا بلبل شوف شادية تشرب إيه بس على ما أقوم.

التفت بلال نحوه مستهجنًا الطلب في حين عادت هي إلى الداخل ملتقطةً عباءتها مع فنجان القهوة الذي تركه الأخير لتوه قبل فتح الباب قائلةً:

- لا مفيش داعي للتعب.. أنا هشرب كباية البن دي لحد ما تفوق لي.

قالتهـا.. ثـم عـادت متجهـةً إلى خـارج المـكان عابـرةً مـرةً أخـرى مـن أمـام بـلال الـذي انتظـر حتـى ابتعـدت قبـل أن يسـتدير بـكل حنقـه في وجـه محمـود صائحًـا:

- ميؤمـرش البيـه أحـضر لسـيادتها الفطـار كـمان عـلى مـا هـو يكمـل نومـه؟

ملوحًا له بالهدوء أشار محمود وهو يغمغم:

- يـا عـم بـلال متكـبرش الدنيـا أوي كـدا.. دي ضيفـة وأخـوك الـلي طالـب منـك تقابلهـا بـس بشـكل كويـس.

ألقـى بـلال نظـرةً عابـرةً إلى الخـارج ليتأكـد مـن أنهـا لا تسـمعه وهـو يقـترب مـن الأخـير يجيبـه بعصبيـةٍ:

- ضيفـة إيـه ياعـم إنـت مـش واخـد بالـك مـن أسـلوبها واللا إيـه؟ دي داخلـة كأنهـا صاحبـة بيـت.. وبعديـن خـدت كبايـة القهـوة الـلي عاملهـا لنفـسي مـن غـير اسـتئذان ولا أي حاجـة.

تبسـم في وجهـه محمـود محـاولًا امتصـاص غضبـه وهـو يوضـح:

- دي بـت غلبانـة يـا بـلال وإنـت عـارف.. متاخـدش عـلى طريقتهـا وثقافـة التعامـل الـلي الشـارع عودهـا عليهـا..

استحملها الشويتين دول معلش بس .. أنا هاخد تعسيلة سريعة كدا واطلعلك.. وبالنسبة للقهوة عليا أنا يا سيدي لما أقوم هعملك غيرها.

لم يجد بلال ما يرد به.. فأطلق همهماتٍ غير مفهومةٍ قبل أن ينصرفَ خارجًا إلى السطح حاملاً معه الكثير من التأفف والحنق..

***

-٣-

السَّبَبُ الثَّالِثُ لِلسَّعَادَةِ

كُلُّ مَا طَابَ مِنَ الْوَجَعِ..

***

على السطح هناك..

في مساحةٍ ضيقةٍ.. ومن فوق فراشٍ صغيرٍ يجاوره كرسي خشبي وستارة داكنة لم يجد البتة دافعاً لإزاحتها عن نافذةٍ تقبع خلفها رغم شهورٍ عليه مرَّت في غرفته الجديدة..

صباحٌ آخر مُجدِّد لليأس الذي استوطنه..

مستسلمٌ حدَّ الثمالة لكلِّ ما تغير حوله من أشياء.. راقد يتأمل المروحة المعلقة تدورُ أذرعها الواحدة تلو الأخرى ببطءٍ وكأنما تجرُّ بدورانها اليوم تلو الآخر مع صوت أزيز احتكاكها المعدني الرتيب في سقف المكان الذي بدا أشبه بحظيرة ديوكٍ من فرط قلة تنظيمه..

تحت قيد حالة من الفقد البطيء يحيا منسيًّا بإرادته دون انتظارٍ لشيءٍ..

أمست زياراته لبيت زينب خجلى..

وأمست سلوى.. تلك التي سبقته في الحصول على وظيفةٍ بشركة اتصالات معروفةٍ امرأةً غاب تمامًا عن نطاق وجودها..

كان يُتابعها من فوق سطحه أحيانًا وقت عودتها في ساعة الغروب متواريًا خلف ستار حنقه والانهزامية المسيطرة عليه منهيًا برؤيتها يومًا سيتبعه بنفس الطريقة آخر..

لم يكـن مـا تـرك الوالـد كافٍ لمثَّـل حيـاة الضيـاع تلـك إلى الأبـد.. وعـلى هـذا فقـد اضطـر نبيـل بـلا دافـعٍ حقيقـي لخـوض طريـق البحـث عـن عمـلٍ..

ارتـضى عمـلاً بسـيطاً في بقالـةٍ صغـيرةٍ تكفـي فقـط لسـد احتياجاتـه اليوميـة ضاربًـا بعـرض الحوائـط كل طمـوح..

سـارت بـه الأيـام هونًـا عـلى وهـنٍ حقيقـي اسـتفاق منـه ذات صبـاحٍ إثـر صرخـةٍ عـبر هاتـفٍ أتـاه بصـوت زينـب..

في عصبيـةٍ تشـبث بالمحمـول فـوق أذنـه لا يسـتوعب مـن صرخاتهـا شـيئًا.. وبتوتـرٍ هتـف:

- زينب في إيه؟ إهدي شوية مش عارف أسمعك.

أجابته بحروفٍ يُمزقها الوجعُ وهنَّات البكاء:

- الحقني يا نبيل أنا بولد.

شـعورٌ بالجنـون أصابـه حينهـا.. وطاقـة مـن الخـوف اكتنفـت كل خليـةٍ مـن خلايـاه..

وجـد نفسـه يركـض خـارج المـكان كالملسـوع.. وكأنمـا اسـتيقظت فيـه كل أسـباب البقـاء.. اسـتقل أول سـيارة أجـرة صادفهـا وانطلـق بهـا يدفعـه الذعـر ويتعجلـه القلـق.

لم تكـن المسـافة الفاصلـة بينـه وبـين منزلهـا كبـيرة.. لكـن خوفـه ضاعـف لديـه الشـعور بطولهـا..

صعد السلم بقفزاتٍ واسعةٍ ليجدها وقد سقطت أرضًا فوق بقعةٍ من الدم خلف بابها الموارب تُصارع غيبوبةً كادت أن تفتك بها..

انحنى يحملها دون تفكيرٍ مستعينًا بالأدرينالين المتدفق في جسده هابطًا بها درجات السلم نحو سيارة الأجرة التي انتظرته ويستعد قائدها للتحرك..

تتحامل على الألم بالصراخ وكتم الأنفاس..

دماؤها تُغرق قميصه.. وعبارات التهدئة التي يفتقدها هو ذاته تنهال من بين شفتيْه عليها، بينما السيارة تنطلق بهما في طريقها نحو المشفى..

يتابع وجهها واضح الاصفرار.. ونزيف رحمها غير المتوقف يُغرق المقعد الخلفي الذي تمددت فوقه..

وقفت السيارة بهما أخيرًا أمام البوابة الكبيرة للمشفى فهبط هو منها راكضًا نحو سلم الطوارئ يصيح في انفعالٍ:

- الحقونا يا جماعة.. حالة ولادة مستعجلة.. الحقونا أختي هتضيع.

أتاه من الخلف صوت السائق المتوتر مضيفًا لانفعاله المزيد:

- بسرعة يا أستاذ.. المدام هدومها كلها دم.

توتر نبيل أكثر وعلا صوته مستنجدًا:

ـ ساعدونا يا إخوانا.. حد يلحقنا.

أسرع نحوه بعض العاملين في المكان بسريرٍ جرارٍ نقلوا جسد زينب فوقه ثم اندفعوا بها وهو وراءهم إلى الداخل يصاحبه ذعره اللامتناهي عليها.

الأفكار تختلطُ في رأسه متحطمةً فوق صخورٍ من الخوف..

زينب..

تماسكي بالله عليك..

تماسكي، فمازالت لشمسِ الغد تحيةٌ على وجهك لم تلقها..

حالة من الارتباك التام أصيب بها المكان..

والقلق العاصف بكيانه يتخبطه بين احتمال واحتمال..

الطبيب؟

أين الطبيب؟

الكل يبحث عنه بلا جدوى..

الوقت ينفد.. والنزف الساحب من نضرة وجهها يدق ناقوس الخطر.

يلجأ لعيـون الجميـع متوسـلاً أيَّ أمـلٍ .. بينـما مـال أحدهـم بقامتـه الطويلـة نحـو شـقيقته يحدثهـا بنـبرة مـزاحٍ لم تبـد متوافقًـة مـع الحـدث:

- إيـه كل الـدم دا ؟ خـلي شـوية للبيبـي كـدا هيطلـع دمـه خفيـف.

لم يفهـم نبيـل غـرض العبـارة أو قائلهـا الـذي كان يسـعى للفـت انتباههـا عـن الوجـع ببسـاطة .. مـع ابتسـامة فـوق ملامحـه استقبلت نظرتهـا لـه بوجـهٍ متعـرقٍ وعينـيْن تُجاهـدان للبقـاء مفتوحتـين بينـما يعلـو صدرهـا ويهبـط بمحـاولات التنفـس حتـى دفعـه في كتفـه آخـر بعصبيـةٍ وهـو يصيـح:

- مـش دا وقتـك خالـص يـا بـلال.. السـت دي كـدا مـش هتسـتحمل لحـد مـا ييجـي الدكتـور.. ضروري نوقـف النزيـف حـالاً.

التقطـت أذنـا نبيـل العبـارة فالتفـت إلى صاحبهـا ليجـده ذلـك الواقـف بـين الزحـام بقبعـةٍ سـوداء وعصـا قصـيرة يرمـق المشـهد المتوتـر..

لم يكـن شـكله مثـيراً للانتبـاه بقـدر تلـك النـبرة الصادقـة التـي نطـق بهـا عبارتـه.. مـع نظـرةٍ أطلـت مـن عينيْـه عـلى الموقـف شـعر معهـا نبيـل وكأنـه الوحيـد في المـكان الـذي يشـاركه عـلى شـقيقته الخـوف..

- مفيش وقت.

استكمل بها الرجل عبارته، ثم اندفع خلالهم ممسكًا بالسرير الجرار وهي فوقه صائحًا في من حوله من أفراد تمريض بلهجةٍ آمرةٍ:

- حضَّروا العدة والمطهرات ويللا بينا.. الدكتور مش هنا ولازم حد يتصرف.

- هتعمل إيه يا عم فتحي؟ الست عندها نزيف ولو حصلها حاجة هتبقى مسؤلية كبيرة علينا قدام الإدارة.

هتف بالعبارة أحد المحيطين موجهًا كلامه للرجل فأتاه منه الرد مباشرة ودون تفكيرٍ:

- ولو وقفنا وسبناها قدامنا تموت هتبقى مسؤليتنا قدام ربنا أكبر.

اخترق صدق كلماته كيان نبيل فتشبث بذراعه كالطفل متوسلاً:

- اعمل حاجة أرجوك.. اعمل أي حاجة.

دفع فتحي السرير أمامه متمتمًا:

- استعن بالله يا أستاذ وقول يا رب.

ثم هتف ومقلتاه تدوران بحثًا في من حوله:

- حد يشوفلنا الحاجة وداد.. بسرعة.

كان يتحـرك دافعًـا السريـر أمامـه عـلى عجـلٍ إلى جنـب ذلـك الطويـل نحـو غرفـة في آخـر الممـر لا يعيقـه عـن وصولهـا غـير يـد نبيـل المتشـبثة بـه في قـوةٍ.. وفـوق السريـر أمامهـم امـرأة تنـازع مـن فـرط الألم كل دقيقـة لديهـا قـد تعنـي الكثـير..

لم يشعر نبيل يومًا بمثل هذا الخوف..

انصبَّ جـام ارتياعـه فـوق جسـدها المتعـرق وجعًا وأنفاسـها المتلاحقة..

يراقـب الرجـل ومـن معـه ممـن دفعهـم الفضـول ورغبـة مـد يـد العـون مـن حولـه يعملـون بسرعـةٍ وتركيـزٍ..

تتنـاوب عـلى رأسـه كل الصـور المعتمـة ولسـان حالـه يُـردد الكلمـة في رجـاء ودون توقـف..

تماسكي يا زينب..

تماسكي..

***

"كبايـة عصـير كـمان هنـا يـا ابنـي لأجـدع بولوكامـين في البلـد كلهـا" ..

هـمَّ الفتـى سـاقي العصائـر بتنفيـذ أمـر حمـدي عامـل الشـاي بالقسـم الـذي هتـف بالعبـارة وهـو يلـوح لبيومـي الذي

استوقفه النداء فالتفت إلى صاحبه الذي رسم فوق وجهه ابتسامةً واسعةً وهو يُكمل:

- صباح الفل يا عم بيومي.

أطل تفاجؤ بيومي من وجوده واضحًا وهو يتطلع إليه من وسط الطريق متحركًا يعبر الرصيف المقابل نحوه بخطواتٍ ثقيلةٍ متباطئةٍ قبل أن يُغمغم:

- إزيك يا حمدي؟ بتعمل إيه هنا؟

رفع حمدي حاجبيْه في تعجب صائحًا:

- بعمل إيه؟ في محل عصير هكون بعمل إيه يعني؟ إنت هتعمل علينا شغل التحريات بتاعك واللا إيه يا سيادة الأمين؟

لم يبدُ بيومي رائقًا لمزاح الأخير..

كان سارحًا يشغله أمرٌ ما.. مدَّ يده يُصافحه مشيرًا بيده للفتى الواقف وهو يقول:

- متصبش يا ابني أنا مش هشرب حاجة.

شد حمدي على كفه في إصرار، هاتفًا:

- لا إيه اللي مش هتشرب؟.. وحياة أمي لنضرب كبايتين قصب مع بعض.. صبلنا اتنين يا ابني اسمع الكلام وسيبك منه.

تحيَّر الفتى ما بين تنفيذ الأمر من عدمه.. بينما غمغم بيومي محاولاً التملص من إلحاح الأخير:

- يا حمدي اسمعني خليها بعدين.. سيبني دلوقتي عشان دماغي مش رايقة.

تحدث بلكنةٍ حادةٍ بعض الشيء أدرك منها الرجل جدية رغبته، فاستجاب لها مغمغمًا:

- خلاص زي ما تحب.. أنا قلت بس تشرب معايا حاجة على حساب الباشا.. أصل يا سيدي مزاجه النهاردة في البرتقال فاجيت أجيبهوله من هنا.

منحه ميلاً فاترًا على طرف شفتيه كابتسامةٍ وهو يسأل:

- هو وصل القسم إمتى؟

أجاب:

- اتأخر شوية النهاردة.. لسه واصل من تلت ساعة.

ثم أشار للفتى بصب كوب واحد له ما أن أتاه حتى تجرع ما به كاملاً في ضربةٍ واحدةٍ قبل أن يتجشأ وهو يُعيده إليه ماسحًا بكُمِّ قميصه شفتيْه، مكملاً:

- مقولتليش صحيح.. إنت بقى إيه اللي جابك هنا؟

لم يُجبه بيومي.. ظل محملقًا في وجهه للحظاتٍ سارحًا.. قبل أن يسأله باهتمامٍ مباغتٍ:

- حمدي إنت مبسوط بجد؟

تعجب حمدي من سؤاله المفاجئ، في حين استطرد بيومي موضحًا:

- بتنزل شغلك مرتاح كل يوم يعني؟ حاسس إن هيا دي حقيقتك؟ وإن هوا دا مكانك؟

لم يحر حمدي جوابًا لسؤاله العجيب.. قليلون هم من يملكون رفاهية البحث في هذا الشأن..

مبسوط؟ مرتاح؟ ما الذي يعنيه حقًّا بأسئلةٍ كتلك؟

نظر إليه وقال:

- مش واصلني القصد بالضبط.. تقصد عشان مبتشوفنيش في المكان غير بالابتسامة واللسان الحلو بتاع تحت أمرك يا ريس وتمام يا باشا؟

هزَّ بيومي رأسه أنْ ربما.. فصمت حمدي لحظة دار خلالها بعينيْه في وجوه المارة هنا وهناك من حوله وهو يلتقط نفسًا عميقًا أكمل به:

- روح وقف حدّ تحري من الناس اللي قدامك دي دلوقتي وقوله بطاقتك.. واسأله ساعتها هيبتسم في وشك ليه؟

تعلقت عينا بيومي بوجهه متفحصًا عمق الإجابة.. قبل أن يُكمل الأخير بابتسامةٍ خبيثةٍ:

- بس خلي بالك أنا مقصدش حاجة.. أنا بحب شغلي يا عم ومبسوط فيه الحمد لله.

بادله بيومي الابتسام على الإجابة المتوارية.. ثم سرح ببصره نحو اللاشيء..

- إنت بقى برضو مقلتليش هنا بتعمل إيه؟

تسلل السؤال بصوت حمدي عبر تأملات وخواطر كان على وشك الخوض فيها، فأشار برأسه ناحية المدرسة المقابلة لمحل العصير قائلاً:

- مستني حد.

جزء من الزمن مرَّ عليه قبل أن يستوعب الإجابة، وهو ينظر إلى حيث أشار.. قبل أن يفهم في اللحظة التي أتاه فيها أحدهم بعصير البرتقال الذي طلبه وهو يقول:

- البرتقال يا باشا.. أي أوامر تاني؟

هزَّ رأسه نافيًا.. وهو يُخرج بعض أوراق نقدية من جيبه دسَّها في كفِّ الرجل مازحًا:

- أهم حاجة يعجب الباشا وإلا هنجيبلكوا ضرفها.

ثم صافح بيومي مرةً أخرى وهو يُتابع:

- عامة ربنا معاك.. هطير أنا بقى عشان متهزأقش النهاردة.

صافحه بيومي بدوره.. ثم أخذ يتابعه ببصره وهو يبتعد عن المكان..

ظل واقفًا بجسده الضخم يسد وبلا هدف جزءًا من مدخل المحل الصغير.. وبرغم ذلك لم يجرؤ أحدٌ من الموجودين على لفت انتباهه..

إنه الخوف، كما أخبره منذ قليلٍ حمدي..

الخوف الذي يُجبرهم في بعض الأحيان على الصمت.. أو الابتسام..

للبذلة البيضاء قدسيتها لا شك أو اعتراض..

الشمس تلقي أشعتها الحارة على كل شيء ..

على السيارات المتزاحمة.. الأسفلت.. وفوق مظلات المحلات التي عكست تحتها ظلالًا على الرصيف صنعت إغراء للفارين من قيظ السماء فساروا يستظلون بها..

هي ساعة الظهيرة المرتبكة في الصيف..

ازدحامٌ وتداخلٌ..

كل الأصوات لديـه تشـابهت واختلطـت.. إلا صـوت الجـرس الحـاد الطويـل الـذي ارتفـع متفـردًا خاصًّـا في أذنـه قادمًـا مـن خلـف سـور المدرسـة المقابلـة تمامًـا لـه..

انطلـق رنينــه فتلاشــت في رأســه حينهــا كل التأمــلات.. وتبــددت كل ملاحظاتــه دفعــةً واحــدةً..

إنــه جـرس الانـصراف المتبـوع بصـوت هتافـات وصيحـات الفرحـة مـن تلاميـذ انفرجـت ضلفتـا البـاب الحديـدي الكبـير أمامهـم آذنـةً بالرحيـل..

وكفيـض مـاءٍ يسـيل مـن بـين جبلـين.. تسـارعت مجاميـع الطلبـة في الخـروج عـبره..

أحدهــم يركـض مــن زميــلٍ لطمــه عــلى مؤخـرة رأســه.. وآخـر متشـبثٌ بيـد أختـه الأصغـر ينتظـر معهـا لحظـةً مناسـبةً لعبـور الشـارع..

هؤلاء يتجهون إلى الكشك.. وهؤلاء يتحدثون..

وهـو يتابـع كل هـذا بعـينٍ مـن قلـقٍ.. وقلـبٍ عزفـت دقاتـه لحـن الترقـب..

يبحث بين الوجوه عن واحدٍ مألوفٍ يتوق إليه حتى لمحه..

كان هناك يقف..

يرتــدي قميصــه المــدرسي الأبيــض فــوق بنطــالٍ رمــادي.. وعــلى ظهــره حقيبــة يحملهــا..

بوجــهٍ حمــل مــع براءتــه الحــزن.. وأعوامًــا لم تتجــاوز التســعة..

كانــت الحقيبــة مكتنــزةً وقــف مســتندًا بهــا عــلى الســور وراءه الــذي امتــلأ ببعــض رســوماتٍ وعبــاراتٍ تصــف جــمال ونظافــة وتطــور المدرســة..

بخطواتٍ متلهفةٍ مترقبةٍ عبر الشارع في بطءٍ نحوه..

يتابــع عينيْــه الصغيرتــيْن اللتــيْن أخذتــا تــدوران فيــما حولهــما بعشــوائيةٍ حتــى وقعتــا عليــه..

رآه الصغــيرُ فتبدلــت ملامحــه إلى الخــوف وهــو يتراجــع ووراؤه الحائــط كأنمــا يســعى للغــوص فيــه..

إنها ذات النظرة التي لن ينساها..

تلــك التــي غــيَّرت فيــه الكثــير ولم يســعه تحملهــا.. هــزَّت قلبــه قبــل خطواتــه وهــو يشــير إلى الخائــف أن اهــدأ موســعًا مــا بــين قدميْــه في خطــوات اقترابــه أكــثر..

لم تنجــح إشــارته في محــو النظــرة المذعــورة مــن عــين الصبــي الــذي تلفــت فيــما يُحيــط بــه بحثًــا عــن مــلاذٍ قبــل أن يــشرع في الركــض..

الرصيفُ المزدحمُ بالبشر من حوله يعوق حركته بعض الشيء وهو يُحاول العبور مبتعدًا وسط أكوام اللحم ومن خلفه بخطوات زادها سرعةً يُحاول بيومي اللحاق به..

- استنى يا محمد.

ناداه، فلم يُنصت له الصغير وهو مستمرٌّ في الابتعاد.. والخوف المتملك منه يعبر به الشارع فجأةً غير آبهٍ بصرير الإطارات المتوقفة أمامه وسباب قائديها الذين باغتهم عبوره ومن خلفه بيومي يرد على انفعالهم بالحدة:

- بس يا عم إنت وهو محدش يزعقله.

أخرج أحدهم رأسه من نافذة سيارته صائحًا في غضبٍ:

- عيال ولاد كلب أهاليهم فالتينهم ولما يتخبطوا يحسبوهم علينا بني آدمين..

أشعلت الكلمة فتيلًا قابلًا للاشتعال في رأس بيومي، فالتفت إلى صاحب العبارة ضاربًا سطح سيارته بكفه في غضبٍ هادرٍ وهو يصيح:

- بني آدمين غصب عنك يا حيوان.

ترجَّل الرجل من سيارته بعد السبة ذودًا عن كرامته في استعدادٍ للعراك غير آبهٍ بالبذلة الميري التي يرتديها الأخير.. بينما توقف الصغير على الناحية الأخرى خوفًا من المبالغة في الابتعاد عن حدود المدرسة التي لا يعرف دونها حدودًا..

كان صـوت الرجـل هـو البدايـة وهـو يصيـح ممسـكًا بـذراع بيومـي الـذي حـاول الاسـتمرار في لحاقـه بالصغـير:

- مين الحيوان يا باشا إنت؟.. بتكلم مين بالضبط؟

انجـذب الأخـير مـع مسـكة الرجـل.. فاسـتدار نحـوه يدفعـه بيــده الحــرة في صــدره بقــوة ردتــه ليرتطــم بالســيارة مفلتًــا الـذراع قبـل أن يرتـد مـرة أخـرى مـع يـد بيومـي التي اسـتقبلت ياقـة قميصـه تجذبهـا في عنـفٍ مـع تحذيـرٍ بصـوتٍ حـاد:

- بكلمك إنت.. وامشي من قدامي بدل ما أشتمك تاني.

كان الرجـل يُضاعـف بيومـي حجـمًا.. لكـن غضـب الأخـير وبذلتــه جعــلاه يبــدو أقــوى في عــين أولاء الذيــن اصطفــوا في الشـارع حولهـم وعـلى جانبـي الطريـق المعطـل بفعـل فضولهـم وترقبهـم للحـدث..

الفتــى الصغــير مــن خلــف زحامهــم يقبــع.. غلــب الذعــر عينيْــه فانهــار في صراخٍ بــاكٍ أشــعل توتــر بيومــي أكــثر وهــو يدفـع الرجـل نحـو سـيارته مـرة أخـرى ملتفتًـا إلى حيـث مصـدر البـكاء:

- اتكل على الله بقولك.

اندفـع بعـض المحيطـين عـلى اختـلاف دوافعهـم يحاولـون الاسـتفهام عـن الأمـر:

- فيه إيه بس يا باشا حصل خير إن شاء الله.. وحدوا الله يا جماعة.

بينما الرجل يُحاول استبقاء ما تبقى من كرامته، وهو يصرخ:

- إنت بتضربني؟ إيه البلد دي؟ بتتشطر عليا ببدلتك الميري؟

اختلطت صرخاته وتلويحات ذراعه مع عبارات التهدئة ودفعات الأجساد المتدخلة له نحو السيارة، بينما بيومي لا يهتم بشيء مما حوله وهو يُحاول إزاحه الأجساد بحثًا عن هدفه الذي ذاب وسطهم محاولاً الاستدلال عنه بصوت بكائه غير المتوقف مرددًا في همسٍ داخلي:

- رحت فين يا محمد؟ رحت فين؟

كان يتمتم بها همساً وعيناه تدوران داخل محجريْهما بحثًا حتى رآه..

ورآها معه..

امرأة ثلاثينية محجبة تعلق بها الفتى وهدأت دموعه بين أحضانها.. رمته بنظرةٍ ناريةٍ يملؤها اللوم قبل أن تستدير بطفلها مبتعدةً..

لا شيء مما حوله يعنيه سواهما..

لوهلةٍ بات ما يُحيط به كصورةٍ بطيئةٍ من فيلمٍ مُسجلٍ..

لا ينبغي لهما الرحيل..

همَّ لمناداتهما أنْ انتظرا.. لكنه لم يفعل..

شيء ما داخلي منعه..

هي زوجته المتألمة أسما.. وهو ابنه الوحيد محمد.

يبتعدان تاركيْن له الخزي الذي أسكته..

يناديهما بصوتٍ مكتومٍ مختنقٍ..

تمهَّلا..

انتظرا فما زالت لديَّ أقوالٌ أخرى..

نداءاتٌ على استحياء لم تُفارق ما بين شفتيْه..

وآمالٌ فائرةٌ بداخله لم تساورهما لأجلها لحظة بقاء..

***

تحركت السيارةُ حمراء اللون تعبر البوابة الحديدية المفتوحة للمشفى العام من أمام ذاك الذي رفع يده بتحية لم تلحظها قائدتها هاتفًا:

- حمدلله عالسلامة يا دكتورة.

استمرت في طريقها متجهةً نحو الموقف المخصص لسيارات المكان.. أوقفتها فيه ثم ترجلت منها بملامح متوترةٍ.. وخطوات سريعة انطلقت بها نحو الجانب الخلفي من المكان حيث ثلاجة حفظ وتغسيل الموتى..

لاحظ سائس المكان توترها فتابعها ببصره قبل أن يعرج بقدم أقصر من الأخرى يُحاول اللحاق بها مناديًا:

- صباح الخير يا دكتورة.

لم تلحظه هو الآخر مكملةً طريقها.. فاستمر يُلاحقها بدافع الفضول وعشق دسِّ الأنف في أي شيء.

وصلت إلى وجهتها في نهاية الطريق أمامه فدفعت الباب المعدني الكبير لينفتحَ باعثًا في وجهها بعض هواء المكان البارد..

دارت ببصرها فيه وقد خلا إلا من عامل نظافة توقف عن رشِّ مياهٍ كان يُغرق بها عبر خرطوم بلاستيكي أرضية المكان والتفت ينظر إليها بدوره متسائلاً:

- دكتورة هناء؟ حمدلله عالسلامة.. حضرتك قطعتي الأجازة والا إيه؟

تطلعت إليه في شرودٍ للحظة قبل أن تندفع معاودة أدراجها إلى الخارج مرةً أخرى دون ردٍّ لتجد في مواجهتها ذلك الفضولي الذي ارتطمت بها عيناه، وهو يسأل:

ـ بتدوري على حاجة معينة يا دكتورة؟

أجابته هذه المرة وهي ترمقه بنظرةٍ تائهةٍ:

ـ لا، مفيش يا عم سيد.. متشغلش بالك.

قالتها وتوترها يفضح كذبًا في كل الحروف.. عيناها الباحثتان في ما يُحيط بدت تؤكده.

ابتعدت بعد عبارتها متجهةً نحو بوابة الأمن التي نهض رجلها من داخل كابينته الخاصة وهو يُرحب بها ثانيةً في احترام قائلاً:

ـ صبحت عليكي يا دكتورة وإنتي داخلة، بس إنتي مخدتيش بالك.. والله المستشفى بتنور بوجودك.

حرَّكت رأسها للمجاملة مع ابتسامةٍ سريعةٍ رسمتها وهي تقول:

ـ ربنا يخليك، دا من ذوقك.

تردد الرجل لجزءٍ من الثانية قبل أن يقول:

ـ المدام صحيح كانت عايزة تسأل حضرتك بخصوص حبوب كدا ظهرت في جسمها بعد الولـ...

ـ بعدين يا سليمان، أنا مش مركزة دلوقتي.. بعدين.

قاطعته بعبارتها السريعة قبل أن تسأله وهي تمسح بعينيها المكان:

- هيا دفاتر الإمضا بتاعت حضور وانصراف عمال المستشفى مش بتبقى عندك هنا؟

أجابها ببلى، وهو يمد يده نحو أحد أدراج مكتبه مخرجًا لها دفترًا كبيرًا وضعه أمامها وهي تستطرد:

- خليني أبص على شيفتات امبارح والنهاردة.. محتاجة أتأكد من حاجة ضروري.

غمغم الرجل وهو يفتح الدفتر على ما طلبت، مشيرًا إليها بأصبعه نحوه:

- إنتي تؤمري يا دكتورة طبعًا.. منقدرش نتأخر وحضرتك عارفة.

هزت له رأسها في عصبيةٍ وهي تلتقط منه الدفتر عابرةً بأصابعها على الأسماء قبل أن تتوقف عند أحدها..

كانت تكتم قلقًا عاصفًا بكيانها لم تُفصح عنه لأحدٍ بدا أن شيئًا ما على الورق أمامها أكده..

أغلقت الدفتر مرةً أخرى وهي تزفر زفرةً حارةً حاولت بها إفراغ القليل من التوتر..

شكرته على المساعدة بكلماتٍ مقتضبة ثم عادت أدراجها إلى حيث تركت سيارتها التي انتظر جوارها ذلك الفضول الأعرج مدعيًا الانشغال بمسحها..

تطلع نحوها مبتسمًا تقرأ على وجهه الفضول العاصف وهو يتمتم:

- متأكدة إنك مبتدوريش على حاجة يا دكتورة؟

نظرت إليه حانقةً.. قبل أن تتخذ ببعض التفكير قرارها وهي تسأله بشكلٍ مباشرٍ:

- أنا عايزة فتحي.. أوصله إزاي؟

ارتبك المغزى في عقله، فتراجع لحظة عاقدًا حاجبيْه بغير استيعابٍ، بينما استدركت هي موضحةً:

- شابلن يا عم سيد.. شابلن عامل التلاجة..

ألاقيه فين؟

***

والآن بالبسمة يتجدد لقاؤكم الأسبوعي أعزائي مستمعي الإذاعة العامة مع الفنان الكوميدي بلال مرزوق وبرنامج

((ضحكة ونص)).."

تمنياتنا بقضاء سهرة ضاحكة..

***

الثانية عشرة ظهرًا.. بتوقيت القاهرة..

شعاع الشمس يفترشُ أسطح البنايات القديمة أمامها..

صـوتُ هديـل ثـلاث حمامـاتٍ رفرفـت بجناحيْهـا إحداهـن محلقـةً تبتعـد عـن ذلـك القفـص الخشـبي القريـب الـذي حـطَّ عليـه رفاقهـا في لحظـةٍ تماشـت وصـوت التنهيـدات الصـادرة عـبر مكـبرات الصـوت التـي احتلـت مئذنـةً قريبـةً اسـتعدادًا لرفـع أذان الظهـر..

أدفء الشـمس هـذا الـذي يكتفهـا، أم أنـه دفء شـعورها بالأمـان؟

لطالمـا افتقـدت هـذا الشـعور وهـي التـي ألقتهـا الأيـام بـين أنيـاب شـوارع لا ترحـم..

أعياهـا الفقـر وجرَّدهـا مـن أسـمال مبـادئ تكسـوها فباتـت متعريـةً تسـكُن أحضـان رجـال لا تسـكَن أبـدًا شـهواتهم..

تائهـة تتخبطهـا السـبل.. ضائعـة بـين قـدَر واختيـار حتـى التقتـه..

هذا الذي يكبرها بعشرات الأعوام..

هـذا الـذي احتواهـا دون ذراعـين.. لتـدرك معـه وحـده معنـى احتضـان القلـب..

محمود..

محمود باشا، كما اعتادت أن تُناديه..

رأته مرتادًا في بادئ الأمر لعالم المتعة..

كان يجلس على مائدته الخاصة داخل الملهى الليلي الذي تعمل به وحيدًا يتجرع كؤوسًا من الخمر..

أدركت منذ اللحظة الأولى التي اقتربت فيها منه متمايلةً بجسدها المثير لتجاوره الجلوس، إنه رجل يختلف..

ليس ككل المحيطين السكارى العابثين حولها..

كان الوحيد من دونهم جميعًا يُسكره البؤس..

جاء به الحزن عبثًا يبحث عن خلاص هو ذاته الذي أتى بها الفقر يأسًا تبحث عنه..

المشهد في ذاكرتها محفورٌ.. يتسلل عبره مشوشاً ذلك الصوت المنبعث من مصدر قريب ..

"إيه اللي إنت بتسمعه ده؟"

ألقت السؤال وقد انتزعها الصوت من خواطرها وهي لاتزال جالسة فوق الأريكة على سطح البناية .. تُحيط فنجان القهوة الفارغ بكفيها محدثة بلال الذي جاورها مرتدياً جلباباً بدا قصيراً بعض الشيء فوق هيكله الطويل ..واضعاً جهاز تسجيل صغير الى جواره انهمك في الانصات الى ما يصدر منه ..

فصـل انهماكـه سـؤالها فالتفـت نحوهـا يرمقهـا بنظـرةٍ خاويـةٍ.. قبـل أن يضغـط زر إيقـاف التشـغيل في جهـازه متمتـمًا:

- عايزة إيه؟

كررت سؤالها:

- بسألك بتسمع إيه؟

أمال طرف شفتيه في استخفافٍ بالسؤال، ثم قال:

- **إنتي شايفه إيه؟**

لوَّحـت بكفهـا غـير راضيـةٍ عـن إجابـة سـؤالها باسـتفهامٍ آخـر، وقالـت:

- ولا شـايفة حاجـة.. تسـجيل قديـم لواحـد عـمَّال يقـول في نكـت بايخـة وكلام بايـخ مضحكتـش عـلى ولا حاجـة منهـا.

بـدا شيء مـن الغيـظ في قسَـماته وهـو يـردُّ ضاغطًـا عـلى الحـروف:

- لا واللـه؟ طيـب خليـكي في حالـك بقـى.. وكويـس إنهـا مضحكتكيــش..

ثم تابع بلهجةٍ واضحة الحدة:

- وبعدين إنتي مالك أصلاً أنا بسمع إيه؟

ابتسـمت منتبهـةً لغيظـه، ثـم التفتـت بنظرهـا إلى بعيـدٍ بـلا اهتــمامٍ قائلةً:

- مليـش دعـوة صحيـح.. خـد راحتـك ومتشـيلش في نفسـك إنـت بـس.

زاد برودهـا في الـرد مـن اغتياظـه فخرجـت كلماتـه بشـكلٍ أكـبر حـدة وهـو يقـول:

- وأشـيل في نفـسي أنـا ليـه ولـلا أحـط كلامـك في بـالي ليـه أصـلًا؟.. إنتـي يـدوب ضيفـة جايـة تقعـد شـوية لحـد مـا محمـود يصحـى وهتتـكل عـلى اللـه.

ارتفع صوت ضحكتها دون أن تنظر نحوه، ثم قالت:

- عـلى رأيـك صحيـح يـا عـم بلبـل.. أنـا ضيفـة هنـا شـوية وهتمــشي.

صمت لحظةً مفكرًا قبل أن يسألها في حنقٍ:

- وإيه بلبل دي كمان؟ جبتيها منين؟

أجابته هي بكل بساطةٍ:

- هجيبهـا منـين يعنــي؟ محمـود باشـا نـداك بيهـا وهـو بيوصيـك عليـا لحـد مـا يقـوم.. سـلامة الدمـاغ.

ثم تابعت مبتسمةً في خبثٍ:

- شفت بقى إزاي الحاجات البايخة اللي بتسمعها دي مأثرة عليك وعلى تركيزك؟

كانت تتوقع منه ثورة احتداد أخرى إثر عبارتها المستفزة.. لكنه خالف توقعاتها بوهلة أمضاها في الصمت وقد أطرق رأسه قبل أن يعتدل متطلعًا نحوها في تأثرٍ، وهو يغمغم:

- معاكي حق.

قرأت في عبارته مسحةً من الحزن استلت أطراف تعاطفها وهي تعاود النظر لما حولها متمتمةً:

- طب على فكرة أنا بهزر.

تنهد مزيحًا الكاسيت عن يده إلى جنب قبل أن يكمل مفرغًا ما فيه:

- عارفة يا....

كان يبحث عن اسمها الذي تاه في عقله فناولته إياه بسرعة المهتم للإنصات، قائلةً:

- شادية.. اسمي شادية.

أفصح لها وجهه عن نصف ابتسامةٍ، وهو يقول:

- على اسم شادية الممثلة يعني.. مع إنك مفكيش منها ببصلة.

ارتفع حاجباها في دهشةٍ، وهي تهتف:

ـ لا والله؟ محسسني يعني إنك كنت معاشرها.

أومأ برأسه متمتمًا بغير اكتراثٍ:

ـ عملـت مشـهد صامـت في فيلـم مـن أفلامهـا قبـل كـدا.. ومـرة بعتتـلي حـد يقولـلي إنهـا معجبـة بالبرنامـج الـلي بقدمـه ومتابعـاه.

تراجعت متعجبةً تسأله وهي تدقق النظر في ملامحه:

ـ عشـان كـدا مـن الأول حسـيت إني بشـبهه عليـك.. إنـت كنـت بتقـدم برنامـج إيـه؟

أشـار إليهـا برأسـه نحـو جهـاز الكاسـيت الصامـت، موضحًـا في هـدوءٍ:

ـ البرنامـج الـلي كنـت بسـمعه دا.. أنـا البايـخ الـلي بيقـول النكـت البايخـة.

احمـرَّت وجنتاهـا خجـلًا وهـي تنظـر إليـه محاولـةً البحـث عـن ردٍّ مـا بغير جـدوى، بينـما بـلال يكمـل بنفـس الهـدوء:

- الكلام ده كان زمان.. تقريبًا أوائل التمانينات..

كنـت اتعرفـت شـوية بعـد كام دور قصـير عملتـه في كـذا فيلـم..

الواحـد سـاعتها كان لسـه صغـير والحيـاة فاتحالـه أوسـع أبوابهـا..

شـاب موهـوب ليـه ربـع سـاعة مونولـوج كاملـة يقدمهـا عـلى الراديـو بصوتـه كل أسـبوع..

متخيلـة إن العجـوز الـلي قاعـد جنبـك بجلابيـة بيتـي دلوقتـي دا كان لمـا بينـزل الشـارع بيوقفـه جمهـور ونـاس عايزينـه يمضيلهـم أوتوجرافـات؟

توقـف عـن متابعـة حديثـه متبينًـا عـدم جـدواه قبـل أن يسـتطرد فاقـدًا الرغبـة في الاسـتمرار:

- بـس خـلاص.. أيـام وراحـت لحالهـا.. مجـرد مـاضي غبـي مكنتـش عامـل حسـابي إن هييجـي عليـه يـوم ويتغـير..

قالها ثم تطلع نحوها يسألها في اهتمامٍ صادقٍ:

ـ تفتكـري سـبب وجـود المـاضي دا زمـان كان بـس عشـان النهـاردة أتحـسر عليـه؟

نظرت إليه مشفقة.. لا ردَّ في جعبتها تقوله..

يتلاعـب الإحـراج بلعثمـةٍ خرجـت مـن بـين شـفتيها بطيئـةً متقطعـةً:

ـ بص.. هيا الدنيا يمكن مبتتحسبش كدا يا عم....؟

تأملها بعينٍ تتفهم ارتباكها محاولاً رسم الابتسامة على ملامحه وهو يتمتم:

- بلبل.. اسمي عم بلبل.. شفتي بقى إن تسجيلاتي مش هيا الحاجة الوحيدة اللي بتنسي؟ سلامة الدماغ.

التقطت سخريته كطوق نجاةٍ تعلقت به مغمغمةً:

- ومين قال إن النسيان في كل حالاته مرض؟.. دا في ناس بتاخده علاج.

همَّ بالرد عليها قبل أن يلتفت كلاهما في حركةٍ سريعةٍ إثر صوت ارتطام بالأرض أتى من مصدرٍ ما خلف الباب الخشبي المغلق أمامهما على أثره صاحت بصوتٍ مرتفعٍ:

- محمود باشا؟

تكرر ذات الصوت مرةً أخرى خلال صيحتها فكررت النداء بصوتٍ أعلى، وهي تنهض من فوق الأريكة متجهةً نحو الباب:

- محمود باشا إنت كويس؟

استوقفتها يد بلال التي تشبثت بمعصمها، وهو يقول:

- اطمني.. مفيش حاجة.. دا مش محمود أصلاً.

التفتت نحوه بغير فهمٍ، فاستطرد:

- دي تمارين بيلي بتاعة كل يوم الصبح.

- بيلي؟

رددت الاسم باستغراب وعلى وجهها التساؤل فأومأ برأسه لها أن نعم دون توضيحٍ وهو يتأملها للحظةٍ طالت قبل أن يخفف من قوة تشبثه بذراعها في بطءٍ..

شيء ما في ارتياعها على محمود لفت انتباهه..

شيء ما وجد نفسه يُفصح عنه على هيئة سؤالٍ خرج عبر شفتيه:

- هو إيه يا شادية اللي يخلي واحدة في العشرينات زيك تتخض على واحد معدي الستين زي محمود؟

استوقفها سؤاله.. ربما لحنق من فضوله أو تعجب له لا يدري أيهما أدق، لكنه استطرد:

- أنا آسف إني سألت السؤال دا بس أصلي استغربت إنـ..

قاطعته مجيبةً في ثقةٍ وصوت الارتطام القادم من وراء الباب الخشبي يتكرر للمرة الثالثة:

- إنه يكون السبب في حريتها.

رفع أحد حاجبيه متطلعًا نحوها في محاولةٍ لاستشفاف المغزى وهي تتابع موضحةً..:

- اللي يخلي واحدة في العشرينات زيي تتخض على واحد معدي الستين زي محمود إنه يكون سبب في حريتها.

صمتت تلتقط شهيقًا من الهواء المحيط، ثم أكملت بنبرةٍ حملت الكثير من الامتنان:

- محمود باشا يا عم بلبل هو البني آدم الوحيد اللي بجد ومن أول لحظة عرفته فيها..

حررني..

***

ذات السيدة العجوز.. يراها عبر ذات العدم القابع هو فيه..

تدلفُ مع هالة الضي المحيطة بالشمعة المتوهجة في يدها إلى الداخل.. الضوء المتراقص منها يعكس من ظلال الأشياء حولها على الحوائط الصماء أشكالاً وخيالاتٍ موحيةً.. لكنها لا تهتم..

برغم نشأتها في بيئةِ تخصيبٍ للخرافات.. ألا أنها كانت تدرك أن أي عفريتٍ بكل تأكيد.. لن يكون بالتفاهة أوالفراغ اللازم للعبث مع عجوزٍ مثلها تتخطى السبعين..

انتقلت بالأكياس في يدها إلى المطبخ.. وضعتها فوق الرخامة الخضراء داخله.. ثم وقفت تُفكر..

هذه الأطعمة لن تنتظر طويلاً بلا تبريد.. ثم إن بعضًا منها يجب تحضيره للغد..

عليها إعداد العشاء لفتحي القادم من عمله بعد ساعات..

ولذلك فلربما عليها أيضاً إغفال تعبها لبعض الوقت..

فتحت الأكياس.. والتقطت السكين.. وعلى ضوء الشمعة المهتز ظلت في المكان ما يربو على الساعة تعمل بخبرة صقلتها السنين..

تُغافلها بين البرهة والأخرى غفوةٌ مختلسةٌ تستفيق منها لتستمر فيما بدأت حتى انتهت منه..

العَرق يتصبب من جبينها.. وعباءتها التي استخدمتها كمنشفةٍ له أثناء العمل تلقي بها فوق كومة ملابس على جنب قبعت تنتظر دورها في الغسيل..

خرجت من مطبخها أخيرًا متجهةً نحو إحدى الغرف التي طلعت بعد قليلٍ منها تحمل بطانيةً غطت بها الصبي النائم على الأريكة في الصالة ثم ألقت بجسدها المنهك على الجزء المتبقي فوقها خاليًا بجانبه..

عليها تذكير نفسها بقطع اللحم الموضوعة فوق نار الموقد الهادئة لم يبق على نضوجها سوى ربع ساعة..

الجبن مُعد في طبقه للعشاء.. والطماطم لم تقطعها إلى جواره بعد..

دورق المياه نصف البارد كما يُحبه فتحي يجب أن تُخرجه من الثلاجة بعد قليل..

نفثت في الشمعة تطفئها.. ستحتاج إليها بعد برهةٍ من الراحة لأنفاسها..

لا لن تنام..

تُحدث عينيْها الناعستين بذلك، وتتثاءب..

لن.. ت.. ن.. ا.. م..

تُظلم الدنيا رويدًا رويدًا من حول نقطة اللاوجود الواقف هو في منتصفها يُراقب المشهد..

الآن استسلمت للنوم..

الآن هو وحده بلا كيانٍ يقف وسط ظلام بدون نهاية..

يسود من حوله سوادٌ دامسٌ لا حدود له..

وحيدًا كان.. يتسلل برويةٍ من مكانٍ ما عبر أنفاسه ذلك الهواء البارد الذي بدا له مألوفًا..

البرودة المتزايدة من حوله تؤكد له الظن برغم الظلام المحيط..

إنها المشرحة.. ثلاجة الموتى.. مكانه المعتاد..

مـدَّ يديـه عـلى امتدادهـما جانبـه يمـشي ملامسًـا أدراج الحفـظ الحاويـة لجثـثٍ هامـدةٍ دام مـا استشـعر شـيئًا مـن الألفـة بينهـا..

لطالما ارتأى في عيون الموتى وفاءً لا أثر للخيانة فيه..

هـم آخـر القادريـن عـلى رد الأذى.. يكفيهـم انتقـامٌ وقـت رحيلهـم رغـم صمتـه بليـغ..

كان يسـير عـلى غـير هـدى وسـط العتمـة الكاملـة يمينًـا ويسـارًا أينـما رحـل لا يُفـارق يديْـه ملمـسُ الأدراج البـاردة..

يزداد صقيعها من حوله كلما تعمق..

بدت وكأنها دوامة تبتلعه ويدور هو في فلكها..

متتاليـة مـن حولـه لا تنتهـي.. ويـداه تعـبر فوقهـا منزلقـةً في سلاسـةٍ حتـى علقتـا بغتـةً فـوق درجـين متقابلـين..

يـداه اللتـان تعلقتـا عنـوةً فـوق مقبضيهـما بـات، وكأن قـوةً مـا تربطهـما بهـما..

الـبرد يشـتد عـلى جسـده قسـاوةً والأبخـرة تتصاعـد مـن هنـا وهنـاك مع خـوفٍ داخـلي دبَّ فيـه وهـو يُصارع لتخليـص نفسـه..

يُحـاول الـصراخ فـلا تُجـدي محاولتـه.. تبـدو الأنفـاس وكأنما تتجمـد بمجـرد خروجهـا مـن فمـه..

أنفاسه تختنق شيئًا فشيئًا، ثم فجأة يسطع الضوء في المكان وينفلت ذراعاه فيجذبهما نحوه في لحظة انفتاح الدرجيْن..

وجه الصغير الشاحب يُطل عليه من أحدهما بنظرةٍ بائسةٍ تراجع أمامها مرتعدًا قبل أن تتسع عيناه وهو يُطالع وجهها العجوز الذي اعتدلت به من مرقدها داخل الدرج المقابل وصوتها القادم من أعماق كل ما حوله يهمس:

"ملحقتناش ليه؟.."

يواصل محاولاته المستميتة للصراخ بينما السؤال يتردد..

"ملحقتناش ليه؟"

أخيرًا تخرج عبر حلقهِ الصرخة وهو يهبُّ من رقدته بغتةً متعرقًا جاحظ العينين تتلاحق أنفاسه بين شهيقٍ وزفيرٍ.. مستقبلاً وجه محمود الناظر إليه في قلقٍ يسأله:

- فتحي إنت بخير؟

لحظةً من الصمت عليه مرَّت تطلع خلالها إلى موقظه بنفس العينيْن الجاحظتيْن في شيءٍ من عدم استيعاب قبل أن تهدأ أنفاسُه بإدراك ما حوله وهو يتمتم:

- بخير يا محمود.. أنا بخير، الحمد لله.

تنهد الرجل وقد اطمأن.. قبل أن يعتدل ماسحًا وجهه المبتل بمنشفةٍ كان يضعها فوق كتفه قائلاً وهو يستعد لتبديل ملابسه:

- نفس الكابوس إياه؟

هزَّ فتحي رأسه أنْ نعم مكتفيًا بذلك.. في حين أضاف الأخير مغمغمًا:

- ربنا يرحمهم ويصبرك.

ارتفع في تلك اللحظة صوتُ أذان الظهر عبر المآذن المحيطة بالمنطقة، فصمت كلاهما منصتًا حتى انتهى، ثم تساءل فتحي وهو ما زال راقدًا في مكانه على الأرض يُتابع محمود:

- إنت نازل وللا حاجة؟

أجابه نافيًا بهزة رأس وهو يقول:

- شادية جت الصبح ومستنياني برة بس هطلع أقعد معاها.

مرَّت على عينيه لحظة تساؤل أخرى قبل أن يستوعب، ثم غمغم وهو يدور بعينيْه في المكان:

- وبلال فين؟

ردَّ مكملاً ارتداء قميصه:

- بره معاها.. كان صاحي من بدري هو بيسمع في الشرايط القديمة بتاعته.

شرد فتحي ببصره في الفراغ للحظة وهو يأخذ نفسًا عميقًا من الهواء ملأ به صدره محاولًا تنظيم أنفاسه ثم اعتدل استعدادًا للنهوض وهو يقول:

- معتقدش إنه نام الليلادي أصلاً.. موضوع اللقاء التلفزيوني بتاع النهاردة دا أكيد شاغل باله.

أتته إجابة صديقه على هيئة ضحكةٍ قصيرةٍ قال بعدها:

- أكيد دا برضو سبب.. بس الصراحة موبايلي هو اللي صحاه.

ثم التفت يبحث عن قداحته التي أشعل بها لفافة تبغ كان قد دسها بين شفتيه، وهو يتابع:

- مش ندى امبارح بعتتلي رسالة صحيح؟

هم فتحي بالاستفهام متحمسًا عن الأمر لولا أن ارتفع في نفس اللحظة صوت رنين هاتفه الملقى جواره، فالتفت نحوه ومدَّ إليه يدا تلتقطه قبل أن يشير لمحمود بالصمت وهو يُجيب محدثه..

انتظر محمود إلى جواره صامتًا للحظات يُراقب انفعالاته في المكالمة مع انعقاد حاجبيه حتى أنهاها، فاقترب يسأل:

- خير فيه إيه؟

زفر فتحي متمتمًا في اقتضاب بعين شاردة وقبضته ما زالت تمسك بالهاتف:

- دكتورة هناء.

اندفع محمود يسأله في اهتمامٍ حذر:

- هي اللي اتصلت؟

ردَّ في سرعة:

- لأ.. دا واحد زميلي في المستشفى.. بيقول إنه شافها النهاردة هناك.. كانت رايحة تدور عليا.

ثم صمت ليزفر مرةً أخرى زفرةً حارةً حملت بكل ما في نفسه من قلقٍ استطرد به:

- وبيقولي إن سيد السايس إداها العنوان.

قالها فانتقل انعقاد الحاجبين إلى وجه محمود بدوره وهو يتساءل:

- تفتكر فهمت؟

مفكرًا أجابه وهو يهز رأسه ببطءٍ:

- معتقدش.

ثم دار بعينه في المكان حوله متابعًا:

ـ بس الأكيد إنها شاكة.. دا السبب الوحيد اللي يخليها تقطع أجازة مخصوص وتنزل المستشفى النهاردة بالذات عشان تسأل عني.

انعقد حاجبا محمود أكثر وهو يحك ذقنه بسبابته ويشير برأسه ناحية الباب الداخلي المغلق أمامهم متمتمًا:

ـ في الحالة دي يبقى ميصحش أبدًا تشوف بيلي.

تمتم الأخير في اقتضابٍ مؤيدًا:

ـ بالضبط.

انفتح الباب في تلك اللحظة دالفًا من خلاله بلال الذي انفغر فاه استنكارًا وهو يتطلع إلى محمود الواقف أمامه قبل أن يقول:

ـ إنت صاحي؟ طب يا عم ما تطلع تشوف البني آدمة اللي إنت لاطعها بقالك ساعة برة دي.

أتاه الرد من فتحي قبل الأخير وهو يُخبره:

ـ دكتورة هناء عرفت العنوان وزمانها جاية على هنا.. هنتصرف إزاي؟

ارتسم التوتر على ملامحه وهو يُغلق الباب موقفًا صوت الموسيقى المنبعثة هاتفًا:

ـ إيه الكلام دا؟

لوَّح فتحي بيده في عصبيةٍ، وهو يقول:

- اللي حصل بقى.. كلموني من هناك قالولي دلوقتي.

وقـف بجسـده النحيـل أمامهـم مفكـرًا قبـل أن يهتـف في اندفـاع:

- خـلاص لـو جـت منفتحلهـاش.. نسـيبها تخبـط عالبـاب وكأننـا مـش موجوديـن.

هزَّ فتحي رأسه بغير اقتناعٍ، وهو يقول:

- لا طبعًـا دا مـش حـل.. متعرفـش إنـت الدكتورة هنـاء زيي.. لمـا بتبقـى في حاجـة شـاغلاها مبتسـيبهاش.. ولـو هتقـف قـدام البـاب سـنة مسـتنية إن حـد يفتحلهـا هتعملهـا.. خـلي بالـك إني مـبردش عـلى تليفوناتهـا بقـالي فـترة.. فـا دا بالنسـبالها الخيـط الأخـير.

فكر بلال مرةً أخرى قبل أن يتمتم:

- يبقـى تنـزل تقابلهـا بـرة.. خدهـا وانزلـوا اقعـدوا في أي حتـة.. المهـم متطلعلنـاش هنـا.

بـدا شيء مـن استحسـانٍ للفكـرة عـلى ملامـح فتحـي، بينـما تدخـل محمـود معترضًـا:

- غلـط.. أولاً إحنـا مـش عارفـين هتيجـي إمتـى.. ثانيًـا لـو لاحظـت أي محاولـة حجـب بتتعمـل عليهـا هتتأكـد

شكوكها بشكل أكبر.. وبكدا نبقى كبرنا العقدة محليناهاش.

نطق بالعبارة وسبابته ما زالت تحك ذقنه في محاولة منه للتركيز بينما تدخل بلال قائلًا في عصبيةٍ:

- طب ماإنت كدا بتقفلها في وشنا.. نستنى يعني وإحنا مفيش قدامنا حل واللا إيه أنا مش فاهم قصدك؟

صمت في لحظة تفكير تطلع خلالها إليه محاولاً شحذ المعطيات في عقله وهو يتمتم ببطءٍ:

- لأ برضو.. أكيد في حل.

قالها ثم استطرد مكررًا نفس الجملة كأنما يُحدث نفسه وببطءٍ أكبر:

- أكيد طبعًا في حل.

***

-٤-

السَّبَبُ الرَّابِعُ لِلسَّعَادَةِ

أَنْ يَظَلُّوا فِي انْتِظَارَكْ..

***

نهضت فوقه على صوت طرقاتٍ هادئةٍ فوقه نحو بابِ شقتها زينب.. تضم طفلتها الصغيرة إلى صدرها في حنانٍ وتمدُّ يدها لتفتحه..

لم تُصدق عينيْها حين رأته.. تنفس قلبها ابتهاجًا ثم ارتمت بين أحضانه في لهفةٍ وهي تصيح:

- نبيل؟

لم يرَ في حياته سعادة قدر تلك التي رآها في عين أخته ذلك اليوم..

مضت شهورٌ منذ أنجبت لم يزرها خلالها مرةً..

كذلك هو لم يُصدق عينه حين رآها..

ما هذا النحول الذي أصابها؟

هزيلة برزت عظام وجهها وبدا سوادٌ حول عينيْها مع كدمة مزرقة على جنب خدها الأيمن..

زينب ماذا جرى لك؟ تلك النضرة على وجهك مَن محاها؟ وجمالك أين راح؟

أشاحت بوجهها عن عينيه متهربةً.. تحججت بمتاعب الولادة وطمأنته أنها بخير.. ثم شاغلته بالرضيعة التي رفعتها أمامه متمتمةً:

- سلمي على خالو يا شمس.

بابتسـامةٍ حملـت الكثـير من المشـاعر نظـر إلى ذات الشـهور أمامـه قبـل أن ينحنـي مُقبـلاً جبهتهـا برفـقٍ وهـو يسـأل:

- صحتها عاملة إيه؟

أجابته أن بخيرٍ رغم الصمم الذي وُلدت به..

جـاءت الطفلـة الصغـيرة الى عالمهـا صـماء بعيـبٍ في العصـب السـمعي أخـبر الأطبـاء زينـب أن لا أمـل في علاجـه..

أزعجهـا الأمـر في بدايتـه.. لكنهـا ارتضـت قضـاء اللـه فيـه مـن بعـد ذلـك..

جلسـا عـلى مـدى سـاعات لم يشـعر هـو بمضيهـا.. انشـغل فيهـا بتأملهـما كأنمـا يمـلأ بهـما فـراغ احتياجـه..

كان يفتقدهما كثيراً..

ضحـكا معًـا عـلى ذكريـاتٍ قديمـةٍ.. وغلبتهـما الدمـوع فـوق الشواهد..

سـألته عـن سـلوى.. فهـز رأسـه بـلا معنـى وتفـادى ذكـر الحقيقـة..

لم يُخبرها بأمر ابتعادهما..

لم يُفصـح لهـا عـن تلـك الفجـوة التـي صنعهـا بينهـما صمتـه وهروبـه واستسـلامه لليـأس الـذي لمحتـه في عينيـه..

- اتخطبت؟

ـ معرفش.

كشـفت نبرتـه في نطقهـا الحقيقـة.. فتمتمـت مربتـةً عـلى كتفـه:

ـ مبتكلمهاش خالص؟

ـ معنديـش وقـت.. ولا هيـا كـمان بقـى عندهـا وقـت.. عـادي يـا زينـب.

قالهـا في شيء مـن كبريـاء منهـار.. ثـم تنهـد بعدهـا متمتـمًا في ألمٍ وبنـبرةٍ أقـل حـدة:

ـ الدنيا بتتغير.

تطلعت عبر عينيْه إلى قلبه ثم قرأت:

ـ بس إنت متغيرتش معاها يا نبيل.

قالتهـا تقصـد الدنيـا مُحطمـة كل حواجـز اللامبـالاة التـي أحـاط بهـا مشـاعره..

كانـت تفهمـه وتشـعر بـه بدافـع الإنسـانية أولاً قبـل الأخـوة.. لكنـه تهربـاً مـن نظراتهـا الكاشـفة.. نقـل دفـة الحـوار إلى محـور جديـدٍ وهـو يسـأل:

ـ إنتي عاملة إيه في حياتك يا زينب؟

لم تجبـه.. فقـط مطـت شـفتيها ومنحتـه نظـرة أدرك هـو أيضًـا مغزاهـا..

نظرة تحمل بين ثناياها يأسًا يألفه عن ظهر قلب..

يبدو أنها مثله.. تحيا فقط..

لم تمنحه المساحة حينها لاستيضاح الأمور..

ودَّ لو سألها عن كل ما يجول في نفسه من علامات استفهام..

عن ذلك الضعف البادي في ملامحها والنحول الشديد..

عن زوجها.. ذلك الذي تغيب عن يوم ولادتها.. والذي دلف إلى المكان مطلاً عليهما في منتصف الحوار بعينٍ محمرة.. ووجهٍ مسودٍّ باهتٍ حياهما به على مضضٍ قبل أن يرحل عائدًا للداخل بعد نظرةٍ مختلسةٍ مترقبةٍ رمقته بها..

يبدو المرض واضحاً على قسماته تمامًا كما يبدو عليها..

كانت نظراته تنضح بكل أسئلته التي جاوبتها هي بالصمت وعينٍ مطرقةٍ..

خدي بالك من صحتك يا زينب.. عالأقل عشان خاطر شمس..

بعينٍ توقفت على حدودها العبرات همست:

- هتيجي تزورني تاني؟

أومأ برأسه أن نعم وهي تستطرد محاولة تمالك مشاعرها:

- هنستناك أنا وشمس دايمًا يا نبيل.. متبقاش تغيب علينا.

غمغم في هدوءٍ:

- بإذن الله يا زينب.. بإذن الله.

هتفت بغتةً وكأنما تذكرت شيئًا ما:

- نسيت أقولك.. عم فتحي وبلال بيسلموا عليك.. بيكلموني الاتنين يتطمنوا على شمس كل أسبوع.

ارتفع حاجباه بشيء من الدهشة متذكرًا أولاء الذين التقاهم يوم الولادة في المستشفى مغمغمًا:

- الله يسلمهم.

قالها في نهاية لقائهما وهو واقف على عتبة الباب يُصافحها بعد عناقٍ بينهما دافيءٍ دام لأطول من دقيقةٍ.. تمتمت خلالها بين أحضانه قبل أن يرحل:

- متستسلمش ليأسك يا نبيل.. متعملش زيي.. امسك في الحاجة اللي بتفرحك.. واوعى تسيبها تضيع منك.

وكأن عبارتها الأخيرة أيقظته من جمود.. ترددت في عقله يتأملها طوال طريق العودة الذي سلكه..

أي شيء كانـت تقصـد؟ أي شيء هــذا القــادر عــلى إخــماد شــعلة اليــأس المتقــدة في كيانــه؟

يصعـد درج السـلم حتـى سـطح بنايتـه التـي توقف مسـتندًا إلى سـورها منهمـرًا بداخلـه فيـضٌ مـن الأسـئلة طالـع بهـا الحـارة الضيقـة مـن تحتـه وكل المارين فيهـا جيئـةً وذهابًـا مـن بينهـم تلـك العائـدة مـن عملهـا ليـلاً بخطـواتٍ رقيقـةٍ يألفهـا سرح مـع أثرهـا لسـاعات امتـدت حتـى مطلـع النسـمات الأولى مـن الفجـر..

سلوى.. ذلك السر المحير المتواثب ما بين عقله والقلب..

أهــي العــادة التــي أدمنهــا.. أم أنهــا الحــب المتنامــي فيــه منــذ الصغــر؟..

ما سرُّ احتياجه لها بهذا الشكل؟

لماذا يشعره غيابها دومًا بالوجع؟

أسـئلة طالمـا تهـرب مـن إجابتهـا حتـى بـات وكأن الجـواب عنهـا مسـتحيل..

بـدى الـشروق الطالـع يومهـا كأنمـا يـروي نبتـة الإصرار التـي ذبلـت في روحـه .. فاعتـدل بهـا متجهـاً نحـو غرفتـه الصغـيرة ..

ربمـا تحركـه كلـمات زينـب.. وربمـا هـو ملـلٌ أصابـه بعـد شــهورٍ مــن الكآبــة والحــزن جعلــه ينهــض متخــذًا قــراره..

سيتمسك بشيء يُفرحه..

لن تنفلت منه الأمور بتلك البساطة..

لن يستسلم ليأسه.. ولن تنساه سلوى..

جـزءٌ منـه فيهـا عليـه أن يبقـى.. بأيـة وسـيلةٍ وبـأي شـكلٍ مـن الأشـكال..

مـدَّ يـده ممسـكًا بالكـرسي الخشـبي الوحيـد في المـكان.. رفعـه عاليًـا ثـم ألقـى بـه فـوق الأرض بـكل عنـفٍ وقـوةٍ..

تحطمـت إحـدى أقدامـه محدثـةً جلبـةً عاليـةً شـاركت صـوت ارتطامـه بأرضيـة المـكان..

سلوى تسكن تحته..

يتخيلها ترمق سقفها إثر الضجيج وتتساءل عن سببه..

مؤكـد أنهـا سـترمق سـقفها إثـر الضجيـج كلـما تكـرر.. مؤكـد أنهـا سـتفعل كـما فعلـت في صغرهـا ذات أيـام تبـادلا فيهـا رسـائلهما عـبر طرقـات فـوق جـدارٍ كان يفصـل بينهـما..

لا يعلـم إن كانـت تتذكـر شـيئًا كهـذا مـرَّت أعـوامٌ عـلى ذكـراه لكنـه سـيحاول إحيـاءه مـن جديـدٍ..

يكفيه أن تراودها لمحةٌ عنه في يومها ولو مارقةً..

يكفيه أن يطل على ركنٍ من عقلها برغم الغياب..

سيُذكرها به الضجيج.. وستفهم منه النداء..

نعم.. هذا ما يأمل فيه..

نعم.. هذا ما سيحدث..

تـرك الكـرسي المكسـور عـلى حالـه أرضًـا وقفـز بقدميـه فـوق الأرض بــكل قوةٍ..

الصوت جيدٌ، لكنه لا يكفي..

صعـد بقدميـه فـوق السريـر ومنـه بقفـزةٍ أعـلى لـلأرض محدثًـا دبيبًـا آخـر..

هـا هـو ذا اليائـس يتعلـق بقشـة أمـلٍ تُعيـد منـه جـزءًا للحيـاة التـي طالمـا أرادتـه مهمشًـا عـلى أطرافهـا..

سيتمسك بالطرف المتبقي له منها حتى الرمق الأخير..

وسـيعيد كـرَّة النـداء بقفزاتـه فـوق الأرض عـلى سـقفها كل صبـاح دون يـأسٍ..

علها تفهم..

ولعلها -هي أيضاً- تنتظره..

***

((أنا أول مرة شفتك فيها عرفت إنك غيرهم...

كنت قاعد في الكازينو بتشرب زيك زي كل اللي حواليك.. بس عنيك كان فيها حزن مشفتوش في عين أي حد..

حسيته يمكن عشان شبه الحزن اللي كنت بشوفه في عيني وأنا واقفة قدام مراية البيت لوحدي بعد كل ليلة شغل..

أنا فاكرة لحد النهاردة أول حاجة عملتها لما قربت منك..

حطيت الفلوس قدامك عالترابيزة وقلتلي لو اللي جايبك مدير مكان عايزك تظبطي زباينه خدي الفلوس دي وروحيله بيها.. ولو اللي جايبك حاجة تانية جواكي خدي الفلوس برضو.. واقعدي كلميني عنها..

ساعتها بصراحة أنا بصيت عالفلوس.. بس عمري ما حسيت إني بكرهها قد ما كرهتها وهي قدامك في اللحظة دي..

إنت خليتني في لحظة أكتشف إن الحاجة اللي طول عمري بجري وراها هيا نفسها الطوق اللي بلفه على رقبتي وخانقني..

طول عمري بقنع نفسي بالكدب إن الفقر مشكلتي .. بس الحقيقة أصلاً غير كدا..

أنا مشكلتي مكانتش أبدًا في فقر الفلوس.. أنا مشكلتي كانت نفسي اللي رخصتها وسبتها لعبة في إيد اختيارات وقرارات كل من هب ودب..

معرفتش آخد الفلوس من قدامك.. ولا عرفت أقعد وأقولك إني كنت جاية بكامل اختياري الحر.. لأني قبل كلامك دا مكنتش أعرف أصلاً يعني ايه حرية..

لقيتني ببعد.. دخلت حمام المكان وفضلت جواه أعيط بحرقة على الحال اللي وصَّلت نفسي ليه..

أنا ليه اخترت لنفسي كل ده؟

ليه سبت الناس هما اللي يختارولي ؟..

ليه معشتش يوم واحد من عمري بنفسي لنفسي؟..

حتى دموعي اللي نازله ساعتها حسيت كأنها بتسيل على جلد غيري..

جلد حسس عليه كل الكلاب..

لعنت الإحساس اللي فيا ألف مرة.. وفي نفس الوقت خفت عليه ألف مرة..

كانت أول مرة أحس.. كانت فعلاً أول مرة أحس.. وكلامك كان هو السبب..

عشان كدا أنا لما سمعت صوت الترابيزة وهي بتتقلب برة وطلعت لقيتك واقع قدامي على الأرض محسبتهاش ولا حسيت بنفسي إلا وأنا بسندك وبجري بيك عالمستشفى..

وعشان كدا برضو النهاردة بقولك إن أي حاجة هتطلبها مني أنا هعملها.. من غير حتى ما أعرف ليها سبب..

إنت غيرت فيا حاجات كتير أوي يا محمود باشا..

وصحيت جوايا حاجات أكتر..))

***

بالبذلة الميري التي احتوت خزيه وقف مستترًا إلى جنبٍ أمام باب خشبي طرقه عدة طرقات..

مبتعدًا عن مجال العين السحرية المترقبة في منتصفه..

كان يعلم أن أحدًا من الداخل ربما لن يفتح له إن أفصح عن هويته..

انفتح الباب على وجه ذلك الذي أطل بفانلةٍ داخليةٍ بيضاء مع رأسه يطالع الطارق المتواري قبل أن يعقد حاجبيه في شيءٍ من توترٍ، قائلًا:

- بيومي؟ عايز إيه بالضبط؟..

سأله بيومي في بطءٍ غير آبهٍ لسؤاله:

- أختك هنا؟

تردد سعيد شقيق زوجته وهو يُكرر سؤاله:

- عايز منها إيه يا بيومي؟ ورايح ليه تقف لمحمد قدام مدرسته النهاردة ؟؟ احنا مش قلنا خلاص بقى نفضها سيرة ومشاكلنا مع بعض نحلها في المحاكم؟

قالها وهو يُحاول رد الباب في وجه هذا الأخير الذي مدَّ يده يمنعه وهو يقول في شيءٍ من حِدةٍ:

- أختك لسه على ذمتي يا سعيد ومحصلش طلاق.. ومش من حقك تمنعني أشوفها أو أشوف محمد ابني.

نطق بها قبل أن تمتزج نبرته مع لمحة توسل مكملاً:

- أرجوك يا سعيد عايز أشوفها.. أنا جايلك بصفتي جوز أختك بس ومش طالب غير دقيقتين من وقتها مش أكتر.

تردد الرجل في إجابته بعض الشيء، بينما هو يكرر:

- أرجوك !..

تنهَّد في صمتٍ قبل أن يُتمتم:

- مش عارف والله أقولك إيه يا بيومي.. مش هكدب عليك الصراحة إنت اللي عملته في ابنك مخليها مش طايقة تشوفك.

سأله في حزنٍ:

- هو عامل إيه دلوقتي؟

تنهَّد مرةً أخرى وهو يُجيب وقد شعر نحوه بشيء من الشفقة جعله يُعيد الباب إلى وضعه المفتوح متمتمًا:

- مش كويس للأسف.. ابنك بقى على طول خايف.. صدمته فيك مكانتش بسيطة.. وأختي في الأول والآخر أم.. مينفعش أبدًا تطلب منها إنها تسامحك وهيا شايفة حال ابنها بالشكل ده.

أوجعته الكلمات التي يُدرك مدى صدقها.. صمت لوهلةٍ، ثم قال له:

- دخلني أكلمها يا سيد.. بحق العشرة.. عندي كلمتين من حقها تعرفهم.. متخلينيش أنزل بيهم تاني بالله عليك.

تطلع سيد إليه مفكرًا.. ثم التفت إلى ما وراءه بالداخل قبل أن يفتح الباب متخذًا قرار دعوته للدخول.

دلف بيومي بخطواتٍ ثقيلةٍ إلى المكان متوقفًا حيث أشار إليه الرجل الذي سبقه نحو باب غرفةٍ مغلقةٍ طرَق بابها مرتين ثم نادى على ساكنتها بصوتٍ مرتفعٍ:

- أسما.. بيومي هنا وعايز يقولك كلمتين.

برهـة مـن الصمـت مـرَّت.. احتبسـت فيهـا أنفـاس بيومـي المترقـب في بذلتـه المـيري قبـل أن يأتيـه صوتهـا المحتـد مـن الداخـل:

- عايـز إيـه يـا بيومـي؟.. امـشي بقـى يـا أخـي.. امـشي كفايـة علينـا الـلي عملتـه.. كلمتـين إيـه تـاني الـلي جـي وعايـز تقولهم؟

ـ أسما..

نطق الكلمة بصعوبةٍ بالغةٍ..

وبحروفٍ خرجت ثقيلةً من بين شفتيه استطرد:

ـ أنـا مـش جـي النهـاردة أبـرر.. أنـا جـي أقولـك بـس إن معـاكي حـق في كل الـلي عملتيـه وبتعمليـه.. جـي أقولـك إني مـش قـادر أسـامح نفـسي..

أنـا دلوقتـي عرفـت حجمـي الطبيعـي.. وعرفـت إن عمـري مـا كنـت البنـي آدم الـلي يسـتاهل يعيـش مـع سـت محترمـة زيـك ولا يبقـى مسـئول عـن تربيـة طفـل زي محمـد..

أنـا محافظتـش عالنعمـة الـلي ربنـا اكرمنـي بيهـا فيكـوا يـا أسـما.. وعـارف إني مهـما حكيتلـك عـن الـلي حاسـس بيـه في اللحظـة دي مـش هتصدقينـي..

أنا بتعاقب بيك..

ـ "بعد إيه؟"

قاطعته بالتساؤل المقتضب في مرارةٍ:

- إيـه فايـدة فوقانـك وكلامـك دا بعـد مـا كـسرت بإيـدك أحـلى حاجـة بنيناهـا مـع بعـض؟

أنـا ياما حذرتـك مـن ظلـم النـاس.. ياما قلتلـك خـلي بالك.. كنـت بتتجـبر عـلى إيـه وإنـت حياللـه مخلـوق مـن مخاليـق ربنـا ومحتـاج رضـاه زي مـا كلنـا محتاجينـه؟..

إنت متعرفش إنت كسرت إيه بإديك في قلب ابنك..

متعرفـش هزيتـه إزاي مـن جـوا وخليتـه معـدوم الثقـة في كل شيء حواليـه..

ابننـا الـلي مكانـش البيـت بيفـضى مـن صـوت ضحكتـه.. بقـى يصحـى طـول الليـل يعيـط مفـزوع خايـف يلاقيـك داخـل عليـه..

بقـى بيشـوف الـدم الـلي شـافه عـلى إديـك يومهـا في كل حاجـة حواليـه..

الحيطة.. سريره.. حتى فأكله..

إنـت السـلطة الـلي معـاك خلتـك للأسـف تـدوس عـلى حاجـات كتـير أوي عمرهـا مـا هترجـع أبـدًا زي مـا كانـت..

قضيـت عـلى طفولتـه وبراءتـه والصـورة الـلي المفـروض كان يرسـمها جـواه لـلأب..

أرجـوك امـشي وكفايـة عليـا وعليـه الـلي حصـل.. خلينـي أحـاول مـع الزمـن أصلـح الـلي إنـت بإديـك بوظتـه.. يمكـن نسـيانك يكـون هـو الحـل..

ابنـك نايـم دلوقتـي يـا بيومـي ومـن فضلـك مـش عايـزاه يصحـى وإنـت موجـود..

غمغم دون جدالٍ يترجاها:

- حـاضر يـا أسـما.. أنـا همـشي.. أنـا جـي أقولـك إني مـن غـير قضايـا هطلقـك وهعملـك كل الـلي إنتـي عايـزاه.. بـس طلبـي الأخـير تفتحـي تخلينـي أشـوفه ولـو لمـرة أخـيرة وهـو نايـم.

صمتـت.. في حـين تبـادل شـقيقها النظـرات معـه ومـع الباب قبـل أن يقـول مستشـعرًا صـدق الأخير:

افتحيله الباب يا أسما.. الراجل من حقه يشوف ابنه.

لحظـات عـدم اقتنـاع راودتهـا فتحـت بعدهـا بهـا البـاب متفاديـة النظـر اليـه .

سـبقه سـعيد يشـير لهـا بالتنحـي إلى جنـبٍ.. ثـم تبعـه هـو ملقيًـا النظـر عـلى الجسـد الصغـير النائـم مقتربًـا منه، فهمسـت:

- ياريـت متلمسـوش.. مـش عايـزاه يصحـى باللـه عليـك ويشـوفك.

قالتهـا وهـي لا تـزال مشـيحةً عنـه بوجههـا.. فرمقهـا بـشيء مـن الأسى.. ثـم اقـترب برأسـه مـن الفتـى يشـتمُّ أنفاسـه دون لمـس كـما طلبـت..

يا ليت لحظة من الماضي تعود..

وأشياء فيه ليتها لم تحدث..

التهـم وجهـه بعينيْـه كأنمـا يُحـاول الاحتفـاظ بـه.. يلتقـط لـه صـورةً هـي المتاحـة لسـد شـوقه النهـم إليـه..

عيناه اللتان لم تغلب هذه المرة دموعًا حاول كتمها..

وشفتاه اللتان اهتزتا ناطقةً بكلماتٍ قصارٍ:

- سامحني يا محمد..

سامحنى عشان ربنا يسامحني..

أنـا فقـت عـلى إديـك يـا ابنـي.. وكل الـلي بتمنـاه مـن ربنـا إنـك تفهـم في يـوم مـن الأيـام إن أبـوك اتغـير بجـد.. وإنـه هيحــاول يعمــل أي حاجــة عشــان يصلــح كل غلطــة كبــيرة عملهـا في حياتـه.

قالهـا ثـم اعتـدل متجهًـا إلى الخـارج بعـد جذبـةٍ مـن يـد سـعيد أمـام عينيْهـا التـي تجـرأت أخـيرًا بالنظـر إليـه..

شيء مـا في دموعـه التـي تراهـا عـلى وجنتيْـه لأول مـرة في حياتهـا ربمـا منحهـا بعضًـا مـن الشـفقة نحـوه..

توقف على عتبة الباب والتفت إليها، ثم غمغم:

- شكرًا يا أسما.. وياريت تحاولي تسامحيني إنتي كمان.

جذبه سعيد مرة أخرى من ذراعه برفق إلى الخارج فتبعه دون مقاومةٍ قبل أن تستوقفهما هي بإشارةٍ من يدها قائلةً بوجعٍ تكتمه:

نفذ وعدك!

رفع نحوها عينيْه ثم أخفضهما بسرعة غير القادر على مواجهتها متمتمًا:

- حاضر يا أسما..

إنتي طالق.

نطق بها ثم خرج مغلقةً هي الباب عليها في ظهره تاركةً لدموعها حرية الانهمار..

بكل الألم.

***

الثانية عصرًا بتوقيت القاهرة..

طرَقات فوق الباب الخشبي..

نغمات موسيقى السيرك..

وأضواء انعكس ضيها فوق كل الأشياء..

اعتـدل فتحـي إثرهـا بحركـةٍ حـادةٍ مسـتديرًا ناحيـة البـاب.. في حـين جـرَّ بـلال كرسـيه إلى الخلـف مـن أمـام المائـدة الصغـيرة في المـكان لينهـض متجهًـا نحـوه وهـو يرمقـه بنظـرةٍ خاصـةٍ هامسًـا:

- شكلها وصلت.

قالهـا ثـم أدار مقبـض البـاب ليفتحـه قبـل أن يتوقـف أمـام الزائـرة التـي تطلعـت في اندهـاشٍ لرؤيتـه قائلـةً:

- عم بلال؟

تأهـب فتحـي بالداخـل مـع سـماع صوتهـا.. واشرأب بعنقـه قليـلاً ليراهـا.. بينـما أتى الـرد مـن بـين شـفتيْ بـلال المرتبكتـين:

- دكتورة هناء؟ إنتي إيه اللي جابك؟

ثم استدرك مافي عبارته من فظاظة قائلاً:

- أقصد يعني عرفتي العنوان هنا إزاي؟

أمضـت في النظـر إليـه لحظـة صمـت لم تتعـد الثانيتـين أهملـت خلالهـما سـؤاله قبـل أن تسـأل:

- عم فتحي عندك؟

وقـف ممسـكًا بالبـاب المـوارب كحائـلٍ بـين حـدود رؤيتهـا والداخـل.. وتـردد في الإجابـة بعضًـا مـن اللحظـات قبـل أن ينطـق بهـا:

- آه موجود.

ثم فتحه لها على اتساعه مفسحًا الطريق، وهو يكمل:

- اتفضلي يا دكتورة.. البيت بيتك.

دلفت بكم من الفضول في عينيها رمقت به فتحي الكائن في مكانه يرمقها بدوره في ترقبٍ حاول مداراته خلف قناعٍ من الترحيب وهو ينهض من مكانه لاستقبالها، هاتفًا:

- إيه دا فعلاً مش حلم؟ دكتورة هناء بنفسها جاية تزورنا؟ والله لو نعرف كنا فرشنا الحارة ورد.

كانت مبالغته في الترحيب مريبةً بشكلٍ كبيرٍ.. شعر هو بذلك في نظرتها المتحفزة التي استقبلت بها كلماته وهي تستفسر:

- مبتردش ليه على تليفوناتي يا عم فتحي؟

ارتفع حاجباه في استنكار مصطنع، وهو يرد:

- تليفوناتك؟

استدارت غير آبهةٍ بإنكاره على الفور مواجهة بلال الذي تأهب فور تطلعها إليه وهي تسأله بشكلٍ مباشرٍ:

- إنت اللي متصور في الفيديو بتاع اليوتيوب يا عم بلال.. صح كدا؟

ارتجفت الحروف على طرف شفتيه وتراجعت متخبطةً لا تهديه إلى جواب..

لقد بدأت مواجهتهم مباشرةً..

تلك المرأة تعرف جيدًا فيم أتت..

أصابه التلعثم بتمتماتٍ خرجت من بين شفتيه بلا معنى.. على حين استمرت هي في مواجهته مستطردةً بإصرارٍ:

- هاتلي مليون يأكدولي إنه مش صوتك وبرضو مش هصدقهم.

ضيَّقت عليه الخناق فاستسلم بين حوائط الضغط النفسي الذي صنعته له متمتمًا برأسٍ مُطرقٍ:

- أيوه يا دكتورة.. كان صوتي.. أنا اللي صورت الفيديو ده..

صمتت وهي تنظر إليه..

بقدر ما توقعت أنه صاحب الفيديو.. بقدر ما اندهشت لحظة تأكيده للأمر..

شيء بداخلها كان يتمنى أن تكون مخطئةً..

في أي أمر لا تعلم.. لكنها إشارة الإنذار الحمراء التي أضاءت ركنًا ما من أركان عقلها يوم شاهدت الفيديو هي التي حركتها..

أخرجـت هاتفهـا المحمـول أمامهـم وضغطـت الأزرار لتشـغيله قبـل أن تمـرر جـزءًا منـه ثـم ترفـع الشاشـة في مواجهـة الأخـير..

وجه المهرج الجالس أمام الكاميرا.. وصوته الواضح..

" وبمقتضاهـا اليـوم أيضًـا.. أشـارككم وسـيلتي الأخـيرة صوب قمتهـا ببعـض مـا ملكتـم مـن فضـول.. وبأقـصى مـا ملـك قلبـي مـن رغبـة وجنـونٍ..

لقـد قـررت أنـا.. صاحـب الابتسـامة المنقوصـة مـن تحـت هـذا القنـاع.. ان أنتـزع كل مخـاوفي عـلى مـرأى ومسـمع منكـم جميعـاً..

وأن أخـوض تجربـة احـتراق كاملـة, لتحريـري كليـاً وبشـكل نهـائي, مـن كيـان مـادي صرت أراه اليـوم معيقـاً..

علها تمنحني الخلاص.."

أوقفـت العـرض عنـد هـذه النقطـة ويدهـا لا تـزال معلقـةً بالهاتـف المحمـول أمامـه للحظـة.. قبـل أن تخفضهـا متسـائلةً:

- ممكن أفهم بقى تفسير الكلام دا إيه؟

أشـاح بـلال بوجهـه هربًـا مـن مواجهتهـا في حـين تدخـل فتحـي هـذه المـرة قائـلاً في سرعـةٍ:

- تفسيره إنه حلم يا دكتورة.. حلم وبنحققه.

التفتت لـه في اسـتنكار فهـبَّ مـن مقعـده هاتفًـا بحـماسٍ لم تعهـده منـذ أعـوامٍ فيـه:

- أيــوه يــا دكتــورة حلــم.. مســتغربة ليــه؟ بــصي بنفســك شــوفي الفيديــو جــاب كام مشــاهدة في أســبوع واحــد...

بصي على كم التعليقات اللي اتكتبت..

إنتـي عارفـة كام قنـاة النهـاردة بتـدور عـلى صاحـب الفيديو دا عشـان تعمـل معـاه لقـاء حصري؟

متخيلـة كـم العـروض والمكاسـب الـلي ممكـن تتحقـق مـن ورا دا؟

كانــت تســتمع إليــه مراقبــة حماســه في الحديــث وعينيْهــا تتسـعان في اندهـاشٍ قبـل أن تقـول:

- إيــه كل الــلي بتقولــه دا؟ حلــم إيــه الــلي إنــت بتتكلــم عنــه؟ مفيــش حلــم بيتصنــع بكدبــة.

قالتها وهي تنقل بصرها بينهم..

بــلال الــذي بــات في نظرتــه شيء مــن ثبــاتٍ وهــو يتطلــع بــدوره إلى فتحــي الــذي أشــار إليهــا بأصبعــه قائــلاً بنفــس الانفعــال:

- لأ.. في يا دكتورة..

في زمننـا الـلي احنـا فيـه دا أحـلام كتـير أوي اتبنـت عـلى كدبـة..

بـصي حواليـكي شـوفي إحنـا اتسرقنـا كام مـرة ورا كام حلـم كـداب؟..

عديـلي كـم الأوهـام الـلي اتباعـت واتدفـع فيهـا طموحـات وفلـوس وأعـمار؟..

صمـت لحظـةً ليلتقـط أنفاسـه وليتأكـد مـن أن كلماتـه تـترك أثرهـا المطلـوب عـلى ملامحهـا قبـل أن يتابـع:

- يـا دكتـورة إحنـا في بلـدٍ ظروفهـا الاقتصاديـة بتتقلـب بإشـاعة..دي صناعتنـا الوحيـدة الـلي إحنـا ناجحـين فيهـا..

جاية النهاردة بتلومي الراجل عشان كدبة؟

قالهـا مشـيراً نحـو بـلال الـذي التمعـت عينـاه في تأثـرٍ، وهـو يُكمل :

- مـا هـو بـلال قدامـك أهـو.. اسـأليه خمسـة وعشريـن سـنة صـدق ومجهـود وضمـير في حاجـة هـو ناجـح فيهـا وصلـوه لإيـه؟ مونولوجسـت كان بيقـدم للنـاس عالراديـو ضحكـة صافيـة حقيقيـة في اسكتشـات متعـوب عليهـا سـاعات وأيـام ومتذاكـرة كويـس أوي..

واحد يمكن لو كان اختار ساعتها الضحكة التافهة والإيحاءات الرخيصة كان حقق شهرة أكبر.. أو كان اتعمله النهاردة برنامج خاص يقدمه عالتليفزيون..

صدقيني.. مكانش أبدًا هينتهي بيه الحال كدا مجرد نقطة على شمال الواحد ملهاش أي لازمة..

راجل كبير مجهول محدش يعرفه.. ضيع شبابه في وهم إنه بيعمل حاجة تعيش.. بس لا هي عاشت.. ولا هو للأسف عرف يكملها..

أشفقت الدكتورة هناء على بلال من كلمات فتحي التي استشعرتها قاسية.. فتمتمت محاولةً تجميل الأمور:

- كلامك مش صح يا عم فتحي.. مين اللي قال إن عم بلال فشل؟.. عم بلال نجاحه في إنه لسه بيحاول.. لسه بيعمل شيء في ناس محتاجاه.. على الأقل عمل منكوا فرقة ناجحة إنت نفسك لسه بتكلمني عن أعداد متابعينها.

أجابتها ضحكته المتهكمة القصيرة وهو يقول:

- نجاح؟.. أنهي نجاح دا اللي تقصديه؟ فيديوهات اليوتيوب؟ ولا قصدك مشروع العلاج بالضحك؟

يـا دكتـورة أنـا مبحاربـش بـلال.. اسـأليه هـو نفسـه هيقولك إن كل الـلي بنعملـه دا قـصر ديـل.. حيلـة الضعيـف.. نفـس أخـير ملـوش لازمـة نحـس بيـه بـس إننـا لسـه عايشـين.

قالها ثم واجه بلال بكلماته قائلاً:

- قوللهـا انـت يـا بـلال.. فهمهـا لمـا جيـت المستشـفى مـن سـنتين عشـان تعـرض الفكـرة كان إيـه هدفـك..؟ وفكرهـا الإدارة هنـاك في الأول اتعاملـت معـاك إزاي؟

ابتسم بلال ابتسامةً مريرةً للذكرى التي أطلت مغمغمًا:

- هـي الإدارة بـس يـا فتحـي؟ الدنيـا كلهـا كانـت بتبصـلي عـلى إني مجنـون.. واحـد عبيـط مـش عايـش معاهـم عـلى نفـس الأرض.

قالها ثم نظر إلى هناء، وأكمل:

- أنا جيت أعرض الفكرة يا دكتورة لما لقيت إني رخصت..

الحيـاة فجـأة غـدرت بيـا واكتشـفت بعـد سـنين إنهـا غفلتنـي..

لمـا فقـرتي عـلى الراديـو مـن سـنين قالـولي إنهـا وقفـت.. افتكـرت في الأول سـاعتها إن دا طبيعـي..

حالـة طارئـة مؤقتـة وهتمـر.. وهبـدأ مـن تـاني في مـكان جديـد..

كانـت كل مـا الفـترة تطـول أقـول لنفـسي أحسـن.. خليـك إنــت بــس مســتعد بتكتــب اسكتشــاتك وبتجهزهــا عشــان الفرصــة الــلي أكيــد فيــوم هتيجــي..

أتاريهـا سـنة بتاخـد وراهـا سـنة.. وأتاريـنـي أنـا العبيـط الوحيـد الـلي مـش فاهـم إن متطلبـات السـوق اتغـيرت..

متطلبـات السـوق دي الـلي أهـم عندهـم مـن متطلبـات الإنسـانية نفسـها.. واحـدة واحـدة لقيـت نفـسي بعـد الشـهرة والمجـد إنسـان تقيـل عالـلي حواليـه..

التليفون اللي مكانش بيبطل رن كأنه مات ..

الفلوس قلت..

بقيـت أنـزل أمـشي في الشـارع بالسـاعات وأقعـد عالقهـاوي محــدش يعــبرني غــير الصبــي الــلي بينزلــلي الشــاي.. بــس في ســاعة الطلــب والحســاب..

لما جتلي الفكرة كان عشان أعرف أعيش يا دكتورة..

أنا مش ناجح في حاجة غير أني بعرف أضحك الناس..

زمـان كان ليـا جمهـور وثقافـة بتحترمنـي وبتقـدر وجـودي وشـغلي..

لكـن النهـاردة إحنـا بنعمـل دا ببواقـي حيـاة.. عشـان كام قـرش يتكرمشـوا ويتحطـوا في إيدينـا مـن عيلـة العيـان الـلي اتبسـط عـلى شـكل صدقـة..

كان انفعالـه حقيقيًّـا إلى الحـد الـذي أقلـق فتحـي ذاتـه.. فاقـترب منـه مربتًـا عـلى كتفـه، وهـو يقـول:

- بلال.. أنا آسف.

أشـاح بـلال بعينيـه المحمرتـين مشـيرًا لـه أن لا شيء.. في حـين تنهـدت الدكتـورة هنـاء في شيء مـن التأثـر نفضتـه عـن رأسـها بعـد برهـة وهـي تقـول:

- أنا برضو مش لاقية المنطق.. في حاجة ناقصة.

تحفـز فتحـي وبـلال لعبارتهـا وهـي تـدور باحثـة فيـما حولهـا وتُكـرر:

فيـه جـزء في الحدوتـة مـش منطقـي.. مـش عارفـة هـو إيـه.. ولا فين..

ما زالت تتبع حدسها..

ذلك الضوء الأحمر في عقلها لا زال يضيء..

نظـرت نحوهـم.. يـتراءى لهـا واضحًـا الارتبـاك البـادي عـلى ملامحهـم..

سألتهم في حدةٍ عما يجول حقيقة في ذهنها:

- طب اشمعنى النهاردة يا عم فتحي؟ ليه اختارتوا اليوم ده بالذات؟

لم يُحر أحدهم أمامها جوابًا وباتت أسوار فتحي الحصينة على وشك الانهيار، وهي تتمتم متحدثةً إليه:

- عم فتحي.. أنا متأكدة إنك مخبي حاجة عليا.. وبرجوك تصارحني بيها.

تمتم فتحي قائلاً:

- مفيش حاجة يا دكتورة.. إنتي بس اللي مـ..

بتر عبارته بغتة في قلقٍ.. مع نظرتها نحو باب الغرفة المغلقة في المكان وإشارة يدها إليها وهي تسأل:

- مين اللي جوا هنا؟

انعقد لسان فتحي في توترٍ، في حين اندفع بلال هذه المرة يقول:

- مفيش حد.. دي أوضة خزين مش أكتر.

لم تضف لها عبارته غير الشك.. وبدافع فضولها الداخلي اقتربت من الباب ومدت يدها نحو مقبضه قائلةً:

- كده؟ طب خلينا نشوف بقى مخزنين فيها إيه.

وقبل أن تكتمل عبارتها.. فتحته..

موسيقى السيرك المرتفعة..

الأضواء الملونة..

ثـم شـهقة صـدرت مـن بـين شـفتيها مـع تراجـع خطوتـين إلى الـوراء..

فأمامهـا فـوق الفـراش داخـل الحجـرة الصغـيرة الضيقـة كان محمـود يرقـد بقميـصٍ مفتـوحٍ تحـت مـلاءةٍ تشـاركها مـع شـادية التـي سـارعت بالغـوص أسـفلها..

مشـهدٌ فاضـحٌ احتقـن لـه وجههـا وهـي تُتمتـم في دهشـةٍ واسـتنكارٍ:

- أستاذ محمود؟

قالتهـا ثـم أشـاحت بوجههـا مبتعـدةً تصحبهـا لعثـمات محمـود الـذي انهمـك في إغـلاق أزرار قميصـه المفتـوح :

- دكتورة هناء.. إستني.. هشرحلك..

لم تمنحـه فرصـة المحاولـة وهـي تلتقـط حقيبتهـا وتبتعـد بخطـواتٍ واسـعةٍ مصدومـةً فيهـم جميعًـا إلى خـارج المـكان..

لثـوانٍ تجمـد المشـهد في أعـين الواقفـين.. قبـل أن يكـسره فتحـي الـذي تحـرّك بعـد لكـزةٍ مـن يـد بـلال عـلى كتفـه يُحـاول اللحـاق بهـا عـلى السـلم الـذي التهمـت قدماهـا درجاتـه في عجـلٍ..

ثوانٍ أخرى من الصمت أفرجت فيها شفتا بلال عن ابتسامةٍ مستترةٍ رمق بها محمود الذي تطلع إليه بدوره متابعًا إغلاق ما تبقى في قميصه من أزرارٍ وهو يقول متهكمًا:

- عاجباك إنت الفضيحة دي طبعًا؟

تمتم بلال قائلاً:

- هيا مش فكرتك؟

في حين انطلقت من بين شفتيْ شادية ضحكةٌ متحمسةٌ وهي تنهض من أسفل الملاءة بملابسها كاملةً وتصيح:

- إيه الدماغ اللي تتوزن بالدهب دي يا محمود باشا؟.. شفت يا عم بلبل خلى الولية تخلع من المكان موهومة إزاي؟

نظر إليها بلال في اندهاشٍ، بينما قهقه محمود وهو ينهض من فوق الفراش قائلاً:

- " ولية " إيه يا عبيطة إنتي؟ دي الدكتورة هناء يا شادية اللي كانت متابعة حالتي في المستشفى.

تراجعت شادية برأسها إلى الوراء وهي تنظر نحوه قاطبةً ما بين حاجبيها قبل أن يفترَّ ثغرها عن دهشة ، وهي تهتف:

ـ تصدق فعلاً؟ حسيت والله إني شفتها قبل كدا.

ابتسم لها محمود قبل أن يتدخل بلال قائلاً:

ـ طب وأنا افتكرتيني وللا لسه؟

هزَّت كتفيها متمتمةً:

ـ ما إنت قلتلي إنك كنت بتمثل في الأفلام زمان.

اتسعت ابتسامته مفسحًا لمحمود مجال الرد وهو يُخبرها:

ـ بلال برضو إنتي شفتيه معايا في المستشفى يا شادية.

نظرت إليه بغير استيعابٍ، فاستطرد يُحاول تذكيرها:

ـ إزاي بس مش فاكراه؟ عم بلبل.. كان بيجيلي الأوضة كتير هو وفتحي.. الراجل أبو طاقية غريبة دا اللي كنتي بتستغربي لبسه وكانوا مسميينه في المستشفى شابلن.

بدا الأمر بالنسبة لها مربكًا وعقلها يستعيد صورًا مشوشة لتلك الفترة فوقفت بينهم وسط الغرفة الصغيرة حائرةً غير قادرةٍ على الفهم..

تتضح الأشياء لها شيئًا فشيء..

الآن تفهم سر شعورها المبدئي نحوهم بالألفة.. لكنها لا تُدرك شيئًا دونه..

تمتمت بصوتٍ خفيضٍ:

- أنا مبقيتش فاهمة حاجة.. إنت لخبطتني كدا يا محمود باشا.

تحرك مربتًا على كتفها في عفويةٍ، وهو يقول:

- متتلخبطيش.. ادخلي دلوقتي بس عالمطبخ حضريلنا لقمة من التلاجة نفطر بيها سوا وتعالي نقعد أفهمك كل حاجة عشان لسه أنا مقلتلكيش إيه اللي مطلوب منك بالضبط..

همت من فوق الفراش جواره وهي تهتف في حماسٍ:

- من عنيا.. وبالمرة هروح أنده على صاحبكوا البلياتشو اللي مخبيينه في الحمام ده.

أشار إليها:

- لا ملكيش دعوة سيبيلي إنتي بيلي.

ثم عاد ملتفتًا نحو بلال وهو يستطرد:

- وإنت روح عشان يا دوب تحضر نفسك.. المشكلة خلاص اتحلت وكله هيمشي بإذن الله زي ما خططنا.

قالها بنبرةٍ حملت الكثير من الثقة..

والأمل..

***

-٥-

السَّبَبُ الخَامِسُ لِلسَّعَادَةِ

ما اجتهدنا لتحقيقه.. فكان..

***

أخيرًا نجح الأمر.. تمامًا كما توقع..

أخـيرًا تلقـت سـلوى الرسـالة.. ربمـا بعـد وقـتٍ طـال ولكنهـا هنـا الآن وطرقـات يدهـا فـوق البـاب الخشـبي تباغتـه..

رآها بلهفة الانتظار قبل أن يفتح..

لم يكـن مسـتعدًّا رغـم ذلـك للقـاء الـذي طالمـا خطـط لـه وانتظـره..

الغرفـة غـير مرتبـة.. ملابسـه الملقـاة هنـا وهنـاك.. أطبـاق الطعـام مـع الكتـب وأوراق العمـل منتـشرة في كل الأركان..

حاول على عجلٍ أن يلملم ما وقع تحت طائلته..

يُسابق الوقت الكافي لجعل الأمر منطقيًّا لا تأخير فيه..

أخبرتـه مرآتـه في لحظـة وقـوف أمامهـا أن هيئتـه تبـدو مناسـبةً.. فقـط إن تغـاضى عـن شـعره غـير المصفـف وذلـك الإجهـاد البـادي عـلى وجهـه..

عـن كل التفاصيـل تغـاضى ويـده المتشـوقة للقائهـا تمتـد لفتـح البـاب..

وجدهـا أمامـه تقـف.. ترمـق وجهـه المحمـر تعرقًـا ولهاثـه الـذي أخفـاه خلـف عبـارة ترحيـب خرجـت محملـةً بشـوقٍ لم يرغـب حتـى في اخفائـه:

- سلوى؟

ابتسمت..

فقـط وهـي تتطلـع إلى وجهـه ابتسـمت وظلـت واقفـةً بـلا تعليـقٍ..

وكذلـك تجمـد الشـوق فـوق ملامحـه عـلى مـرِّ ثـوانٍ بـدت لـه طويلـةً فتمتـم بـه:

- هتفضلي واقفة تبصيلي كدا؟

ظلت كما هي مبتسمة للحظةٍ قبل أن تسأل:

- وانت هتفضل تدبدب فوق أوضتي كتير؟

فاجأته العبارة.. تلعثم أمامها مبتسمًا لا يهتدي للرد..

انفعاله يكتمه وسعادته أمام اللحظة تبدو بلا حدود..

ما زالت سلوى تقرأه؟

ما زال كتابًا مفتوحًا رغم الغيبة أمامها؟

لقد ترجمت حروف طرقاته.. وأدركت معناها..

لم يغيرها الزمن ولم يُنسها..

غمغم ضاحكًا من خلف الرضا المتسلل إلى قلبه:

لـو هـي الـلي هتخليـني أشـوفك فأنـا مـش هقـدر أبـدًا أبطلهـا..

احمـرت وجنتاهـا خجـلًا أمـام كلماتـه متغاضيـة عـن كل صحائـف اللـوم المختزنـة بداخلهـا..

- ((بلوى)).

نطـق بالاسـم القديـم مجـردًا فرفعـت عينيْهـا بـروح الطفلـة الصغـيرة نحـوه وهـو يتابـع:

- أنا مبسوط أوي إني شفتك.

بادلته النظرة قائلة:

- أنا اللي مبسوطة أكتر يا بيلي.

هز رأسه وهو يتأملها، قائلًا بنبرةٍ صادقةٍ:

- شكرًا.

سـعيد أنـا بحضـورك أخـيرًا.. فـلا تحرمينـي ابتسـامة مشرقـة عـدتِ بهـا إلى صباحـي..

حـين يُراجـع تفاصيـل تلـك الفـترة في ذاكرتـه.. يجـد أن الحيـاة أعـادت لـه فيهـا ابتسـاماتٍ ظـن أنـه وأدهـا..

صادفتـه فيهـا اللحظـات المبهجـة.. فألقـت عـلى روحـه السـلام.. ومنحتـه شـعور امتنـان حفـر الطريـق مهتديًـا إلى قلبـه ومسـتقرًا فيـه..

هـا هـي ذي سـلوى قـد عـادت.. وعـاد الاهتـمام المصاحـب لحضورهـا مـن جديـد..

سـعادة تهديهـا إليـه الأيـام.. وابتسـامة قـرَّر عـدم التفريـط فيهـا..

ربمـا اختلفـت بعـض ظروفهـما.. لكـن دفئًـا كان يستشـعره سـابقًا في احتضـان كفهـا مـا زال يعـاوده في كل لمسـة يـد بينهـما عـبرا مـن جديـد بهـا الطريـق..

كل الأشياء من حوله بدت وكأنها تبارك هذه العودة..

رسـم خيالـه الوجـوه جميعهـا تبتسـم.. والشـوارع تضحـك.. والأرض مـن أسـفل خطاويهـم تتقافـز طربًـا وبهجـةً..

اتفقـا عـلى لقـاء في نهايـة كل أسـبوع.. يحـكي فيـه لهـا عـن أحوالـه.. وتحـكي لـه عـن أحوالهـا التـي بـدت مسـتقرةً لا يؤرقـه فيهـا غـير شيء واحـدٍ وقـف كحائـلٍ بـين لسـانه وقلبـه كلـما استشـعر الرغبـة في مصارحتهـا بحبـه الـذي بـات أكيـدًا فيـه..

شيء واحــدٌ منعــه مــن نطــق الإجابــة التــي طالمــا بحــث عنهــا..

الفارق الاجتماعي..

تلـك الفجـوة التـي اتسـعت بينهـما في سـنوات يـأسٍ أمضاهـا دون هدفٍ..

في فـترة افتراقهـما السـابقة.. لم تجـد هـي بديـلًا لمـا تركـه لهـا مـن فـراغٍ سـوى العمـل.. اجتهـدت فيـه وتطـورت.. بينـما أمـسى هـو مستسـلمًا خاضعًـا في عزلـةٍ بـات يلعـن فيهـا كل لحظـةٍ..

في إحـدى شركات الاتصـال هـي تعمـل عـلى تطويـر مسـتواها.. بينـما هـو لا يـزال في بقالتـه الصغـيرة يقطـع جبنًـا..

تلـك هـي غصتـه التـي كانـت تؤرقـه.. تمنعـه في لحظـات اللقـاء مـن الانجـراف..

على الخط الفاصل بين صداقتهم والحب وقف..

يسعى في صمتٍ لإيجاد الحلول..

***

"سـبعة قتـلى.. حصيلـة محاولـة الاقتحـام الفاشـلة لقسـم القـصر العينـي.."

عنـوانٌ رنـانٌ بخـطٍّ عريـضٍ عـلى صفحـات جريـدةٍ مهترئـةٍ انهمـك بيومـي في مطالعـة نصـه مكـررًا قراءتـه ربمـا للمـرة العـاشرة بعـينٍ ثابتـةٍ ووجـهٍ جامـدٍ غـير مكـترثٍ لمـا حولـه مـن ضجيـجٍ وهـو يجلـس خلـف مكتبـه الخشـبي وسـط حفنـةٍ مـن زملائـه الأمنـاء وبعـض المواطنـين في حجـرة تسـجيل المحـاضر داخـل القسـم..

يقـرأ اسـمه المكتـوب في نـص الخـبر تكريمًـا للـدور الـذي ادعـوا أنـه قـام بـه فيبتسـم ابتسـامةً مريـرةً..

كان يحفظ السطور المكتوبة عن ظهر قلب..

لا شيء من هذا حقيقي.. كل الحروف هنا تكذب..

وبمنتهى الوقاحة..

الأحداث الحقيقية ما زال يذكرها..

انتزعتـه مـن خواطـره تأوهـات مكبـل الحركـة المحـاط بمجموعـةٍ مـن المواطـنين انهالـوا عليـه بالـركل والصفعـات أمـام مكتـب زميـل يجـاوره جلـس مسـتمعًا لحديـث أحدهـم في بـرودٍ:

ـ يـا باشـا قفشـناه متلبـس بيفـك البطاريـة مـن عربيـة الراجـل الطيـب دا..

قالهـا المتحـدث مشـيرًا إلى (الراجـل الطيـب) الـذي التفـت بـدوره يكيـل لوجـه المقصـود لكمـةً أودعهـا كل القـوة والغضـب قا ئلاً :

ـ عايـز تاخـد بطاريتـي ليـه يـا ابـن الكلـب؟ إحنـا لاقيـن فلوسـنا دي في الشـارع؟

ارتـد الرجـل الملطـوم دون تـأوه إثـر اللكمـة بعقـل تفصلـه العقاقـير المخـدرة تمامًـا عـن كل مـا يُحيـط.. لا يبـدو عـلى وجهـه أي تأثـر.. في حـين هـزَّ الأمـين الجالـس أمامهـم رأسـه في هـدوءٍ وهـو يسـأل محدثـه:

ـ طـب بالراحـة كـدا وواحـدة واحـدة عليـا عشـان أفهـم قبـل مـا أفتـح المحـضر.. يعنـي هـو الراجـل سرق البطاريـة فعـلاً ولـلا كان لسـه هيسرقهـا؟

هتف الرجل وهو يصفع اللص بدوره:

ـ يـا باشـا كان بيسرقهـا يـا باشـا.. لقينـاه فاتـح الكبـوت وشـغال بيفـك فيهـا.. والـــمــ..

أشار إليه الأمين بنفاد صبرٍ، وهو يكرر:

ـ يـا عمـي أنـا عايـز إجابـة واضحـة عالسـؤال متقعـدش تحكيـلي في تفاصيـل.. البطاريـة فـين دلوقتـي؟

ابتلـع الرجـل جملتـه وتراجـع لا يفهـم المقصـد.. قبـل أن يجاوبـه ببـطء:

ـ في العربيـة لسـه.. مـا إحنـا قفشـناه قبـل مـا يفكهـا زي مـا بقـول لحضرتـك..

قلـب الأمـين كفيـه أمامهـم فـوق بعضهـما البعـض وهـو يقـول:

- طـب يـا عمـي لا حـول ولا قـوة إلا باللـه.. يعنـي إنتـوا الحمـد للـه ربنـا كرمكـوا والبطاريـة مراحتـش.. جاينـلي تعملـوا محـضر عـلى إيـه بقـى؟

تدخل آخر في عدم استيعاب يتساءل:

ـ لا مؤاخـذة يـا باشـا إيـه الـلي حضرتـك بتقولـه دا بـس عشـان إحنـا مـش فاهمـين؟

هـم الرجـل بإجابتـه وبيومـي الجالـس جـواره يتابـع المشـهد التقليـدي في فتـورٍ قبـل أن يفتـح درجـه الخـاص ويعيـد دس الجريـدة القديمـة داخلـه ملتقطًـا مـن جوارهـا بعـض الأوراق و..

"عملت إيه في الموضوع إياه؟"

ألقـى عليـه السـؤال زميـل آخـر اقـترب جالسًـا عـلى سـطح المكتـب أمامـه فالتفـت نحـوه بعـينٍ مشـتتةٍ يسـأل:

- موضوع إيه؟

رمقه الرجل بنظرة استنكار، ثم مال نحوه موضحًا:

- موضوع المحضر يا بيومي اللي مراتك عاملاهولك.

تهرب بيومي من النظر إليه وهو يتمتم:

- متشغلش بالك.. خلاص الموضوع انتهى.

ارتفع حاجبا الرجل وهو يهتف:

- لا والله طب تمام... خلصته على إيه بقى احكيلي؟

أشـار إليـه بيومـي بكفـه في غـير اهتـمامٍ مغمغـمًا بـشيء مـن صرامـةٍ:

- أحكيلـك إيـه؟.. انتهـى وخـلاص.. يـا ريـت بقـى كل واحـد يخليـه في حالـه ومتشـغلوش بالكـوا بالموضـوع ده.. مـش حدوتـة هيـا.

تسـلل الإحـراج محـاولاً الولـوج إلى وجـه الرجـل فتصـدت لـه اللامبـالاة وهـو يقـول:

- بشـوقك يـا عـم بيومـي.. بشـوق شـوقك كـمان.. إحنـا مـش صعبـان علينـا إلا حالـك مـش أكـتر.. بـس في الأول والآخـر فعـلاً الحدوتـة كلهـا بتاعتـك.

قالهـا في امتعـاضٍ مـن غمـوض الأخـير وعنـاده الـذي منـع عنـه التسـلية قبـل أن يرحـل منصرفًـا عنـه..

لا يرغب بيومي في الحديث..

لقد منحها حقها أخيرًا..

وبرغـم وجعـه الداخـلي شـاطر الحـزن في روحـه شيء مـن رضـا..

علام كان انتظاره الطويل لعفو لا يستحقه؟

عـن أي رحمـةٍ بحـث وراهـن وهـو الـذي لم يقـدم سـوى القسـوة؟

هو ذكرى فاسدةٌ خيرٌ لها أن تُمحى..

صورةٌ شوهها في عين كليهما بيديه ولا ذنب لهما فيها..

وحـشٌ دميـمٌ لا يخـشى اليـوم سـوى نفسـه.. ولم تُكتـب لـه الجنـة..

لقد اختار بداية الطريق ولم يُفكر في نهايته..

محـاورًا ضمـيره الـذي اسـتيقظ بعـد فـوات الأوان.. تجـول صورتهـا في خيالـه وهـي جالسـة عـلى نفـس الكـرسي الخـالي أمامـه هنـا حيـث كانـت في نفـس تلـك الحجـرة يومهـا منـذ عـامٍ تنتظـره..

يسـتعيد وضـع صغيرهـما فـوق قدميهـا ممسـكًا بزجاجـة ميـاه غازيـةٍ بكلتـا يديـه يـشرب منهـا.. بينـما هـو عـلى بعـد منهـما عنـد مدخـل القسـم يرتكـب الجريمـة..

وجـوه تلوثـت قبضتـه بدمائهـا.. عيـون تباكـت بالقهـر قبـل الألم..

ثم تلك الصرخة التي انطلقت في المكان..

صرخـة مـن بـين شـفتي ابنـه سـمعها رغـم ضجيـج الصيحات مـن حوله..

هـذا الـذي خـرج بالفضـول مفلتًـا يـد والدتـه التـي اندفعت بدورهـا خلفـه مذعـورةً.. ليقفـا في منتصـف الممـر الواسـع وراءه يرتعشـان كورقتـي شـجرٍ مصفرتـين أوشـكتا عـلى توديـع غصنيهـما في فصـل خريـف..

عينـا الـبراءة المتسـعتان عـلى وجـه الصغـير لا تريـان غـير اليـد المخضبـة بالـدم..

تلـك النظـرة التـي رآهـا في عـين صغـيره مـا زال حتـى اللحظـة يذكرهـا..

تلك النظرة التي ستظل ما بقي له من العمر تؤنبه..

لقد كان هو السبب فيها..

ولا أحدُ غيره..

***

بالصدمة التي حملت بها انطلقت الدكتورة هناء مبتعدةً عن المكان..

تهبط الدرج عدوًا للأسفل يُحاول اللحاق بها فتحي..

- دكتورة هناء.. استني.

يُناديها.. فلا يجد منها أي رد..

لا تلقي لنداءاته بالاً وهي تواصل الابتعاد..

تندفع خارجةً عبر البوابة الحديدية إلى الحارة الضيقة متخطيةً، ووراءها هو، زهرة التي افترشت المدخل بوعاءٍ بلاستيكي واسعٍ أمامها انهمكت في غسل بعض من قطع الملابس القطنية فيه والتي صاحت متسائلةً:

- فيه إيه يا عم فتشحي؟ مزعل ضيوفك واللا إيه؟

لوَّح بكفه لها في عصبيةٍ متمتمًا في همسٍ وهو يواصل متابعة هناء:

- مش ناقصاكي خالص إنتي كمان.

غير آبهةٍ بنظرات المارة الذين أثار فضولهم انفعالها ولا بتلك الفراخ الصغيرة التي تدافعت متفرقةً أمام خطواتها الحادة السريعة هرولت الدكتورة هناء نحو سيارتها المستقرة عند نهاية الشارع..

يُخامرها شعورٌ بالتقزز مما رأت..

سقطة أخلاقية شانها أن شهدتها منذ لحظاتٍ.. وأوجعتها ربما أكثر من وجع كاحلها الذي التوى أسفل منها إثر خطوةٍ بكعب حذائها العالي فوق حصوةٍ صغيرةٍ على أرض الحارة غير الممهدة..

اختل توازنها وآلت للسقوط فامتدت يد فتحي تمسك بذراعها وهو يهتف في قلقٍ حقيقي:

- خلي بالك يا دكتورة.

رمقته بنظرةٍ لائمةٍ أفلتت بعدها ذراعها من بين يديه متابعةً سيرها في صعوبةٍ بقدمٍ تؤلمها متحاملةً على نفسها وهي تغمغم:

- ارجع كمل اللي كنت بتعمله إنت واللي معاك فوق.

باتت سيارتها على بُعد خطواتٍ من قدمٍ تتكيء عليها بصعوبة ومن خلفها فتحي يقول مدافعًا عن نفسه:

- بتلوميني ليه دلوقتي؟ إنتي اللي فتحتي عليهم الأوضة يا دكتورة.. شكك اللي جيتيلنا بيه هو اللي عرضك للموقف ده مش أنا.

وصلت لسيارتها في تلك اللحظة مع انتهاء جملته.. فاستندت بيدٍ على سقفها ضاغطة زر الفتح الآلي على المفتاح في يدها وهي ترد في أسى:

- للأسف أنا غلطتي مكانتش في الشك نفسه.. الغلطة إنه مكانش في أخلاقك.

قالتها وهي تمد يدها لفتح باب السيارة قبل أن تستطرد:

- للأسف يا عم فتحي.. كنت شايفاك أنضف بكتير أوي من كدا..

يا ريتني ما جيت ..

أوجعته كلماتها..

أوجعته بحق رغم إعداده لكل ما حدث..

وكأن لكنتها تسللت إلى مواطن الوجع الحقيقي فيه.. وطرقتها بالشعور الصادق..

لطالما خذل من قبلها كثيرين وقف أمام ضياعهم عاجزًا مكتوف اليدين..

بصوتٍ تملؤه المرارة عبَّر عما يجيش في صدره من أسى مغمغمًا:

- أنا صورتي مهزوزة من زمان أوي يا دكتورة.. إنتي بس اللي مكنتيش واخدة بالك.

التفتت نحوه..

نظراتٌ تجمع اللوم والأسى صامتةً امتدت بين أعينهم فهمت خلالها عن أي شيء يتحدث.. وأي الأمور قصدها في كلماته وهو يسألها مستطردًا:

- تفتكري اللي وقف عاجز وهو بيخسر أعز ناس على قلبه هيقدر يقولك إيه دلوقتي يرجع ثقتك فيه؟

هذا جزءٌ تعرفه عنه..

هذا الرجل تذبحه نفسٌ لوامة.. وتصمه بالذنب الأكبر في حادثةٍ محزنةٍ أفقدته والدته وابن أخيه..

بشيء من إشفاقٍ يناقض الموقف منحته إياه وجدت نفسها تتمتم:

- فرق كبير أوي يا عم فتحي بين اللي بيقف عاجز مش قادر يمنع غلط.. وبين اللي بيختار بإيده إنه يغلط.

أطرق برأسه أمامها وصمت..

هو صادقٌ في شعوره..

وهـي محققةٌ في إشـفاقها عليـه مـن وجـع الضمـير عـلى أمـرٍ رأت أنـه قـدري..

وبـين هــذا وذاك.. تابعــت التربيــت عــلى قلبــه بكلماتهــا التــي خرجــت بصــوتٍ خفيــضٍ:

- عــم فتحــي إنــت عمــرك مــا كنــت الســبب في موتهــم.. والدتــك وابــن أخــوك ماتــوا في الوقــت ده وبالطريقــة دي عشــان ربنــا كان رايدلهــم كــدا.

لحظـة مــن الشــفقة راودتهــا تجــاه الرجــل أمامهــا الــذي حمــل بــين جنبــات قلبــه ألمًــا لا يُطــاق..

وذكرى لم يعد بمقدوره وحيدًا تحملها..

***

الرابعة عصرًا.. بتوقيت القاهرة..

"طــب يتقــال إيــه بذمتــك يــا شــادية في الشــياكة الــلي شــايفنها قدامنــا دي؟"

هتــف بالعبــارة محمــود وهــو يقــف مســتندًا إلى الســور فــوق الســطح وجــواره شــادية التــي جلســت عــلى حافتــه ملتفتــةً بدورهــا نحــو بــلال الــذي أطــل عليهــم لتــوه مــن داخــل المــكان ببذلــةٍ كحليــةٍ وربــاط عنــق أحمــر أطلقــت لهــم صفــيرًا قبــل أن تجيبــه:

- لا الصراحة إنت كدا بقيت مُز آخر حاجة يا عم بلبل.

شعر الأخير بشيء من الخجل فحكَّ رأسه أمام اطرائاتهم قائلاً:

- أنا قلت بس أما أروح يكون شكلي مناسب يعني.

رفع محمود يمناه مشيرًا بإبهامه وهو يقول:

- مناسب جدًّا يا بلال.. آخر شياكة بجد.

بينما تخلت شادية عن حافة السور الجالسة عليه لتقترب منه مادة يديها إلى ربطة العنق فوق رقبته وهي تضيف:

- دا التلفزيون النهاردة هينور.. ومش بعيد نجوم كتير يغيروا.. بس خليني أغيرلك ربطة الكرافتة القديمة دي عشان الحاجات دي بتفرق مع البنات.

أسلم نفسه لها تعدل ما تراه مناسبًا في أثناء تأمله للوحة السماء الصافية التي عبر خلالها سربٌ من الطيور اختفى بعيدًا في الأفق ثم عاد بنظره نحوهم متسائلاً:

- متعرفوش أنا ليه حاسس بالخوف؟

ابتسمت هي وهي تتابع هندمته، بينما أجابه محمود مشجعًا:

ـ لأن دي سـمة النجـاح يـا بـلال.. الـلي مبيخافـش مبينجحـش يـا صديقي.

قالهـا في اللحظـة التـي أنهـت فيهـا شـادية تعديلاتهـا فوضعـت يدهـا عـلى صـدره، وهـي تُخـبره:

ـ كدا كله تمام.. ومش ناقصنا غير حبة ثقة.

دفءٌ ما تسلل عبر كفها إلى قلبه المضطربة دقاته فهدأ..

سكونٌ شعر به في عينيها وهي تتطلع إليه مستطردةً:

ـ لما سـألتني الصبـح عـن المـاضي.. وقلتـلي هـل ممكـن يكـون في مـاضي في حياتنـا اتوجـد بـس عشـان نتحـسر عليـه.. سـاعتها أنـا معرفتـش أرد.. بـس دلوقتـي أنـا عنـدي رد ومقتنعـة بيـه جـدًّ كـمان.

رمقها بنظرة تساؤلٍ، فتابعت:

ـ الـلي اكتشـفته وشـفته الشـوية الـلي قعدتهـم معاكـوا دول فهمـوني حاجـات أكـتر مالـلي كنـت فاكـرة إني فهمتهـا..

أنـا عايـزة أقولـك بجـد إن مفيـش مـاضي اتعـاش مـن غـير هـدف..

حتـى لـو كان كئيـب.. فجمالـه في إنـه علمنـا.. قوانـا.. والأجمـل المسـاحة الـلي خلانـا نغلـط فيهـا عشـان نتعلـم منكـررش نفـس الغلـط دا تـاني النهـاردة..

فهمتني يا عم بلال؟

سألته في نهاية جملتها فلم يجب..

فقط رمق محمود بنظرةٍ ممتنةٍ طويلةٍ تمتم في آخرها:

- أول حاجة مفيدة في حياتك تعملها إنك عرفتني عالشخصية العجيبة دي.

ضحك له محمود وهو يمد يده له مصافحًا قبل الرحيل مع قوله:

- سبحان مغير الأحوال.

تجاهل بلال يد صديقه الممدودة قليلاً وهو يضع يده في جيبه باحثًا عن شيء ما لم يلبث أن أخرجها به ليضعه في كف شادية الواقفة بينهم وعلى وجهها أمارات الرضا..

نظرت إليه في يدها تتبينه قبل أن ترفع عينيْها نحوه مرةً أخرى في استغرابٍ مغمغمةً:

- إيه دي؟ خمسة جنيه قديمة؟

بادلها محمود التعجب وهو يرمق ورقة الخمسة جنيهات المهترئة بين يديها ملتفتًا معها نحو بلال الذي ابتسم في هدوءٍ وهو يقول:

ـ مش أي خمسة جنيه.. دي أغلى خمسه جنيه خدتها في حياتي.. تستاهلي يا شادية إنك تخليها معاكي من النهاردة.

لم تبدد كلماته أثر العجب المرتسم فوق وجوههم فاتسعت الابتسامة فوق وجهه أكثر وهو يستطرد:

ـ أما تشوفوا الحلقة النهاردة هتفهموا.

قالها ثم مد يده أخيرًا يصافح محمود الذي شد على كفيه قائلاً:

ـ يلا انطلق.. اتكلم بثقة.. واستنى مني الإشارة.

ظلت كلماتهم المشجعة في نهاية اللقاء تصاحبه طوال الطريق الذي قطعه إلى ماسبيرو حتى وصل..

ساعة في السير أمضاها يتهادى بين الشوارع والذكرى..

أنيق هو كالأيام الخوالي بحُلته الكحلية التي وقف بها أخيراً أمام المبني العريق للحظة.. جالت برأسه فيها الخواطر فاصطحبها معه وهو يعبر خطوته المفتقدة منذ سنين إلى داخل المكان..

يُخرج بطاقته الشخصية التي تناولها منه أحد رجال الاستقبال مطالعًا ما عليها من بيانات قبل أن يشير إليه قائلاً:

ـ أستاذ بلال أهلاً بحضرتك.. الدور الثامن عاليمين.

اتبع إشارة الرجل وهو في غير الحاجة لها..

هذا هو المكان المفعم بالذكريات..

لقد حفظ كل ركن فيه.. ارتاد كل جنباته ذات يوم.. ربما أشياء كثيرة فيه تغيرت.. ووجوه أكثر اختلفت.. لكنه وبرغم كل شيء يبدو له مألوفًا..

وكأن السنين لم تغير في جدرانه شيئًا سوى العابرين أمامها..

وقف أمام طابور المصعد مع حشد الواقفين ثم استقله معهم إلى طابقه المنشود..

وصل فخرج منه منحنيًا يؤكد على التماعة حذائه بمنديلٍ صغيرٍ في يده ألقى به داخل إحدى سلال المهملات قبل أن تستقبله بنظرةٍ مرحبةٍ تلك الإعلامية الشابة التي اقتربت نحوه هاتفةً في تساؤلٍ:

ـ حضرتك الأستاذ بلال مرزوق.. صح كدا؟

عاجلها صوتٌ جَهْوَرِيٌّ من خلفها لشخصٍ اقترب بدوره من بلال قبل أن يربت على كتفه في مرحٍ:

ـ بلال مرزوووووووووووووق.. يا ابن الإيه شكلك متغيرش.. لسه زي ما انت مفيش إلا شعرك اللي خف شوية دا بس..

واحشني يا عم إنت.

نظر بلال نحوه محاولاً تذكره دون جدوى.. فأسرع التاني يخبره بنفس المرح:

- متحاولش.. مش هتعرفني.

أنا كمال البنداري.. كنت في فريق إخراج برنامجك القديم.. والنهاردة مخرج البرنامج اللي سيادتك هتنورنا فيه ياصانع الضحكة يا جامد.

ابتسم له بلال متعجبًا كم الاختلاف الذي طرأ على ملامحه.. وببطء تكلم:

- كمال؟ إزيك عامل إيه؟

ربت فوق كتفه الرجل مرةً أخرى وهو يسير به دفعًا داخل الممر في اتجاه الأستوديو قائلًا بنفس طريقته المبتهجة المتعجلة:

- والله بخير الحمد لله وتمام.. كله تمام.. إنت اللي عامل إيه في الدنيا؟.. بص إحنا لينا قعدة طويلة بإذن الله بعد الحلقة اللي هتكسر الدنيا دي يا ضيفي العزيز.

نسيت صحيح أعرفك بلبنى.. هي اللي هتعمل معاك اللقاء.. خليتها هي اللي تكلمك في التليفون تتفق عالحلقة عشان لما تيجي أفاجأك أنا.. ركز في الحلقة بقى مش فيها عشان أنا عارفك شقي قديم.

كان يتحـدث بـلا توقـفٍ دون أن يـترك لـه الفرصة لاسـتيعاب أو رد.. وكعـادة المخرجـين المتعجلـين دومًـا مـن أمرهـم تركـه داخـل المـكان في مواجهـة لبنـى ثـم انطلـق يتابـع تجهيـزات مـا قبـل البـدء.. في حـين ابتسـمت لبنـى في وجهـه قائلـةً:

- إن شـاء اللـه هتكـون فقـرة ممتـازة في البرنامـج النهـاردة.. ومتوتـرش نفسـك خالـص.. إحنـا أسـئلتنا بسـيطة والسـاعة معانـا هتمـر هـوا.

رمقها باستخفافٍ لم يكن يقصده وهو يقول:

- متتوتريـش إنتـي.. القعـدة دي أنـا واخـد عليهـا مـن قبـل مـا تتولـدي.

شعرت بالحرج أمام إجابته.. فاستدركت في سرعةٍ:

- أكيـد طبعًـا.. أسـتاذ كـمال حاكيلي عـن حضرتـك كل حاجة.. واداني فكـرة بـس سريعـة عـن مونولوجاتـك الـلي كانـت ماليـة الدنيـا سـاعتها.. أنـا بـس بقـول كـدا لا يكـون تغيـير الجـو بـس أو المـدة الـلي غبتهـا عـن المجـال محسسـاك بالغربـة.

حاول الابتسام في وجهها هذه المرة، وهو يرد:

- لا متخافيش.. المهارات المكتسبة لاتسقط بالتقادم.

هزت رأسها مؤيدة.. ثم أشارت إليه بالجلوس قائلةً:

- طيب اتفضل حضرتك استريح هنا والمعدة ثواني هتجيبلك ورقة الأسئلة تبص عليها قبل ما نطلع هوا.. بص أنا هبدأ فقرات الحلقة كمان نص ساعة وإنت لما يجي دورك هيبلغوك.. هنكون مع بعض الساعة ٦ بالضبط إن شاء الله.

قالتها ثم أشارت إلى أحد العاملين بالمكان الذي اقترب منه بدوره يسأل:

- تشرب حاجة يا فندم؟

أشار إليه أن لا.. ولها أن تابعي ما ستفعلينه فرحلا عنه ليستقر هو في مكانه بين العاملين فوق مقعد الانتظار..

- هانت يا بلال.. فات الكتير.

حدث بها نفسه وهو يرمق الساعة في يده بنظرةٍ عابرةٍ وعقاربها التي أشارت إلى الخامسة إلا بضع دقائق..

ها هي ذي ساعة الصفر التي انتظروها جميعًا منذ شهور..

أوشكت..

***

-٦-

السَّبَبُ السَّادِسُ لِلسَّعَادَةِ

رجْعُ ذكرى ما زالت بخيرٍ..

***

سبع سنواتٍ في غرفة السطح الضيقة عليه مرَّت..

فكر في ذلك وهو يسير عائدًا بجلبابٍ أبيض يرتديه من ساحة المسجد الكبير يتردد من خلفه صوتُ تكبيرات العيد..

رائحة البارود المتسللة عبر أنفه من أثر الألعاب النارية في أيدي صغار المنطقة لا تزعجه بقدر تلك السعادة التي راقبها في أعينهم حاسدًا يواصل طريق السير حتى الباب الحديدي المفتوح للبناية..

هو المدلل التائق لتربيتهٍ غابت عنه أَكُفها..

راوده الشعور في ضحكاتهم المحلقة وركضاتهم حول ذويهم..

وقف بهدوءٍ مستسلمٍ بدت فيه نظراته أشبه بنظرات ذلك العجل المقيد بحبلٍ عريضٍ ربطوا به رأسه في البوابة الحديدية المفتوحة تحتشد من حوله العيون الفضولية منتظرًا مصيره المحتوم..

سبع سنوات كيف أمضاها؟ وكيف غافله فيها العمر؟

هل طالت غفوته إلى هذا الحد؟

أسئلةٌ راودته وهو يقف أمام البوابة إلى جوار العجل هنا في نفس المكان الذي ودعته عنده سلوى منذ أسابيع يوم رحيلها..

علـى أعتـاب البنايـة أمامـه بعـينٍ يملؤهـا الحـزن وقفـت.. مـن ورائهـا عربـة نقـل خاصـة شرع بعـض الفاعلـين في تحميلهـا بالأثـاث اسـتعدادًا للعـزال..

قـرر أهلهـا فجـأةً ودون سـابق تحذيـر الانتقـال إلى سـكنٍ آخـر.. في منطقـةٍ أخـرى..

لم تعـد الحـارة الضيقـة ولا تلـك الشـقة القديمـة مكانًـا مناسـبًا لأوضاعهـم التـي تغـيرت..

تلك هي النهاية إذن؟..

أهكذا سترحل رفيقة صباه؟..

لم يجد حينها بداخله جرأةً لسؤالها عن السبب..

ولم تساوره رغبة سؤالها عن العنوان..

اكتفى بضم جنبات قلبه على اللهفة ليبقيها داخله..

يبدو احتفاظه بالذكرى وحدها أمرًا أفضل..

كان الحـزن المرتسـم فـوق عينيهـا عميقًـا.. ربمـا لم يكـن حزنًـا كـما ظنـه.. لكنـه احتـوى بـكل التأكيـد عـلى خـوفٍ مبهـمٍ لم تـدرك نفسـها مغـزاه..

ارتبـاكٌ يسـاورها في لحظـة توديـع مـاض بـكل مـا اعتـادت عليـه فيـه لخـوض مسـتقبلٍ مجهـولٍ في مـكانٍ آخـر..

بتنحيـةٍ لشـعوره الخـاص وقتهـا وأمـام مـا رآه في عينيهـا مـن ضعـف وجـد نفسـه يمـد يديـه مربتًـا فـوق كتفيهـا وهـو يغمغـم بنـبرةٍ خرجـت منـه مؤثـرةً مقنعـةً لـه هـو ذاتـه:

"مـع السـلامة يـا سـلوى.. ومتنسـيش ايـد ربنـا المحطوطـة عليـكي في أي مـكان هتروحيـه".

نظـرت لـه.. واحمـرار مقلتيهـا يشـيان بحاجتهـا لاحتضـان قـوي يعتـصر كل مـا فيهـا مـن مشـاعر..

قالت:

- خلي بالك من نفسك.

هزَّ رأسه أن حسنًا..

ارتعشت شفتاها وهي تسأله بصوتٍ خفيضٍ:

- هو إحنا مش هنشوف بعض تاني؟

فـرد ذراعيـه عـلى جانبـي جسـده قائـلاً بابتهـاجٍ نجـح في اصطناعـه:

- مين عارف الأيام يا سلوى مخبيالنا إيه؟

اتسـع احمـرار عينيْهـا ليشـمل الوجـه كلـه وهـي تبتسـم بطـرف شـفتيها في عتـابٍ قصـيرٍ بينهـا وبـين الذكـرى، ثـم سـألته بتلقائيتهـا المعهـودة:

- إحنا مرتبطناش ليه يا نبيل؟

كان لا يـزال مبتسـمًا أمامهـا وإن انطفـأ في عينيـه بعـض الـضي المصطنـع وهـو يتطلـع إلى الأفـق خلفهـا سـارحًا يتنهـد قبـل أن يجيـب:

- النصيب يا سلوى.

لم تجادلـه في قولـه وعيناهـا ترصـدان كل خلجاتـه ومشـاعره حتـى تلـك التـي يُخفيهـا..

فقط نظرت إليه، وقالت:

- أنا حبيتك جدًّا يا نبيل والله العظيم.

لم يعـرف مـا الـذي كتمـه حينهـا ومنعـه مـن البـوح عـن ذلـك الـذي يجيـش في صـدره..

لسببٍ ما فضَّـل الصمـت أمـام اعترافهـا متنهـدًا يلتقـط مـن الهـواء حولـه نسـمات الرضـا قبـل أن يضمهـا إليـه في حـرارة..

كان هذا عادلاً بالنسبة له إلى أقصى الحدود..

من قلب الموقف الحزين برعم سعادة ينبت..

لقـد باحـت لـه لأنهـا تعلـم في قـراره نفسـها أن لقـاءً آخـر بينهـما مـن وسـط إلهـاءات الحيـاة لـن يحـدث..

هي أخبرته لأنها لا تنوي ترك شيء خلفها بعد الرحيل..

بينما هو صمت.. ليبقى منها شيء فيه..

احتضنها بصدقٍ دعاه القلب إلى فعله.. احتضنها رغم كل المحيطين بهما في الشارع..

رغم شهقة والدتها المتفاجئة من داخل السيارة خلفهما، وهي تصيح:

- يادي الفضايح .. بتعملوا إيه يا عيال؟

رغم تهامس المارين وكل النظرات..

عناق اشتهاء شعوري التمس به منها دفئًا أخيرًا..

وهي برغم كل ما كان استسلمت له وهو يعتصرها بشيء من حنان متمتمًا:

- اوعديني تخلي بالك من نفسك يا سلوى.. وتحافظي على صورنا اللي معاكي.. عشان هيا المكان الوحيد اللي هتشوفيني فيه دايمًا مبسوط.

ثم أبعدها عن صدره وهو يمسك بكتفيها متطلعًا إلى الوجه الملائكي مستطردًا:

- متفقين؟

هزت له رأسها وهي تقول:

- أوعدك.

على هذا ودعها.. وهكذا رحلت..

كالحياة هي .. ترحل فجأة ..

لم يكن رحيلها موجعًا بقدر ما أضاف لروحه من خبراتٍ..

لحظات كتلك.. تجعلنا غير آبهين بكل ما سبقها من أحداثٍ.. غير آبهين بكل ما يتلوها..

نحن غير مسئولين عن تقصي أسباب كل ما يمر بنا في طريق العمر.. ولا عن الناتج المنتظر من ورائه..

لقد جنى ثمرة أعوام مضت في لحظة وداع لم تتجاوز الدقائق ..

صوت خوار أخيرٍ تصاعد من حنجرة العجل المذبوح استله من خواطره لأرض الواقع..

لربما بدا السكين الذي استل أحدهم بها عنقه شبيهة بذلك الاستسلام الذي استل منه سنين عمر سار فيها تحت وطأة الروتين اليومي مخدوعًا يتسلل إلى حياته التغيير عبر التجارب..

سبع سنوات مرَّت عليه مروضة نفسه العنيدة لتجعله أكثر هدوءًا وحكمةً..

سبع سنوات اعتاد فيها كل يوم العودة من عمله ليستلقي فوق سريره الصغير سارحًا حتى ينام..

نحـن نكـرر الأشـياء حتـى نعتادهـا.. والكذبـة حتـى نصدقهـا..

هذا تمامًا ما حدث معه..

وهذا ما استسلم تمامًا له..

***

"فينك يا جزمة؟"

هتفـت بالكلمـة سـماح عـبر هاتفهـا المحمـول محادثـة شـادية بصـوتٍ مرتفـعٍ حاولـت أن تعلـو بـه عـلى مـا يُحيـط بهـا مـن أصـوات زحـام في الشـارع أمـام إحـدى دور العـرض الموجـودة في منطقـة وسـط البلـد محاولـة لصقـه بأذنهـا قـدر الاسـتطاعة لاسـتقبال صـوت مجيبتهـا عـلى الجهـة الأخـرى قبـل أن تتابـع:

- مسـتنياكي أنـا والبنـات مطـرح مـا اتفقنـا بقـالي ربـع سـاعة يخـرب بيتـك وقفتـي حالنـا.

أتاهـا صـوت شـادية عـلى الجهـة الأخـرى بصـوتٍ لم تسـتطع تمييـزه مـن الضجيـج المحيـط فرفعـت صوتهـا أكـثر صائحـةً:

- مش سامعاكي.. بتقولي إيه؟

كررت شادية جملتها فصاحت سماح مستنكرةً:

- أنا مالي بالسينما؟ إحنا واقفين قدامها بس مستنيينك.

صمتت مرةً أخرى قبل أن تهتف:

- لأ معرفش خلص العرض ولا لسه.. بس اه في زحمة قدامها..

علِّي صوتك وحياة أمك شوية بس عشان سامعاكي بالعافية.

برهة أخرى من الصمت مرت قبل أن تومئ برأسها مؤكدةً:

- بقولك العرض خلص أو هيبتدي معرفش بس الدنيا زحمة هنا.. هنعمل إيه بقى؟

قالتها وأنصتت قبل أن تتسع عيناها في استنكارٍ متسائلةً عن صحة ما سمعته:

- نعم يا اختي؟ عايزة تعطلي الشارع؟

حدثتها شادية بشيءٍ ما قبل أن تتمتم بنفس الاستنكار:

- والله؟ طب أنا هعملهالك إزاي دي؟

طيب خلاص اقفلي اقفلي.. أنا هتصرف بس متتأخريش إنتي.. اقفلي.

أغلقت جوالها المحمول ملتفتةً إلى عيون الفتيات المترقبات حولها ينتظرن، وإحداهن تسألها:

- فينها البتاعة دي؟ هيا جايبانا هنا تعلقنا؟

أجابتها سماح في شرودٍ وقد سرحت بنظرها متطلعة نحو سلم دار العرض ومن أحاط به من جموعٍ:

- جاية في السكة.. بتقول قدامها تلت ساعة.. بس قالتلي عاللي هنعمله.

قالتها قبل أن تستقر عيناها على فتى وحيد يقف وسط الحشد يتابع صور الأفلام المعروضة على نوافذ الدار بحيرة الاختيار فيما بينها قبل أن تشير إلى إحداهن، قائلةً:

- تعالي إنتي معايا يا يسرا.. وانتوا خليكوا هنا مستنيين ولما أشاورلكوا قرّبوا.

تبعتها المقصودة دون ترددٍ مقتربةً معها ناحية الشاب الواقف منفردًا ليتوقفن خلفه قبل أن تميل سماح نحو أذنها هامسةً في خبثٍ:

- اعذريني بقى يا يسرا.. الشغل شغل.

وقبل أن تستوعب الفتاة مقصدها جذبت قميصها الذي ترتديه بشدةٍ مزقته ليظهر من أسفله صدرها قبل أن تدفعها بسرعة نحو الشاب الذي استفاق من حيرته على امرأةٍ تشهق مرتطمةً به شبه عاريةٍ مع صوتٍ مرتفعٍ من سماح التي صاحت:

- إيــه الــلي إنــت عملتــه دا، إنــت مجنــون؟ الحقونــا يــا جماعــة بيتحــرش بأختــي.

وفجأة.. بات الموقف مشتعلاً وسط الزحام..

دون سوابق تحذير..

***

لا تعرف ما الذي أبقاها..

أهو الفضول؟

أم أنــه الضمــير الــذي أبى عليهــا تركــه وحيــدًا بمثــل تلــك العذابــات؟..

ربما أرادت أن تسمعه..

تتســاءل فيــما بينهــا عــن الأمــر مــن داخــل ســيارتها التــي ظلــت واقفــة إلى جنــب الرصيــف كــما كانــت في تلــك الحــارة الصغيرة الضيقــة جالســة هــي داخلهــا بدافــع مــن رغبــة مبهمــة تنصــت الســمع لفتحــي الــذي جاورهــا وتكلــم..

لم يكن كلامًا عابرًا هذا الذي شاركها فيه..

كان حديــث قلــب يــئن رســم فيــه بكلماتــه لهــا مشــهد يومــه المشــئوم بــكل مــا احتــواه مــن تفاصيــل..

ترى الصورة أمامها من بين شفتيه وكأنها للتو تحدث..

تستشـعر الوجـع الـذي اعتـصر كيانـه حـين عـاد مـن عملـه إلى البيـت في فجـر تلـك الليلـة..

وترى معه أزقة كانت تخلو حينها تمامًا من البشر.. ..

الـكلاب الضالـة تنبـح مسـتقبلةً قدومـه وهـو السـائر وحـده باعتيـاد بينهـم غـير آبـهٍ..

منهك القوى بعد يوم عمل شاق في المشفى أمضاه..

يصعد في تثاقلٍ درجًا مظلمًا أنارته خيوط الشروق..

رائحة الغاز تلك.. من أين تأتيه؟

تواصل الازدياد بينما يواصل هو صعوده..

وقف أمام الباب..

الرائحـة الخانقـة يتسـلل معهـا عـبر أنفـه القلـق وهـو يمـد يـده نحـو البـاب بمفتاحـه قبـل دفعـه لينفتـح مجليًـا حقيقـة لم يتوقـع أبـدًا أن يراهـا..

كل شيء في المكان كما هو مستقر..

كل شيء ساكن..

كل شيء..

حتـى الجسـديْن المتمدديْـن فـوق الأريكـة أمامـه كانـا سـاكنين..

تحتل وجوههم زرقة يألفها فوق وجوه يراها كل يوم..

صـوت تسريـب الغـاز الآتي مـن داخـل المطبـخ واضحـًا يفـسر مصـدر الرائحـة ويحـكي كل شيء بقسـوةٍ..

لقـد وصـل متأخـرًا ليلتهـا بعـد أن نفـذ المـوت الهـادئ معهـم مهمتـه..

وصل وقد انتهى كل شيء..

كان يحـكي بمعاناة موجـوعٍ لا متنفـس لـه سـوى بعـض مـن لحظات البـوح منحتـه هـي إياهـا دون اتفـاقٍ أو قصـدٍ..

تمتمـت بعـد الصمـت الطويـل الـذي انتهـى إليـه تحـاول تهويـن الأمـر:

- اللـه يرحمها ويرحمـه يـا فتحـي.. بـس صدقنـي الموضـوع مخرجـش عـن إطـار القـدر.. حادثـة تسريـب غـاز طبيعيـة كان ممكـن تحصـل حتـى وانتـوا التلاتـة موجوديـن..

فتح عينيه.. وبصوته المبحوح تهكم مكررًا:

ـ حادثـة تسريـب غـاز.. مـا هـو دا الـلي اتكتـب عـلى تقريـر الوفـاة يـا دكتـورة.

همت بقول شيء ما فمنعها باستمرار كلماته متابعًا:

- ودا اللي كان نفسي ضميري يصدقه ولو حتى بالكدب.. بس الحقيقة إنه مش الغاز هو اللي قتلهم.. ولا ينفع يكون الشماعة اللي أعلق عليها غلطتي..

أنا اللي قتلتهم يا دكتورة.. وهيا دي الحقيقة للأسف..

أنا اللي لو مكنتش اتأخرت يومها مكانش السيناريو دا كله حصل..

لو مكنتش وعدت أمي وأنا نازل وأكدتلها إني هجيب الطلبات معايا مكانتش استنت من الأول كل ده.. ولا كانت هتضطر تنزل تعبانة بنفسها في آخر الليل عشان تجيبها...

لو مكنتش خلفت الاتفاق كنت سبتلها من الأول فرصة ترتيب الأمور..

أنا المذنب الوحيد هنا يا دكتورة.. أنا المجرم اللي قتلهم بإهماله..

تمتمت بصوتٍ خافتٍ لم يسمعه:

- ليه مُصر تقتل نفسك بإحساس ذنب على حاجة مكانتش أصلاً في إديك ؟؟.. دا قدر يا عم فتحي.

كان يتحدث وأنفاسه المحترقة تعلو على صوته الذي استمر متهدجًا يُعيد به سرد الماضي:

- عارفة يا دكتورة؟

واجعنـي أوي إن أمـي اللـه يرحمهـا وهـي بتحـضر لعزومـة تجمعنـا عليهـا.. مكانتـش تعـرف إن اجتماعنـا هيكـون عـلى صـوان عزاهـا هـي وحسـام.

تنهـدت الدكتـورة هنـاء في تأثـرٍ وهـي تقـول منزعجـةً مـن إصراره عـلى جلـد نفسـه:

- تـاني بقولـك.. دا قضـاء ربنـا وقـدره.. كلـه قضـاء وقـدر واللـه إنـت ملكـش أي يـد فيـه.

لم تنجـح كلماتهـا أمـام زفراتـه الحـارة التـي اسـتمرت جوارها لبرهــةٍ أخـرى مــن الوقــت اعتــدل بعدهــا منهيًــا الحديــث مسـتفيقًا عـلى أرقـام السـاعة الظاهـرة فـوق شاشـةٍ صغـيرةٍ في السـيارة أمامـه مغمغـمًا:

- يظهـر إن الـكلام خـدني.. بقـالي سـاعة برغـي.. أنـا آسـف عالتأخـير يـا دكتـورة.. آسـف عليـه وعـلى الإحـراج الـلي سـببتهولك فـوق..

نظرت إليه وقالت:

- مفيـش أي تأخـير.. وبالنسـبة لموضـوع الإحـراج فـا بغـض النظـر عـن عـدم احترامـي التـام للمنظـر اللي شـفته.. إلا إني أنـا الـلي اتسـببت فيـه لنفسـي لمـا اتسرعـت وفتحـت بـاب مكانـش حقـي أفتحـه.. ولا كنـت أعـرف إيـه الـلي وراه.

قالتها ثم أكملت بصدقٍ وهي تتطلع مباشرةً إلى عينيه:

- بس إنت عارف أكيد أنا إيه اللي خلاني أعمل كدا.

صمتت بعد عبارتها متنهدة قبل أن تسأله بصوتٍ خفيضٍ:

- ليه اختارتوا اليوم دا بالذات يا عم فتحي؟

صمت هو الآخر وأشاح بوجهه كأن لم يسمعها..

كان يفهم تمامًا ما تعنيه وهي تستطرد:

- هروبك مني دا ومن مكالماتي كان لازم يخليني أقلق.. وكان طبيعي أقلق أكتر لما أشوف الفيديو اللي عامله بلال.. خصوصًا في الوقت ده بعد سنة بالضبط من اللي حصل..

مكانش عندي ولا قدامي أي حل تاني غير إني أقطع الأجازة وأنزل المستشفى على أمل إني أوصل لك..

إنت يا عم فتحي سبتني مع نفسي لخوف وقلق هما اللي حركوني وكل دا بسبب حاجة عملتها في يوم عشان خاطرك.

أشار إليها بسبابته مذكرًا:

- متنسيش إن مشاعرك كمان قالتلك تعمليها.. أنا حافظك يا دكتورة.. عمرك ما بتعملي حاجة أياً كانت بدون اقتناع.

صمتت للحظةٍ بعد كلماته..

هو على حق..

لكنها حائرةً مشتتةً تسأله:

- هو أنا غلطت يومها؟

هزَّ رأسه نافيًا على الفور، وقال:

- لأ مغلطتيش.. إنتي عملتي ساعتها التصرف الصح الوحيد اللي سمحت بيه الظروف.

تنهدت وهي تقول في حسرةٍ:

- بس أنا زورت حقيقة يا عم فتحي.

- أنهي حقيقة بالضبط؟

تمتم بها في بطءٍ قبل أن يشير بسبابته عبر زجاج السيارة المغلق إلى الحارة الضيقة المطلة عليهم بالخارج متابعًا:

- بصي حواليكي كويس يا دكتورة.

نظرت إلى حيث يشير في تركيز بلا فهمٍ مدققةً في كل التفاصيل بحثًا عن المقصود..

الحارة القديمة..

جدرانٌ آلت للسقوط كحال ساكنيها العابرين هنا وهناك..

وجـوهٌ يائسـةٌ بـات الفقـر رابطًـا وحيـدًا بينهـم والعشـوائية سـمتًا اعتـادوا عليـه..

ذاك الشـحاذ المسـتند عـلى الجـدار المجـاور لهـا بخلجاتـه المهلهلـة وذقنـه الطويلـة المتسـخة بـذات لـون الأرض.. عيـونٌ صغـيرةٌ مُـشردة ترمقهـا وسـيارتها الفارهـة في شـغف واحتيـاج.. صـدى صـوت السـباب المنبعـث مـن كل ركـنٍ حتـى بـات تمييـز مصـدره أمـرًا مسـتحيلاً..

هذا ما وجدت نفسها تراه..

صورة مصغرة للجهل والفقر والمرض والهمجية..

صـورة مصغـرة لـكل مـا ترفضـه إنسـانيتها.. يغلفهـا إطـار مـن صوتـه الـذي تسـلل عـبر عقلهـا كالخـدر:

- قوليلي فين الحقيقة هنا؟

لم تلق إجابة لسؤاله لكنها فهمته..

عن أي حقيقة حقًّا تتحدث؟

وأي زيفٍ هذا الذي جاءت متحملةً عبء ذنبه؟

إيه من اللي قدامك لسه متزورش؟

إيـه مـن الـلي قدامـك في مكانـه وبشـكله الطبيعـي الـلي كان مفـروض يفضـل عليه؟

هيا دي الشوارع اللي علمونا زمان نحافظ عليها؟

هما دول العيال اللي بإديهم بكرة يشيلوا البلد؟

هـوا دا أصـلاً الوطـن الـلي وعدونـا إنـه في يـوم هيحضنـا ويقـف ورانـا ومـش هيتخـلى أبـدًا عننـا؟

صدقينـي يـا دكتـورة هنـاء.. إحنـا بقينـا في مجتمـع اتعكسـت فيـه كل الآيـات.. لـو دورتي كويـس جـواه هتلاقـي إن الحقيقـة الوحيـدة الكاملـة هيـا إن الغلـط فيـه بقـى هـو الحاجـة الوحيـدة الـلي ممكـن تكـون صـح..

تـردد صـدى كلماتـه في أذنهـا بعـد فراقهـما عـلى طـول المسـافة التـي اسـتنفذتها داخـل سـيارتها المكيفـة في طريـق العـودة إلى المنـزل..

لقد أهداها منطقًا لم تكن تمتلكه..

منحهـا منظـاره الـذي رأت عـبره الحقائـق مجـردة كـما يراهـا.. وكـما أرادهـا أن تفعـل..

نصـف منهـا لحديثـه مقتنـع.. يصاحبـه نصـف آخـر مـا زال عـلى اعتقـاده بـأن الصحيـح أمـرٌ راسـخٌ.. لا تزعزعـه ظـروفٌ أو أشـكالٌ تتغـير..

تسـتعيد بالنصفـين في مخيلتهـا صـورًا قديمـةً مـرَّ عـلى التقاطهـا عـامٌ لسـبعة قتـلى افترشـوا الأرض أمامهـا..

تحت أغطيةٍ من ورق الجرائد..

***

بحفنـةٍ مـن الأوراق رصَّهـا داخـل ملـفٍّ خـاص يمسـك بـه وقـف..

يرمق الباب الكائن أمامه ويزفر قبل طرقه في صمتٍ..

في رأسه تصولُ خواطر عليه تنحيتها قبل الولوج..

قطَّـب مـا بـين حاجبيـه مضيقًـا الخنـاق عـلى أفـكارٍ يحتويهـا عقلـه.. ويـده ترتفـع إلى المقبـض أمامـه بعـد إذنٍ مـن صاحـب المكتـب بالدخـول..

يـرى أمامـه يـاسر جالسًـا بـبروده المعتـاد خلـف المكتـب الخشـبي اللامـع داخـل الحجـرة التـي باتـت تشـبهه في برودتهـا..

وكأنمـا دلـف إلى كيانـه.. يشـعر باحتـواء الأخـير لـه رغـم تلـك النظـرة الـلا مباليـة التـي رمقـه بهـا وهـو يلملـم مـن المـكان حاجياتـه اسـتعدادًا للرحيـل، متسـائلاً دون اهتـمامٍ:

- خير يا بيومي؟ عايزني في حاجة؟

لماذا تراوده الرهبة أمام صاحب الملامح الوسيمة؟

يستشعر نطاق السلطة المحيطة به..

يستشعرها في كل شيء حولـه.. في الأثـاث المحيط.. الموسـيقى المنبعثـة.. وفي رائحـة المعطـر المتسـللة عبر أنفاسـه..

الكل هنا بالمكان طوع إشارة يده..

الكل هنا يقبع رهن نظرةٍ منه أو أمرٍ..

الكل هنا من حوله عبيدٌ وهو بينهم وحده السيد..

تـردد بـين أفـكاره للحظـةٍ.. قبـل أن يندفـع قائـلاً في حـذرٍ متوتـرٍ:

- واضح كدا إنه مش خير يا باشا.

تقارب حاجبا الرجل وهو يكرر ببطءٍ:

- مـش خـير؟.. خـش في الموضـوع يـا بيومـي السـاعة داخلـة عـلى ٦ وأنـا خـلاص بقفـل ومـاشي.. إيـه الـلي عنـدك؟

ابتلـع بيومـي ريقـه في صعوبـةٍ قبـل أن يقـترب بخطوتـين مـن الرجـل ليضـع الملـف أمامـه عـلى سـطح المكتـب مغمغـمًا:

- الموضوع يا باشا بخصوص فيديو يوتيوب.

ارتفـع حاجبـا الرجـل وهـو يرمـق بنظـره الملـف دون أن يمـد يـده نحـوه، ثـم سـأل مـرة أخـرى:

- فيديـو يوتيـوب إيـه يـا بيومـي؟ وايـه علاقتنـا احنـا بالـكلام الفـاضي ده؟ دا شـغل مباحـث الانترنـت مـش تبعنـا.

اقترب بيومي منه أكثر وهو يوضح الأمر قائلاً:

- دا يـا باشـا فيديـو اتنـشر مـن أسـبوع عـلى صفحـة اليوتيـوب.. موقـع كـدا النـاس بتنـزل عليـه فيديوهـات مصورينهـا أو متسـجلة.

في تململٍ وبزفرة حنق زفرها اندفع ياسر قائلاً:

- هو أنا بسألك عن اليوتيوب نفسه يا بيومي؟.. هات من الآخر!

هزَّ بيومي رأسه وهو يُجيب:

- صبرك عليا بس يا باشا وأنا هشرحلك كل حاجة.

أشار إليه ياسر بالمواصلة وهو يستند براحته على سطح المكتب مائلاً نحوه في اهتمامٍ لذلك التوتر البادي فوق ملامحه والانفعال الذي تابع به على الفور:

- الموقع دا نزل عليه من أسبوع فيديو لراجل أعلن أنه هيحرق نفسه قدام الناس.

رفع ياسر ذراعه بالساعة عليها يرمقها في تململٍ وهو يرفع حاجبيه في استهتارٍ قائلاً:

- والله كويس.. بوعزيزي جديد يعني وفاكرنا كمصريين هنقلب عليه الدنيا؟ هيا الناس دي مش من هنا؟

لم تستوقف بيومي تلك اللكنة الساخرة التي نطق بها الأخير عبارته وهو يستطرد:

- زي ما حضرتك خدت بالك الفكرة من غرابتها جذبت عدد كبير من المتابعين واللي اهتموا بالموضوع .. خصوصًا إن الفيديو نزل على صفحة أصلاً معروفة وعدد متابعينها كتير.

متململاً مستهينًا بالأمر كله تمتم ياسر في حنقٍ يتعجله:

- شعب زياط بطبعه.. بيجري ورا أي حاجة غريبة.. المهم.. أنا ليه حاسس إنك جي تنقللي قصة نجاح شاب على (السوشيال ميديا)؟

قالها قبل أن يستطرد في حدة:

- إنت فاضي شكلك وجي تهزر معايا هنا يا بيومي؟

تراجع بيومي إلى الوراء أمام تعنيف الرجل متمتمًا بصوتٍ مرتبكٍ:

- يا باشا أبدًا والله.. إديني فرصة بس أشرحلك الموقف للآخر.

تراجع ياسر بدوره على مقعده مستندًا بذقنه فوق راحته وهو يشير إليه هاتفًا في نفاد صبر:

- اخلص!

التقط بيومي أنفاسه، ثم قال:

- أنا مليش أي علاقة بالفيديو أصلاً ولا كنت أعرف عنه أي حاجة قبل إمبارح آخر النهار.. لما جالي هنا واحد صاحب ملك في المنطقة اسمه توفيق.. عايز يعمل محضر في ساكن عنده اسمه نبيل إبراهيم العوضي.. مأجر منه أوضه فوق السطح..

الموضوع بالنسبالي مكانش أكتر من مجرد محضر عادي من المحاضر اللي بتتقدملنا كل يوم.. مفهوش أي شيء غريب.. شاب عادي متعثر في دفع إيجار المكان اللي هو قاعد فيه وصاحب الملك مش عايز يصبر عليه..

وسط الكلام وأنا بكتب مع توفيق المحضر ذكرلي إن الشاب دا عامل فرقة مع مجموعة معاه ليهم صفحة على اليوتيوب وبيعرضوا من خلالها فيديوهات كان آخرهم الفيديو اللي حكيتلك عنه دا..

مش هكدب عليك الموضوع شدني.. اهتميت بنفسي وطلبت من الراجل يوريني الفيديو وإحنا قاعدين على موبايله.. اتفرجت عليه لقيت الأخ طالع بمكياج بلياتشو.. وبيتكلم عن فكرة الحرق دي.. استفزني إنه مطلعش بشكله الحقيقي.. خدت بياناته الكاملة وطلبت عمل كشف جنائي عنها فظهرتلي الكارثة.

تسلل شيء من القلق إلى نفس ياسر بات واضحًا في انعقاد حاجبيه ونبرة صوته التي طرأ عليها بعض تغير وهو يعتدل في مقعده أمامه مستفسرًا:

- كارثة إيه بقى؟

استطرد بيومي:

اكتشـفت إن الـواد دا ليـه سـابقة عندنـا هنـا في القسـم اتعملـت عـلى نفـس الموضـوع مـن سـنة.. محـضر تأخـير في دفـع الإيجـار برضـو.

- طلع سوابق يعني؟

تسـاءل بهـا يـاسر، فأجابـه بيومـي ببـطء بعـد أن بـات نجاحـه في اجتـذاب اهتـمام الرجـل واضحًـا عـلى ملامحـه:

- لا يـا باشـا.. مشـكلة إيجـار مـع صاحـب الملـك مقـدرش أعتـبره عـلى أساسـها سـوابق.. المشـكلة في اليـوم الـلي اتقـدم فيـه المحـضر القديـم.. لمـا راجعتـه لقيتـه هـو هـو نفـس اليـوم الـلي حصـل فيـه اقتحـام القسـم.

اعتـدل يـاسر في مقعـده مـع سـماع الجملـة وقـد ازداد انعقـاد حاجبيـه..

شـحذ حواسـه وأرهـف سـمعه أكـثر، بينـما بيومـي يسـتطرد مخرجًـا مـن الملـف المسـتقر فـوق المكتـب ورقـةً وضعهـا أمـام يـاسر أشـار إليهـا متابعًـا:

- دي ورقـة راجعتهـا، فيهـا كل أسـامي الـلي كانـوا عندنـا جـوه الحجـز يوميهـا وسـيادتك أمرتنـا نخرجهـم في صـف ورا عسـاكر الأمـن المركـزي الـلي كانـوا واقفـين سـاعتها.

قالهـا وهـو يُخـرج ورقـة أخـرى فردهـا أيضًـا أمامـه قبـل أن يكمـل:

- ودي ورقة بأسامي حالات الوفاة اللي سقطت في اليوم ده..

لو بصيت فيهم هتلاقي إن في اسم زايد في التانية مكانش مجحوز عندنا في القسم أصلاً.. مش مشكلة.. وارد دا يكون واحد من اللي كانوا بيحاولوا ينفذوا الاقتحام.. المشكلة الحقيقية واللي لفتت انتباهي إن اسم نبيل المتسجل في الورقة الأولانية مش مكتوب في لستة الوفيات على الورقة التانية.. ولا حتى موجود في قوائم المحجوزين عندنا حاليًا.. مع العلم إنه مطلعلوش بعدها أي قرار إفراج أو عفو.. ولا مشكلته مع صاحب العقار اتحلت.

في غير استيعابٍ مفعمٍ بالقلق الذي تسلل الى نفسه تبادلت عينا ياسر النظر فوق الورقتين مطالعًا ما عليهما من أسماء ثم رفعهما نحو بيومي وهو يقول:

- عايز تقول إيه؟

أجابه بيومي بانفعالٍ على الفور:

- عايز أقول إن في واحد مفقود من سنة عندك يا ياسر بيه.. حضر اللي حصل يوم الاقتحام وشاف بعنيه كل الحقيقة هيطلع كمان ساعة في فيديو قدام الآلاف.. ومحدش ضامن هيقول فيه إيه.. بس مفتكرش أبداً إن المراهنة عاللي هيقوله ممكن تكون في صالحنا.

بـدا مغـزى رسـالته في تلـك اللحظـة واضحًـا ليـاسر الـذي كاد حاجبـاه أن يلتحـما، بينـما بيومـي يؤكـد مكمـلاً :

- عشـان كـدا إحنـا لازم نلحـق الـلي اسـمه نبيـل دا قبـل مـا يصـور الفيديـو.. وبسرعـة.

نطـق بهـا وهـو يشـير بإصبعـه فـوق أولى الورقتـين عـلى اسـم نبيــل..

نبيل إبراهيم العوضي..

***

السادسة إلا عشر دقائق.. بتوقيت القاهرة..

"جاهزة يا شادية؟"

عــلى صورتهــا المنعكســة في المــرآة القديمــة أمامهــا وقفــت داخـل الحـمام الصغيرتعـدل مـن وضـع زينتهـا مسـتقبلة عبـارة فتحـي الـذي دلـف إلى المـكان لتـوه واقفًـا خلفهـا يتابعهـا في اهتـمامٍ..

وممسـكة هــي بأحمـر شـفاه مررتـه فـوق شـفتيها دون أن تلتفـت إليـه أجابـت:

- إن شـاء اللـه.. محمـود باشـا قـراني عـلى كل حاجـة.. وأنـا كلمــت البنــات مــن شــوية قلتلهــم مــن غــير تفاصيــل يعطلـوا الشـارع فـا متقلقـش هـما زمانهـم بيتعاملـو.

تنهد مومئًا برأسه قبل أن يرتفع في المكان من خلفه صوت أغنية لعمرو دياب، ابتسم وجه شادية لسماعها في المرآة قبل أن تستدير نحوه قائلةً:

- عارفاها أنا النغمة دي.. دا موبايل محمود باشا.

أومأ برأسه مرةً أخرى قبل أن يتركها متجهًا نحو محمود بالخارج والذي وجده يمسك بهاتفه المحمول يقربه من عينه محاولاً قراءة بيانات المتصل بصعوبةٍ أنقذه منها وهو يشير إليه أن هاته قائلاً:

- وريني أنا هشوفلك مين.

ناوله محمود الهاتف على الفور، فرمق شاشته قبل أن يخبره:

- نمرة غريبة.

تحفزت كل عضلةٍ من عضلات وجه الأخير عند سماعه العبارة، وهو يتمتم متلعثمًا:

- نمرة غريبة؟ تفتكر مين؟

كان في عقله احتمال اختلج له قلبه وأدركه فتحي..

أمنية ربما خشى أن يصدقها فيحبط..

هوَّن عليه فتحي الأمر ضاغطًا على زرِّ الإجابة قبل أن يستأذنه واضعًا الهاتف في صمتٍ فوق أذنه..

عـين محمـود المترقبـة تلتهمـه.. ووجهـه الجامـد لا يفصـح عـن شيء وهـو يُنصـت قبـل أن يفـتر ثغـره عـن ابتسـامةٍ واسـعةٍ بعـد أول عبـارةٍ تكلـم بهـا الطـرف الآخـر..

ابتسـامة مـدَّ بهـا يـده بالهاتـف إلى محمـود وهـو يهمـس في ابتهـاجٍ:

- كلم يا محمود.. بنتك.

وكأن الدنيا لحظتها احتوته..

وكأنـه صافـح الكـون بشـهيقٍ ملهـوفٍ مـدَّ بـه روحـه قبـل يديـه لتمسـك بالهاتـف المحمـول وتضعـه فـوق أذنـه هاتفًـا بصـوتٍ متهـدجٍ وكلمـةٍ واحـدةٍ:

- ندى؟

أتاه صوتها عبر الأثير مدغدغًا أوتار قلبه:

- وحشتني يا بابا.

بـرزت شـادية مـن الداخـل في تلـك الأثنـاء وانفتـح بـاب الغرفـة الصغـيرة مفصحًـا خلفـه عـن بيـلي بـزي المهـرج ليقـف ثلاثتهـم مـن حولـه في المـكان متابعـين ملامحـه المحمـرة انفعـالاً وصوتـه المفعـم بكـم لا حـصر لـه مـن المشـاعر جاوبهـا بـه:

- إنتـي الـلي وحشـتيني أوي يـا بنتـي.. وحشـتيني يـا نـدى.. أخبـارك إيـه يـا حبيبتـي؟ طمنينـي عليـكي عاملـة إيـه؟

لم ينتزعه عنها صوت موسيقى السيرك التي انطلقت في المكان إثر انفتاح الباب.. ولا تلك الأضواء التي تبادلت وتقاطعت داخله..

كان بوجوده كله مأخوذًا مع ضحكتها القصيرة المميزة.. وصوتها الآتي إليه ملائكيًّا يقول:

- أنا بخير يا بابا الحمد لله.. ومتصلة بيك النهاردة عشان أقولك خبر عارفة إنك هتفرح بيه معايا.

مر فتحي من أمامه عابرًا نحو بيلي مشيرًا بإغلاق الباب لإسكات الموسيقى والأضواء.. بينما محمود يُخبرها:

- أنا هفرح بأي حاجة تفرحك يا ندى.

استمرت في حديثها..

- أنا فاهمة يا بابا إنك في العموم مش راضي عني ولا عن تصرفاتي والحياة الغريبة اللي أنا حابة بحريتي أعيشها..

وعارفة ومتأكدة أوي إن ليك وجهة نظرك وتحكماتك اللي كلها نابعة من منطلق حبك وخوفك عليا.

كانت تتكلم وهو ينصت لها في حب..

ودَّ لـو أخبرهـا برضـاه عنهـا الـلا منتهـي.. وبـأن تحكماتـه وطريقتـه الحـادة في النقاشـات ورفـض الـرأي الآخـر لم تكـن أسـلوبًا صحيحًـا في تربيتـه..

ودَّ لـو أخبرهـا كيـف أنـه تعلـم الـدرس ووعـاه.. وكيـف يشـعر الآن بقيمـة كل لحظـةٍ لم يـترك فيهـا سـواء لهـا أو لوالدتهـا حريـة الاختيـار..

ودَّ الإفصـاح عـن كل ذلـك، لكنـه لم يرغـب أبـدًا في مقاطعتهـا..

كان يسـتمتع بنغمـة كل حـرف يخـرج مـن بـين شـفتيها إلى أذنـه..

تابعت:

- متفهمـة أوي إنـك كأب تفضـل تنقيـلي الكليـة الـلي أدخلهـا.. الشـغل الـلي أشـتغله.. تبقـى عايـز بنتـك تتجـوز بـدري عشـان القطـر ميفوتهـاش.. وإنـك كأب تحـب تختارلهـا عريسـها المناسـب عشـان تضمنلهـا الأمـان المـادي والاجتماعـي مـن وجهـة نظـرك..

متفهمـة كـمان إنـك تلومنـي عـلى كل لحظـة بضيعهـا مـن عمـري إنـت عايـز تلحـق تشـاركني فيهـا وتشـوف بيهـا خطـوة جديـدة في مسـار رحلتـي الـلي بـدأت أصـلاً بسـببك..

وإنك تزعل لما ممشيش عالسكة اللي إنت راسمها..

بس أنا عايزاك برضو تبقى متفهم إني ليا حرية الاختيار.. وإن عمري اللي بعيشه دا بتاعي أنا.. طالما مبعملش فيه شيء غلط أو يغضب ربنا..

أنا اخترت إني أعيش لوحدي بعيد عنك وعن ماما بعد انفصالكوا عشان كنت عارفة إن كل واحد فيكوا هيحاول يعوض نقص جواه فيا.. كل واحد فيكوا عنده حلم كان هيبقى عايز يبنيه على طريقي..

أنا مش عايزاك تكون زعلان مني.. ولا تعتبرني إنسانة عاقة وكارهة وجودك أو مش محتاجاه.

سالت العبرات على وجنتيه مع كلماتها حنينًا، فاقتربت منه شادية مربتةً على صدره وهي تغمغم بصوتٍ خفيضٍ:

- محمود باشا.

بينما تمتم هو:

- فاهم والله يا ندى.. فاهم وعارف إن معاكي حق.. صدقيني لو قلتلك إني عرفت من بدري إن تحكماتي دي كانت السبب في بعدك عني إنتي ووالدتك.. وصدقيني لو قلتلك إني برغم الوجع مقدرلكوا البعد دا ومسامحكوا عليه.

سألته مستشعرة صوته:

- بتعيط ليه طيب دلوقتي؟ هو أنا متصلة عشان أفرحك ولا عشان أخليك تزعل وتعيط كدا؟

أسرع يُجيبها بنفس الصوت:

- دي مش دموع زعل والله يا ندى.. دي دموع فرحة.. أنا بقالي شهور مسمعتش صوتك.

التقطت نفسًا عميقًا من الهواء ملأت به صدرها، ثم قالت:

- طيب بمناسبة إنك مسامح ماما برضو.. عايزاك تنزل تشتريلك بدلة حلوة كدا تكون بيضا عشان دا اللون اللي هيا بتحبه أولاً.. وثانيًا عشان تبقوا لايقين جنبي وانتوا ماسكيين إيدي ونازلين بيا السلم موديني لعريسي يوم الخميس الجاي إن شاء الله.

لم يصدق ما سمعته أذنه..

انحشرت الكلمات في حلقه واتسعت عيناه في غير استيعابٍ، أحست هي به، فضحكت مرةً أخرى مغمغمةً:

- إيه مالك يا حاج؟ هو إكمني يعني سيدة على مشارف الأربعين يبقى القطر خلاص فاتني؟ مستغرب إني هتجوز أوي كدا ليه؟

طب لعلمك بقى العريس مهندس زيك.. وشبهك برضو كدا مقفل ومتشدد في طريقة تفكيره وتعامله.. بس أنا

خليتـه يتغـير.. والنهـاردة لأول مـرة يطلـع جـزء مـن الجنـان الـلي جـواه ويعترفـلي بحبـه..

اسـمه مصطفـى يـا بابـا.. وحبيتـه عشـان شـبهك عـلى فكـرة فحاجـات كتـير أوي..

كان يسـتمع إليهـا بسـعادةٍ مندفعًـا يقـول لهـا في فرحـةٍ ليـس لهـا مثيـلٌ:

ألف مبروك يا حبيبتي.. ألف ألف مبروك..

نطقها بقلبٍ يتراقص طربًا..

وروحٍ سعيدةٍ إلى أقصى الحدود..

***

أنا في البُعد مش بعند..

ولا اخترت الفراق مهرب..

لكني فكل يوم ببعد..

بحس إن إنت بتقرب..

***

أعـزائي المشـاهدين أهـلاً وسـهلاً بيكـو في حلقـة جديـدة ويـوم جديـد مـع برنامجكـم (الليلـة في مـصر)..

زي مـا عودناكـوا دايمًـا فقراتنـا النهـاردة هتتنـوع مـا بـين سياسـة واقتصـاد وصحـة.. هنتكلـم خلالهـا عـن مواضيـع تهـم الشـارع المـصري وهـنرد فيهـا عـلى تسـاؤلات بتشـغل كل بيـت في مـصر..

عايـزة أقـول برضـو لـكل أم وسـت بيـت مصريـة جهـزي ورقـة وقلـم في إيـدك مـن دلوقتـي لأننـا مـش ناسـيينك.. نصيبك مـن فقـرات البرنامـج محفـوظ في الفقـرة النسـائية الخاصـة الـلي هنتكلـم فيهـا عـن صحـة بشرتـك وجمالهـا مـع ربـع سـاعة طبـخ هيقدملنـا فيهـا الشـيف منتـصر النهـاردة طريقـة عمـل البيكاتـا.. والحلـو معاهـا كريـم كراميـل الفراولـة..

آخـر فقراتنـا لليـوم وأطولهـا لقـاء خـاص جـدًّا مـع نجـم مـن نجـوم الكوميديـا اختفـى تمامًـا عـن السـاحة مـن سـنين ورجعلنا بمـشروع جديـد ومفاجـأة جديـدة هنكـون في انتظـار الكشـف عنهـا سـوا مـن خـلال حوارنـا الـلي أكيـد هيكـون شـيق معـاه..

فقــرات برنامجنــا الممتــدة عــلى مــدى ســاعتين بوعدكــوا أنـا الضيفـة الـلي يـارب متكونـش تقيلـة عـلى قلوبكـو (لبنـى حـرب) إنهـا هتكـون متنوعـة جـدًّا ومختلفـة جـداً ومليانـة بـكل جديـد.. فمتغـيروش المحطـة..

أشوفكم بعد الفاصل.

***

-٧-

السَّبَبُ السَّابِعُ لِلسَّعَادَةِ

بعض أحضان نلتمسُ الدفءَ منها..

***

بالقـدر الـذي اتسـعت لـه عيناه مـن الحـزن تأمـل كل شيء حوله..

يقـف في الممـر الضيـق مسـتندًا إلى بـاب حجـرة حملـت رقـمًا داخـل ذلـك المستشـفى..

يتابـع كلاً مـن فتحـي وبـلال اللذيْـن جلسـا عـلى مقاعـد الانتظـار أمامـه بوجـوهٍ تحفظـت عـلى الوجـع، وأولهـما يحتضـن شـمس التـي وقفـت بينهـما وكيـس الحلـوى في يدها لا تسـاورها رغبـة التهـام شيء منـه..

تلـك الصغـيرة السـاكتة ذات السـنوات الثـماني تستشـعر ريح الكآبـة المحلقـة فـوق رؤوس الجميـع ولا تفهـم في لحظتهـا غـير افتقـادٍ لحضـن أمهـا التـي قبعـت خلـف بـاب الغرفـة أمامهـا راقـدة فـوق فـراشٍ صغـيرٍ بـين فريـقٍ طبـي متصـل بجسـدها المنهـك عـددٌ مـن المحاليـل وأجهـزة قيـاس حيويـة..

الكل حولها يفهم.. وكذلك هو..

متجمدة فوق مقلتيه دموعٌ تُعانده وتأبى الخروج..

الزرقـة البائنـة عـلى وجـه زينـب وذلـك الوجـع الـذي رآه منـذ لحظـاتٍ في روحهـا يؤلمـه..

التقرير الطبي بين يديه يوضح له الحقيقة..

دماؤهـا التـي احتـوت نسـبةً كبـيرةً مـن المخـدر تقتلهـا.. وتقـف المحاليـل المخترقـة لأوردتهـا مثلـه عاجـزةً عـن فعـل شيء..

هـي الآن تنتهـي.. وهـو الآن يفهـم.. مؤنبًـا نفسـه بذنـب حقيقـةٍ تخـاذل في غمـرة اليـأس عـن إدراكهـا..

كيـف تركهـا عـلى مـدى مـا سـبق مـن العمـر وحيـدة تتحمـل الألم؟..

كيـف تغافـل نظـرات اسـتغاثة خجـلى صارحتـه فيهـا بـكل مـا حاكـه لهـا القـدر؟

زوج سـقط في هاويـة الإدمـان.. فقـد ضمـيره قبـل عقلـه مفسـدًا مـن حولـه كل شيء..

دسَّ لهـا عـبر الأيـام قهـرًا سُـمه وألقـى بهـا في نهايـة المطـاف مُطلقـةً عاجـزةً مـع ابنتهـا تُعـاني..

آخر نظراتها له كانت بعينٍ زائغةٍ..

وآخـر كلماتهـا مـا همسـت بـه في أذنـه مـن فـوق الفـراش قبـل دقائـق:

- أنا هموت يا نبيل.

تمتـم في غـير قـدرةٍ عـلى تكذيـب المشـهد البـادي جليًّـا أمامـه:

- متقوليش كدا يا زينب.. الدكاترة لسه بيحاولوا.. وإحنا كلنا هنا معاكي.

في صعوبة من وهنها ابتسمت.. صوتها يخرج ضعيفًا منكسرًا ببقايا بريقٍ في عينها يخبو:

- الدكاترة مش هيعرفوا يعملوا حاجة.. أنا عارفة إن دي النهاية.. ومش زعلانة عشان تعبت.

لم يلق ما يقوله لها.. فصمت.. بينما صوتها من بين أنفاسٍ مختنقةٍ ثقيلةٍ يتابع:

- شمس يا نبيل.. وصيتك شمس.. خلي بالك منها..

متسيبهاش, هيا ملهاش من بعدي غيرك..

بلاش تبعد بالحزن عنها.. خليها تعيش الحياة اللي إحنا ملحقناش نعيشها..

متطلعهاش شبهنا.. علمها تكون قوية.. وريها الفرحة اللي عمر ما ضعف ولا خوف صنعوها..

كفاية اللي ضاع يانبيل .. متلومش نفسك تاني عليه.. عيش اللي باقيلك مع شمس سيبني أمشي مرتاحة.. إنت ملكش ذنب في اللي حصللي.. أنا اللي خبيت عشان كنت خايفة أخسر.

كان بداخلـه مـرارة لا حـد لهـا وهـو يسـتمع إلى كلماتهـا التـي انبعثـت بالصـوت الواهـن الضعيـف..

يشـعر بانهيارهـا البطـيء أمامـه ويتشـبث كالمنتظريـن مـن حولـه بآخـر أمـل..

دفعـه في تلـك اللحظـة مـن ورائـه موقفًـا خواطـره انفتـاح البـاب الـذي أفصـح عـن وجـه ممرضـة حملـت عنـاء نقـل الخـبر بعبارتـين مقتضبتـين:

- البقاء لله يا جماعة.. شدوا حيلكوا.

لم يستوعب كيف استقبل خبر موتها..

لم يسـتوعب بـأي مشـاعر لمحهـا مـن فرجـة البـاب المفتـوح بـين فريـق المعالجـين المخذولـين مغطـىً وجههـا الـذي انقطعـت عنـه الأنفـاس بمـلاءة بيضـاء..

كعادتـه لم يبـك.. لا حضـن دافـئ اليـوم معـه كحضـن سـلوى يفـرغ فيـه دموعه..

فقـط أغمـض عينيـه للحظـاتٍ همـس فيهـا لروحهـا بالرحمـة..

ثـم اتجـه نحـو فتحـي الـذي غلبتـه دموعـه في تأثـرٍ قبـل بـه رأس الطفلـة الصـماء قبـل أن يمـد يـده ملتقطًـا كفهـا المرتعـش الصغير..

هذا نصيبه من الدنيا إذن.. وهذا ما آل إليه الحال..

وجعٌ مكتومٌ.. ووجه صغيرة ظن أنها لا تفهم..

مع كمٍّ من الذكرى لا نهاية له حمله معها راحلاً يبتعد عن المكان..

لم يستغرق في النوم ليلتها قدر استغراقه في ملامح شمس التي نامت على فراشه الوحيد في غرفة السطح ليلتها..

أخيرًا استسلمت مع حزنها الصامت كحزنه للنوم.. وعلى وجنتيها جفت دموع ذرفتها كرمقٍ أخيرٍ..

حاول استخدام كرسيه الخشبي الوحيد في المكان للاسترخاء.. لكن إحدى أقدامه المفقودة حالت بينه وبين ذلك فاضطر للجلوس على أرض المكان الباردة مستندًا بظهره إلى الحائط يتابع تسلل أول خيوط شمس الصباح عبر شقوق المكان فوق وجهها الحزين..

هي ما تبقت له بعد أن راح الجميع..

طفلة يتيمة وحيدة صماء.. يتعالى في قلبها ألف صراخ وصراخ.. ترقد مكتوم ألمها فيها أمامه.. ومرسوم بين ثنايا وجهها خيطٌ ممتد طويلٌ من ذكرياته التي لا تموت..

بعضٌ من أثر زينب فيها.. لها نفس العيون المحتوية..

خصلات شعرها البني المتعرج تذكره بصغيرةٍ كانت ذات يومٍ ها هنا واسمها سلوى..

لم تكن رائعة التقاسيم.. لكن ملامحها الطبيعية بعثت في نفسه راحةً من نوعٍ عجيبٍ شغلته عن كثيرٍ من الألم الماكث في ذاته..

لقد خرج بها من المستشفى دون أن ينبس ببنت شفة.. قطعا طريقهما سيرًا برغم طول المدة لم يشعرا به..

دلفا معًا عبر الباب الخشبي الصغير إلى المكان..

التعبير الذي ارتسم على وجهها في تلك اللحظة كان شبيهًا بالتعبير المرتسم على وجهه لحظة دخوله لأول مرةٍ إلى نفس المكان منذ سنوات..

تعبير هو مزج متجانس في كمه بين الخوف.. الوحدة.. والحزن..

الفارق الوحيد الذي ارتآه بين كليهما هو أنها لا تستحقه..

هذه الصغيرة لم تصنع حزنها بالاستسلام.. ولم تكن وَحْدتها سوى فرضٍ أجبرتها الحياة عليه..

هذه الصغيرة لا يرى ذنبًا لها في ما انتهى إليه الوضع.. ولا يجد مساحةً فوق وجهها الصغير المشع براءة لكل هذا الأنين..

حـدَّث بتلـك المشـاعر نفسـه وهـو يتابـع أنفاسـها التـي خرجـت هادئـةً رتيبـةً..

يـا باقيـة مـن أثـري الجميـل تبسـمي.. للحـزن حـق في امتـلاكي أُقـره..

أماك لا شيء تستحقين جنايته إلا الفرح..

هـذا مـا وعـد بـه شـقيقته زينـب قبـل أن ترحـل تاركـةً لـه العـالم ومـا فيـه..

هذا ما أقرَّ به وقت استلام أمانته..

وهذا ما انتوى فعله ما دامت له الأنفاس..

هـل غـاب عـن الوعـي حينهـا أم أنـه استسـلم مثلهـا للنـوم؟.. لا يـدري..

فجأة.. امتزج لديه الواقع بعالم الخيال..

وجـوهٌ عـدة رآهـا.. مشـاهد مختلفـة مـرَّت عـلى بالـه.. ووقـتٌ طويـلٌ ممتـدٌّ مـدت في نهايتـه الشـمس شـعاعًا مـن ضي الصبـح عـلى وجهـه أيقظـه..

حين صحا رآها هي الأخرى في صمتٍ تنظر إليه..

لحظاتٌ من السكون استهلكها عقله المرتبك للاستيعاب..

لم يكن كل ما مرَّ من ليلته السابقة حلمًا كما تمنى..

لقـد رحلـت بالفعـل زينـب.. تاركـةً لـه عينيْهـا المتسـعتيْن عـلى وجـهٍ صغـيرٍ ترمقانـه في حـذرٍ..

ابتسم لها رغم ما يعتمل في نفسه.. متمتمًا:

- صباح الخير يا بلوى.

هذا اللقب الذي يحبه.. وجد نفسه دون قصد يناديها به..

شيء مـا داخلـه فضَّـل مناداتهـا بالاسـم الـذي وجـده لائقًـا عليهـا.. مبهجًـا لـه..

هـي لم تسـمع حرفًـا مـما قـال.. لكـن مشـاعرها قرأتـه كـما قـرأ هـو غصتهـا التـي حالـت بينهـا وبـين الابتسـام..

برهــة أخــرى مــرَّت مــا بــين اغــروراق عينيْهــا بالدمــوع ونهوضـه هـو نحوهـا مـادًّا يـده يمسـح بهـا الدمـوع المنسـالة فـوق وجنتيهـا قبـل أن يضمهـا إلى صـدره مربتًـا..

رباه على دفقة الشعور التي انبعثت من أنفاسها إليه..

رباه على تلك اللحظة التي لم يحدد أيهما احتاجها أكثر..

دفءٌ ما تسلل حينها عبر العناق إلى قلبه..

شيء ما فيه حينها تغير..

لأول مرة في حياته يشعر بالراحة..

أكان يبكي؟.. لا يهم..

ضمَّهـا إلى صـدره أكـثر.. وعينـاه تتأمـلان جـدران المـكان الضيـق مـن حولـه..

هنـا بهجـةٌ كامنـةٌ في الجسـد الصغـير احتواهـا فانتـشرت ماحيـةً كل مسـحات حزنـه التـي طـلى حوائـط المـكان يومًـا بهـا..

لدقيقـةٍ ربمـا أو أكـثر ظـل يضمهـا مربتًـا قبـل أن يعـود متأمـلاً وجههـا مـرةً أخـرى ليجدهـا تبتسـم..

هل صادفتم وجهًا تستلهم الشمس منه شروقها؟

هل صادفتم سعادة نبتت من رحم الألم؟

هـل صادفتـم في لحظـة السـقوط طـوق نجـاة ألقـت لكـم بـه الأقـدار؟

لقد صادف هو كل هذا فيها..

كانت هي الطوق والسعادة والشروق..

هدية منحتها له الظروف..

ولن يسمح اليوم بضياعها..

أبداً..

***

- معايا وضيف فقرتنا الأطول في البرنامج النهاردة واللي هتمتد على مدى ساعة كاملة هو الفنان الكوميدي الكبير والمونولوجست اللي استمتعنا كلنا زمان بأعماله.. الأستاذ بلال مرزوق.

انتقلت الكاميرا بعد كلمات المذيعة إليه.. فابتسم بلال مطالعًا لثانيتين وجهه الذي ظهر على شاشةٍ عريضةٍ أمامه داخل الأستوديو..

شعورٌ مهيبٌ آتٍ له من الماضي نفضه عن رأسه بسرعةٍ قبل أن يغمغم في هدوءٍ:

- بشكرك على المقدمة الرقيقة دي.. وبشكر كل الجمهور اللي قاعد يتفرج عالحلقة دلوقتي.. عايز بس أنوه عن مبالغتك في المجاملة الأخيرة.. أنا متأكد إن جيل حضرتك بكل تأكيد عمرهم ما سمعوا عني.. ومش بعيد كمان يكون الجيل بتاعي أنا نفسي نسيني.

أطلقت ضحكةً قصيرةً وهي تقول:

- أعتقد إن دا تواضع زيادة من حضرتك يا أستاذ بلا.

ظلت ابتسامته الهادئة رفيقة لوجهه وهو يجيب:

- مش تواضع أبداً والله.. دي الحقيقة.. تقدري تقولي إن السبب فيها هو سوء تصرف من الأجهزة الاعلامية اللي بتهيمن عليها رؤوس الأموال والمصالح السياسية

بغض النظر عن القيم الأخلاقية أو الفنية المقدمة من خلالها.

أربكتها إجابته.. هذا الرجل يخوض مع مطلع الحوار وبشكل مباغتٍ في أمورٍ تبدو لها خطوطًا حمراء..

تراجعت في مقعدها مختلسةً لما وراء الكاميرات نظرةً إلى المخرج الذي استحثها بإشارةٍ من يده على متابعة اللقاء، فاعتدلت تتابع حوارها بشكلٍ حاولت جعله منمقًا:

- واضح حضرتك إن عندنا كلام كتير وآراء أكتر هنتداولها خلال نقاشنا اللي باين من الأول كدا إنه هيكون ثري جدًّا.. بس قبل كل ده خلينا نبدأ بالنقطتين الأهم اللي مينفعش نبدأ معاك غير بيهم..

الفنان بلال مرزوق.. يا ريت تعرفنا بنفسك وتكلمنا عن بدايتك الفنية..

اعتدل أمامها في مقعده مجترًّا بنظرته لها بعض الذكريات، ثم تكلم:

- بلال مرزوق.. من مواليد كوم الأشراف في الشرقية.. مصري من أسرةٍ متوسطةٍ.. خريج المعهد العالي للفنون المسرحية.. هاوي لفن المنولوج وتقليد الممثلين من صغري..

بدايتـي الفنيـة الحقيقيـة بعـد الدراسـة طبعـاً أنـا بعتبرهـا مقترنـة ببدايـة تقديـم فقـرة أسـبوعية خاصـة ليـا عالراديـو بعنـوان (ضحكـة ونـص).. اتقدمـت في أوائـل التمانينـات عـلى شـكل فقـرات مدتهـا ربـع سـاعة كنـا بنرصـد خلالهـا كل أسـبوع قضيـة هامـة بتشـغل الـرأي العـام وبنقترحلهـا حلـول بـس في إطـار كوميـدي سـاخر خفيـف عـلى المسـتمعين.

رفعت حاجبيْها متمتمةً في اهتمامٍ:

- جميـلٌ جـدًّا.. فكـرة أعتقـد أنهـا كانـت سـابقةً لزمانهـا في الوقـت ده.

أومأ برأسه أن نعم، متابعًا:

- بالضبـط.. وبالفعـل الفكـرة نجحـت ولاقـت مـع الوقـت اهتـمام وإعجـاب مـن نـاس كتـير جـدا لدرجـة خلـت المسـئولين سـاعتها يقولـولي بعـد عشريـن حلقـة بالعـدد إن البلـد مـش محتاجـة في الوقـت الحـالي النـوع دا مـن البرامـج.. فـا اتوقـف البرنامـج وطبعًـا بـكل بسـاطة اضطريـت أسـتنى بالجلابيـة في بيتـي انتظـارًا لليـوم الـلي ابقـى فيـه هنـا قدامـك بحـكي القصـة مـن جـوه نفـس المبنـى الـلي اتمـضى فيـه قـرار الوقـف.

صبغ إجابتـه بسـخريةٍ لاذعـةٍ جعلـت الارتبـاك يبـدو واضحًا عـلى وجههـا مـع انعقـاد لسـانها الـذي حاولـت بـه اسـتكمال

الحديث وهي تُعدل من وضع سماعات الأذن التي أتاها صوت المخرج من خلالها يقول:

- كملي الحوار يا لبنى.. حاولي تطلعيه بس برا إطار الكلام في السياسة.. مهم جدا تكملي معاه الحوار.. نسبة المشاهدة النهاردة عالية جدًّا ومش عايزين نخسرها كل دي اعلانات وفلوس.. نطي عالسؤال اللي بعده.

ابتسمت أمام الكاميرات مطلقةً ضحكةً مصطنعةً قصيرةً كست بها توترها وهي تغمغم مغيرةً دفة الحوار:

- عن الحاضر بقى عايزين نتكلم مع حضرتك شوية وهنسألك عن مشروعك الناجح جدًّا واللي مؤخرًا حقق انتشار فوق الطبيعي على صفحات اليوتيوب والسوشيال ميديا.. فيديوهات: (الباحثين عن السعادة).. ممكن حضرتك تكلمنا عن الفكرة وإزاي اتكونت ووصلت لنجاحها الكبير دا خلال الفترة القصيرة نسبيًّا دي؟

كان قد تناسى تمامًا تلك الكاميرات المنتشرة من حوله.. شعر وكأنه عاد بالزمن إلى الوراء.. جالسًا وسط الأجواء التي اعتادها..

وجد نفسه بطلاقةٍ يتحدث:

- فرقة (الباحثين عن السعادة) بدأت بفكرة مشروع بسيط جدًّا اسمه (العلاج بالضحك)..

الفكرة دي فكرة مش أنا اللي اخترعتها.. هي فكرة قديمة ومعروفة جدًّا في كتير من دول العالم.. اللي ابتكرها طبيب نفسي من أوهايو اسمه ستيف ويلسون.. واكتشف بعدها دكاترة الأعصاب إن للضحك قيمة عالية جدًّا في البقاء على قيد الحياة.. بس للأسف الفكرة دي مش منتشرة أو مش مستهلكة في أوساط مجتمعنا الشرقي والعربي..

كل الموضوع إني حاولت استغلال الفكرة دي خاصة وإني زي ما وضحتلك بعد صدور أوامر بوقف برنامجي الأبواب اتقفلت في وشي.. ومبقيتش الشخص المرغوب فيه عند أي مخرج أو صاحب برنامج.. حضرتك عارفة إن صاحب راس المال عندنا قلبه دايمًا ضعيف.. وصعب جدًّا يراهن بفلوسه على حد تحتيه خطوط حمرا.. بالتالي كان لازم أفتح لنفسي مجال جديد.. لو مش هيطلعني من الفقر فعلى الأقل يطلعني برة إطار اليأس اللي حطتني ظروفي كمصري صاحب فكر مختلف فيه.

كانت تهز رأسها في اهتمام متابعة حديثه رامقة بطرف عينها بين الحين والآخر مخرج البرنامج الذي وقف يبدو عليه التحفز لما يقال، بينما بلال بغير محاذير يتابع:

- الفكـرة في بدايتهـا كنـت شـايفها مناسـبة جـدًّا لطموحـي الضئيـل كفنـان مغمـور منبـوذ مبقالـوش أي لازمـة..

أولاً أنـا مـش هضيـف أي تكاليـف عـلى الدولـة.. ولا همثـل عـبء عـلى نظـام أو راس مـال أو جهـات خاصـة.. وثانيًـا كل التكلفـة المطلوبـة هـي المجهـود الشـخصي.

تدخلـت في الحديـث محركـة كفيهـا عـلى نحـوٍ اعتادتـه وهـي تضـع القـدم فـوق الأخـرى، قائلـة:

- ممكـن أسـتاذ بـلال حضرتـك توضـح لمشـاهدينا الفكـرة أكـتر؟

- ببسـاطة جـدًّا فكـرة العـلاج بالضحـك دي قايمـة عـلى تقديـم فقـرة ضاحكـة بسـيطة لنـزلاء المستشـفيات تحسـن مـن حالتهـم النفسـية وبالتـالي الصحيـة..

فكـرة بسـيطة جـدًّا ممكـن تميـز المستشـفى الـلي بتعملهـا وتخلـق روح جديـدة مبهجـة مختلفـة عـن روح القتامـة الـلي موجـودة أصـلاً في مستشـفياتنا.

كان يـشرح الأمـر بحماسـةٍ خطفـت جـام اهتمامهـا مـع عينيهـا اللتـيْن برقتـا في إعجـاب واندمـاج هتفـت بهـما:

- جميـل جـدًّا.. وعـلى هـذا الأسـاس بقـى كونـت المجموعـة الـلي معـاك وبدأتـوا تعملـوا صفحـة للتواصـل مـع النـاس.. مظبـوط كـدا؟

استمع في اهتمامٍ لعبارتها قبل أن يضحك لأول مرة في البرنامج وهو يجيب:

- لأ هو الموضوع في الحقيقة مبدأش بالشكل ده.. الفكرة في الأول مكانش بيشاركني فيها حد.. كنت بروح أعرضها بنفسي على إدارات المستشفيات.. منهم اللي كان بيسمعني ويهز راسه.. ومنهم اللي كان بيقوللي فوت علينا السنة الجاية في نفس المعاد.. ومنهم اللي كان بيعتبر كلامي درب من دروب المسخرة وقلة الأدب.. خاصة لما كنت بطلب منهم تخصيص مبلغ مادي كمرتب مقابل الخدمة اللي هقدمها في حال اقتنعوا بيها..

فضلت أعافر في القصة ومفقدتش الأمل من مستشفى للتانية لحد ما اتضحلي إن سبب الرفض وإن اختلفت طرقه مادي بحت..

عرفت دا من آخر مستشفى عرضت عليها الفكرة لما مديرها أصر يكرمشلي خمسه جنيه ورق ويحطها في جيبي وأنا ماشي..

عايز أقولك إن الخمسة جنيه دي بالنسبالي كانت ورقة الحظ.. لأنها دفعتني لعمل تعديل بسيط على الفكرة.. ومبقيتش أهتم بتقديم عرضي لإدارة المستشفيات قد اهتمامي بتقديمه وشرحه للعاملين اللي فيها..

تنازلت عن الهدف المادي ودي كانت تعتبر فعليًّا بالنسبالي بداية النجاح..

بدأت أروح أقعد في صالات الاستقبال جوه المستشفيات الحكومية.. أقدم عروض بسيطة بشكل مجاني.. تعجب بعض الناس وناس تانيين يستغربوها.. بس محدش فيهم كان بيعترض عليها اعتراض مباشر..

ابتدت الفكرة بنفسها مع الوقت تجتذب حواليها جمهورها والمؤمنين بيها..

لحد اليوم اللي قابلت فيه أول عضو من أعضاء الفريق..

عامل شغال في مشرحة أحد المستشفيات المعروفة اسمه فتحي..

فتحي عبد السلام..

أو خلينا نعرفه باسمه الجديد..

عم شابلن.

***

تحركت السياراتُ بطيئةً في صفٍّ واحدٍ حزينٍ خلف تلك التي حملت النعشين احترامًا..

بداخلها إلى جوارهما جلس هو.. فتحي..

لم يكـن جلوسًـا قـدر كونـه انبطاحًـا.. فـوق نعـش جثـمان والدتـه الـذي أدرك في لحظتهـا كيـف كانـت عـكازه الـذي طالما تـوكأ عليـه..

حـين وصلـت السـيارات ظهـر ذلـك اليـوم إلى المدافـن.. لم يجـد في نفسـه القـدرة عـلى النهـوض..

قدمـاه بدتـا أكـثر وهنًـا تحـت ثقـل حزنـه الكبـير.. تحامـل عليهـما يرتعشـان أسـفله.. يسـير بدفـعٍ مـن خلفـه ويـداه تقبضـان عـلى نعشـها المسـتقر فـوق أكتافهـم وكتفـه..

نعش آخر خلفهم للصغير.. يحمله آخرون..

تكبيرات متتالية قوية خاشعة.. عويل نساء..

وسـواد غطـى الأرض المقفـرة المنتظـرة تحـت الشـمس منـذ زمـنٍ سـحيقٍ..

وهو لا يتردد في أذنه غير صوتها في آخر مكالمةٍ:

- يـا ابنـي لـو مـش هتتأخـر إنـت في الشـغل مـش هنـزل للحاجـة وهسـتناك أمـا تيجـي تجيبهـالي معـاك.

لا يـرى أمامـه سـوى النـدم المطـل مـن خلـف أبـواب المقابـر كعيـونٍ ملتهبـةٍ لا تحـرق قلبًـا سـواه..

هـذا القـبر الـذي فتحـوه وحمـل مـع شـقيقه الجثامـين إليـه تطـل منـه رائحـةٌ كتلـك التـي يتنفسـها.. لـن تفارقـه..

وهـذا الظـلام الحالـك حولهـم بالأسـفل قـد وجـد مكانـه في قلبـه واسـتقر إلى الأبـد..

عجيبـة تلـك الرجفـة التي أصابتـه وهـو يحملهـا.. خفيـف وزنهـا دون روح.. والرهبـة التـي اجتاحتـه حـين وجـد نفسـه في الظـلام واقفًـا إلى جـوار مثواهـا..

هو الذي طالما رأى الموت في وجوهٍ أمامه..

هـو عامـل الثلاجـة الـذي سـاعد في تغسـيل مئـات الجثـث.. لم يشـعر يومًـا مـع إحداهـا بمثـل مـا شـعر بـه ذلـك اليـوم..

وكأن الموت أصناف..

وكأنه يختلف..

انتهت مراسم الدفن..

انتهى الدعاء.. انتهى الزحام..

خفتت أصوات العويل حتى تلاشت..

تحركت السيارات عائدةً كلها..

وبقي هو..

وحيـدًا داخـل المـكان يتأمـل الأرض التـي التهمـت أمـه للتـو تحـت ترابهـا لسـاعاتٍ...

تـأبى الدمـوع إراحتـه فـلا يبـكي.. ولا يشـعر حتـى بمـرور الوقـت.. لـولاه حـارس المقـبرة الـذي هـزَّ كتفـه قبـل غـروب الشـمس لمـا اسـتفاق..

إلى أين يذهب؟

العـزاء، قـرر أخـوه إقامتـه في البلـد وقـد رحلـوا جميعًـا وتركـوه.. هـو ليـس اجتماعيًّـا كشـقيقه.. كـما أن أهـل الأرض إن اجتمعـوا لـن يكونـوا قادريـن عـلى تعزيتـه..

البيت.. هو آخر مكانٍ يرغب هذه اللحظة في اللجوء إليه..

كان يمـشي بـلا هـدى.. تائهًـا لا يفـرق بـين وجـع سـاقيه وقلبـه.. أيهـم يؤلمـه أكـثر..

تتحادفـه الشـوارع وتلقـي بـه في نهايـة المطـاف أمـام سـور المشـفى.. مقـر عملـه.. لا.. لـن يدخلـه اليـوم أيضًـا.. كل الأماكـن تبـدو لـه خانقـةً.. والسـاعة تخطـت منتصـف الليـل.. عليـه أن يسـتريح..

جـرَّ قدميْـه بمـا تبقـى لـه فيهـما مـن قـوةٍ عابـرًا نحـو الرصيـف المقابـل حيـث تلـك المقهـى السـاهرة في هـدوءٍ..

جلـس عـلى أول مقعـدٍ صادفـه وطلـب فنجانًـا مـن القهـوة لحجـز مـكانٍ ليـس أكـثر..

"مساء الخير يا عم فتحي.. إزيك؟"

انتفض إثر الصوت الذي انبعث فجأةً من خلف أذنه.. واستدار يُطالعه وجه ذلك الطويل الذي نهض من مقعدٍ وراءه يمدُّ يده نحوه بالسلام، ثم ارتسمت على وجهه المنهك وهو يمد يده بدوره علامة استفهام قرأها الرجل الذي تابع بنفس الطريقة العفوية:

- إيه ياعم إنت نسيتني ولا إيه؟ أنا بلال.

قالها ثم سحب لنفسه بنفس العفوية كرسيًا مقابلًا للأخير جلس عليه مستطردًا:

- بلال بتاع المنولوجات.. قابلتك في المستشفى من يومين كنت جي أعرض عالإدارة عندكو فكرة مشروع يخصني.. هما للأسف متحمسوش ليه.. بس أنا مش هفقد الأمل.

لم يكن فتحي في حالٍ يُحسد عليها.. لكنه تذكر مما قال الرجل كفايته، فتمتم يُحاول الحفاظ على مستوى غير فجٍّ من الحديث:

- أهلاً أستاذ بلال.. آه افتكرت حضرتك.. معلش اعذرني.. أنا فعلاً حالي ربنا اللي يعلم بيه ومش عايز أقـ..

قاطعه الطويل بالعفوية مهتمًّا قبل أن يُكمل جملته:

- مالك؟

فنظر إليه فتحي باستهجانٍ جعله يستطرد:

- تعبـان مـن إيـه يعنـي؟ تعـب نفـسي ولـلا عضـوي؟ مـش يمكـن أقـدر أسـاعدك؟

بنظـرةٍ متململـة رمقـه.. ثـم تنهـد قبـل أن يشـيح بوجهـه عنـه متمتـمًا كمـن يُنهـي الحـوار:

- لا ولا حاجـة.. لسـه راجـع بـس مـن دفنـة أمـي وابـن أخويـا.. بسـيطة يعنــي.

- البقاء لله.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

همـس بهـا بـلال مطرقـاً رأسـه في احـترام للحـدث وصمـت للحظـاتٍ ظـل خلالهـا فتحـي مغمـض العينـين.. قبـل أن يفتحهـما مهتـمًّا إثـر زفـرةٍ حـارةٍ خرجـت مـن بـين شـفتيْ بـلال تمتـم بعدهـا وكأن أسىً تملكـه:

- حقـك تزعـل أكيـد.. بـس لعلمـك, المشـكلة مـش في الموت.. المشـكلة في الحـزن الـلي بيجـي معـاه.. لأنـه بيكتـم جوانـا أي فرصـة موجـودة فعليـاً للفرحـة.

ترقرقـت عينـا فتحـي بدمـوع حبسـها عـلى حـدود مقلتيـه وهـو يشـيح بوجهـه نحـو فنجـان القهـوة الـذي تركـه العامـل لتـوه أمامـه فـوق طاولـة معدنيـة بـدى صدئهـا واضحـاً مـن تحـت قـشرة الطـلاء الـرديء التـي دُهِنـت بهـا ثـم غمغـم:

- فرحة ايه ؟ الفرحة النهاردة ماتت خلاص.

اندفع رفيقه الدخيل قائلاً بنفس النبرة:

- أنا زيك قلت كده لما سمعت خبر موت أبويا وأمي الله يرحمهم.

شيء ما في نبرته التي تحدث بها جعلت فتحي يلتفت نحوه مرة أخرى منتظراً مابعد صمته الذي طال هوينة..

تأثراً لها ربما أو اشفاقاً عليه.. وكأنما استشعره شريكاً له في الحزن الذي اكتنفه للحظات قبل أن يدلي بما في نفسه حاكياً:

- واحد سايق عربية وراجع هو ومراته على طريق سفر في عز الليل.. الإستبن فرقع منهم.. مفروض إيه اللي كان يحصل يعني؟

انعقد حاجبا فتحي في تأثرٍ وانطلق عقله يتخيل مشهدًا لحادثٍ أليمٍ رأى فيه سيارةً تنقلب وعظامًا تتهشم و..

- مفروض إيه اللي كان يحصل لما الاستبن يفرقع مقولتليش ؟

قاطع بلال تخيله بتكرار السؤال فتعجب أن لا داعي من ذلك.. و..

- الإستبن؟

خرجت الكلمة عبر شفتيه مستنكرةً وقد التقط عقله نشاز موقعها من الإعراب.. متطلعًا إلى بلال الذي استبدل الحزن على وجهه فجأة وعلى نحو مستغرب بابتسامةٍ كبيرةٍ، وهو يقول:

ـ آه الإستبن يا سيدي.. المفروض يحصل إيه بقى؟

دون شعورٍ منه وجد الابتسامة كأنما انتقل عبقٌ منها إلى شفتيْه ضئيل فأظهرت جنبًا من أسنانه وهو يُجيب:

ـ مش هيحصل حاجة.. يقفوا عند أي بتاع كاوتش أما يوصلوا ويصلحوها.

لم يمنحه بلال الفرصة لتدارك الأمر.. على الفور أشار إليه صائحًا في ابتهاجٍ:

ـ طب خلي بالك انت بتبتسم أهو.

لم يفهم فتحي مغزى الجملة وان اقتنص شعوراً دخيلاً تسلل عبر نفسه بالهدوء والأخير يتابع:

ودا معناه ان الفرحة مبتموتش.. بس احنا اللي ساعات بنقرر نوئدها.

قالها ثم صمت ملاحظاً تأثير كلماته على الرجل قبل أن يكمل :

ـ وهيا دي بقى يا سيدي ببساطة فكرة مشروعي اللي ادارتك رفضته.. واللي محتاج فعلاً دلوقتي ناس تؤمن معايا بيه..

مشروع العلاج بالضحك.

***

السادسة وعشر دقائق.. بتوقيت القاهرة..

بخطـواتٍ مهرولـةٍ.. وقلـبٍ حمـل فيضًـا مـن المشـاعر المختلطـة.. انطلقـت شـادية تقطـع طريقهـا وسـط الأزقـةِ غـير آبهـةٍ بـكل مـا يُحيـط..

عـلى مـدى الأفـق البعيـد أمامهـا يلـوح لهـا الصخـب الـذي تبغيـه..

يقترب منها أكثر بتسارع خطوات أقدامها اللاهثة نحوه..

يزداد من حولها كلما اقتربت.

زحـامٌ ميـزت وسـطه زميلاتهـا الـلائي اسـتمررن في القيـام بدورهـم كـما يجـب ومـن حولهـم حشـد شـباب متحمـس تفاقمـت بـه الجلبـة..

الصرخـات الأنثويـة الحـادة.. والصيـاح المختلـط بلكـمات اكتالهـا البعـض لبعضهـم.. مـع أأصـوات آلات تنبيـه السـيارات التـي تكتلـت وتعطـل تمامًـا خـط سـيرها المـروري..

تلمـح عـن بعـد سـيارة الشرطـة التـي أضيئـت أنوارهـا بـين الأزرق والأحمـر وارتفـع صـوت بوقهـا عاليًـا هنـاك..

تلك التي من أجلها جاءت.. ولتعطيلها افتعلوا كل شيء..

توقفـت عـن الركـض لحظـة رؤيتهـا تتنفـس الصعـداء مطالعـة السـاعة في يدهـا..

كل شيء مُعدٌّ الآن لتدخلها..

وفي الوقت المناسب..

***

- بنتابع مع حضراتكوا حوارنا الشيق مع الأستاذ بلال مرزوق.. وكنت عايزة أسأل حضرتك سؤال يمكن جه في بالي وإحنا بنتكلم.. عن النقلة اللي طرأت على فكرة حضرتك وطورتها من مجرد فكرة بتتنفذ بشكل بسيط في المستشفيات وأوض العيانين.. لمشروع على الإنترنت وفرقة ليها اسم وصفحة خاصة على اليوتيوب بيتابعها عدد مش قليل من المعجبين.. النقلة دي يا عم بلال.. جت إزاي؟

ألقت عليه السؤال وهي تجلس على مقعدها في الأستوديو أمام الكاميرات واضعة القدم فوق الأخرى في حين أنصت لها هو باهتمامٍ أجابها بعده:

- الحقيقة أن النقلة اللي بتتكلمي عنها دي حصلت مؤخرًا.. يمكن التجهيز ليها هو اللي خد شهور.. بس الفكرة نفسها اتنفذت بشكل فعلي من شهرين تقريبًا.. الموضوع في الأول مجاش بشكل مترتب.. وللصراحة أنا مكانش ليا يد مباشرة في تطبيقه.

تابعته بحديثها قائلة:

- هو دا اللي لفت انتباهي بالضبط وخلاني أسأل حضرتك.. أعتقد إن مشروع زي دا محتاج أكثر من مجرد كونك بتعرف تضحك الناس.. عالم (السوشيال ميديا) في حد ذاته عالم الأكثر خبرة فيه هو جيل الشباب.. وتعقيداته متهيألي كونت عقبات قدامك في بداية الطريق.

هزَّ رأسه نافيًا، وهو يقول:

- مش للدرجة.. الفكرة بداية كلها بتكمن في القدرة على تمويل المشروع ماديًّا.. أنا عايز أقولك إني حتى الآن لا أفقه شيء في النقطة دي ولا أعرف لوحدي حتى أدخل على صفحتنا نفسها من غير مساعدة حد.. بس كل اللي أنا فاهمه أو أقدر أبسطلك بيه وجهة نظري هو إن الإنترنت وسيلة من وسائل الدعاية الحديثة.. زيه زي أي وسيلة إعلانية تانية كل ما اتوفرتلك فيها إمكانية الدفع للمادة اللي بتعلني عنها أيًّا كانت.. كل ما كان وصولها للمستخدم أو المستفيد أسرع وأسهل..

في البداية مش هنكر أنا وفتحي مكانتش عندنا الإمكانيات دي.. ولا الفكر دا أساسًا خاصة وإننا زي ما حضرتك نوهتي من شوية مش من الجيل اللي ممكن تيجي في باله وسيلة متطورة وحديثة للدعاية زي دي..

الفضل في الموضوع كله راجع لصديقنا المهندس ((محمود عز الدين)) اللي انضم كعضو جديد للفرقة.. وكان سبب أساسي في تحويل الفكرة لشكلها الحالي.

اندفعت تومئ برأسها وتتدخل باهتمامٍ:

- بس أنا اللي فهمته من كلامك عن المشروع إنه قائم في الأساس على مبدأ التفاعل المباشر بينكم وبين المريض.. ودا مبدأ مبتوفروش دعاية الإنترنت العامة.. فياريت توضحلنا النقطة دي وتكلمنا برضو عن ظروف انضمام المهندس محمود اللي حضرتك لسه ذاكر اسمه للفريق.

ابتسم لها بلال مستعيدًا مشهدًا قديمًا مرَّت عليه أكثر من سنة، ثم قال:

- محمود كان نزيل زي أي نزيل تاني في المستشفى جي يعمل عملية قلب مفتوح.. اتحجز لمدة قدمناله فيها عروضنا أنا وفتحي زي ما كنا بنقدمها لأي حد.. اللي حصل إنه أعجب بالفكرة وتحمس لها جدًّا.. خلال فترةٍ قصيرةٍ اتكونت بيننا علاقة صداقة اتطورت مع الوقت..

محمود بطبيعته شخصٌ مثقفٌ جدًّا ومطلع.. وهو الوحيد فينا اللي كان عنده خلفية شاركنا بيها عن الأمور

الخاصة بالنشر والإعلان الإليكتروني اتطورت بسببها فكرتنا البسيطة من مجرد عروض بتتعمل في أوض المرضى.. لفيديوهات متصورة بتتقدم على الإنترنت بشكلٍ مختلفٍ..

باختصار تقدري تقولي إن محمود في البداية كان هو الممول الوحيد والأساسي لمشروع (الباحثين عن السعادة)..

طبعاً فكرة فيديوهات (الباحثين عن السعادة) غير فكرة (العلاج بالضحك).. لأننا في الأولى تغاضينا عن مبدأ الخصوصية اللي في مشروع العلاج بالضحك وقررنا من خلالها البحث بشكلٍ أكثر شمولية عن الأسباب العامة المؤدية للسعادة..

ودا كان سبب اختيارنا للغة الفصحى اللي بنقدم بيها الحلقات واللي قصدنا منها الوصول لنطاق أكبر من الناس على امتداد العالم العربي كله..

من هنا كانت البداية..

بداية البحث عن أسباب سعادة شاملة وحقيقية..

ولكل الناس.

***

-٨-

السَّبَبُ الثَّامِنُ لِلسَّعَادَةِ

شمسٌ لأجلك أشرقتْ..

***

وهكـذا مـرَّت سـنواتٌ.. تغـيرت فيهـا الأشـكال وتبدلـت الكثـير مـن المعـالم..

كأن الحـارة تقلصـت.. فصـارت أكـثر ضيقًـا في عينيـه.. أعمـق أثـرًا في روحـه..

مدرسـته القديمـة المهجـورة التـي صـارت مكبًّـا لنفايـات أهـالي المنطقـة.. مـا زالـت برغـم مـا تراكـم مـن مخلفـاتٍ فـوق سـورها المتهـدم تُنـير قبـس ذكـرى محببـة إلى نفسـه كلـما مـرَّ جوارهـا يُعانـق كفـه كالمـاضي كفًّـا شـبيهًا بكـف سـلوى..

شمس..

تلـك التـي أطلـت.. يسـتقي بالـضي منهـا ذكـرى شـاخ لفراقهـا قلبـه.. ويسـتمد مـن دفئهـا لجوفـه المقفـر حيـاة..

لقد أعادت إليه البهجة.. وملأت فراغًا رهيبًا في ذاته..

مـشى معهـا.. ببعـض شـعيرات الشـيب في رأسـه وجسـد لا يـزال نحيـلاً رغـم انحنـاء أصابـه قبـل الأوان وهـو الـذي لم يتمـم سـنوات عمـره الأربعـين..

أفلتـت يدهـا مـن كفـه ثـم سـبقته ركضًـا بفسـتانٍ زهـري، وأكيـاسٍ تحملهـا نحـو بـاب بنايتهـم مشـيرة إليـه بعلامـات صمـت صـار يفهمهـا أن إلحـق بي..

جاوبها بضحكةٍ قصيرةٍ وهو يشير قائلاً:

- أسبقك إيه بس هو أنا فيا نفس؟!

قالها وهو يسير على مهلٍ نحوها مقتربًا قبل أن يفاجئها بقفزةٍ سريعةٍ مباغتةٍ اقترب بها منها محاولاً إمساكها فأطلقت من بين شفتيها ضحكةً بريئةً اندفعت بعدها مفلتة تصعد درجات السلم في سرعةٍ حاول أن يُجاريها..

بأنفاسٍ تتلاحق وفارق زمني متقارب وصلاً معًا إلى سطحهما..

توقفت أمام الباب تنتظره فألقى إليها بالمفتاح، وهو يقول:

- تعبتيني الله يسامحك.. مش قادر آخد نفسي..

هذا مكانهم القديم.. ككل الأشياء حوله تغيرت فيه بعض تفاصيل...

لقد أقام بألواح الخشب حول غرفته الصغيرة ما يشبه بهوًا أو صالة.. صنع له بابًا بدوره واختصها بالغرفة الصغيرة وحدها.. تكبر فيها أمامه يومًا بعد يومٍ..

الثاني عشر من أغسطس ٢٠١٤م

اليوم أتمت عامها الخامس عشر..

تقـف أمامـه والمفتـاح في يدهـا تداعـب بـه خشـب البـاب الجديـد.. اقـترب نحوهـا صاعـدًا مـا تبقـى لـه مـن درجـاتٍ، وهـو يسـأل:

بتعملي إيه يا بلوى؟

جاوبـه منهـا الصمـت.. وانهـماك في خـدش البـاب بالجـزء الحـاد مـن المفتـاح، فراقبهـا بصمـتٍ مماثـلٍ..

في البدايـة لم تبـد نقشـاتها واضحـةً.. ظـل يتابعهـا في فضـولٍ لم تلبـث أن تـراءت مـن بعـده الحـروف لعينيـه شـيئًا فـشيء..

انتهـت، فالتفتـت إليـه مبتسـمةً، تبـدو واضحـةً مـن خلـف رأسـها الكلـمات التـي حفرتهـا..

" ولو في يوم زارك وجع.. اضحك عليه.. خليك جدع ".

قرأهـا مبتسـمًا في حـين نظـرت بامتنـانٍ هـي إليـه قبـل أن تفتـح البـاب ليدلفـا معًـا إلى الداخـل..

صـوت موسـيقى سـيرك تتعـالى اختارهـا لبعـث البهجـة في المـكان.. وإضـاءات متباينـة الألـوان صنعهـا لتـدرك بهـا في أوقـات وحدتهـا حضـوره..

فضَّـت مـا في الأكيـاس أمامهـا فـوق الطاولـة البلاسـتيكية الصغـيرة داخـل المـكان.. بينـما خلـع هـو حـذاءه مسـتندًا عـلى الأريكـة الوحيـدة القابعـة في ركـنٍ منـه قبـل أن تتجـه

هي ببعض ما حملت نحو المطبخ وهو يقول مشيرًا إليها بعلاماتٍ تفهمها:

- سيبيلي أنا الفاكهة أغسلها والبيبسي أحطه يسقع.. وإنتي بقى معاكي عجينة الفطير أهي وكل اللي هتحتاجيه عشان تورينى مستواكي اتطور السنادي في عمايل الحلويات ولا لأ.

رفعت إحدى حاجبيها وهزَّت كتفيها أن سترى وهي تبدأ في الإعداد مستخدمة أدواتها المتاحة.. مبتسمة لضحكته التي استطرد بها:

- يا سلام عالثقة؟ خلي بالك دا هيكون خامس عيد ميلاد تأكليني فيه محروق.

قالها وهو يهم من مكانه لتأدية دوره السهل الذي اختاره لنفسه قبل أن يعود إلى ما تبقى من حاجيات فوق الطاولة الصغيرة ملتقطًا من بينها بضع شمعات خرج ليشعلهم بقداحته ويوزعهم في أركان السطح المتسع بخلوه ثم وقف..

يراقب شمس السماء التي احمرت استعدادًا للمغيب أمامه..

الإضاءة الطبيعية تخفت تدريجيًّا مفسحة مجال الاتساع لهالات شموعه الصغيرة..

مـا زالـت هــي في مطبخهـا الضيـق منهمكـة.. يطـل عليهـا مطمئنًـا بــين الحـين والآخـر..

لقد احتواها نبيل.. لم تشعر في وجوده يومًا بالفقد..

منحها ما لم يمنحه على مرِّ السنين لأحد..

وكأنما اختزن المشاعر على مدى العمر الطويل لأجلها..

شاركها ذكرياته.. نقل لها الماضي بكل ما فيه..

واصفًــا لحظـات فرحــه البكــر.. وليــالي تعاســة أمضاهــا وحيـدًا منـسي يطـل عـلى العـالم مـن فـوق سـطحٍ خـالٍ منعـزل.

أرادها أفضل حظًّا منه.. فصحح فيها ما لم يكن صحيحًا فيه..

وقـت في خواطـره انقـضى قبـل أن تخـرج أمامـه مـن المطبـخ بملامـح خجـلى.. تحمـل بـين يديهـا صينيـةً واسـعةً حـوت كأسـين فارغتـين وكعكـة سـاخنة محترقـة كالعـادة فضحـت أمـر احتراقها رائحـة الدخـان الخفيـف المتصاعد..

هـمَّ بإلقـاء عبـارة تهكـم لائمـة لـولا أن ارتفعـت الطرقـات المزعجـة في تلـك اللحظـة عـلى البـاب الخشـبي الخارجـي للمـكان.. تصاحبـه الموسـيقى المبهجـة ذاتهـا ونفـس الأنـوار التـي أضـاءت سـقفه فرفعـت هـي رأسـها تنظـر ثـم التفتـت نحـوه في تسـاؤلٍ أشـار إليـه وهـو يمـط شـفتيه قائـلاً:

- تلاقيهم بلال وفتحي دول.. تعالي نشوف.

هــزَّت رأســها ثــم وضعــت مــا في يدهــا فــوق الطاولــة الصغــيرة وتبعتــه..

الصمــت يُحيــط بعالمهــا وعيناهــا معلقتــان بالأنــوار التــي يـدل تقطعهـا عـلى اسـتمرار الطرقـات.. بينـما هـو يرفـع صوتـه وسـط ضجيـج الموسـيقى مناديًـا صاحـب الطرقـات القويـة:

- أيوه مين؟

أتـاه مـن الخـارج ذلـك الصـوت الأجـش الـذي ميـز صاحبـه فـور سـماعه وهـو يقـول:

- افتح يا نبيل.

التفـت لهـا أن اطمئنـي ثـم سـارع بفتـح البـاب مسـتقبلاً وجـه صاحـب البنايـة الـذي وقـف أمامـه بقامتـه القصـيرة إلى جـوار عسـكري أمـن ببذلـة مـيري بيضـاء سـند يـدًا عـلى الجـدار ويـده الأخـرى تحمـل أوراقًـا بـدا أنهـا محـضر مـا عقـد نبيـل حاجبيـه وهـو يرمقهـا بنظـرة شـك ناقـلاً بـصره بينهـا وبـين وجـه القصـير الـذي هتـف محادثًـا رفيقـه العسـكري، وهـو يشـير نحـو نبيـل:

- هــو دا نبيــل الــلي مأجــر الاوضــة.. بقالــه خمــس شــهور مــش عايــز يدفــع إيجــار المــكان الــلي قاعــد فيــه.

شــعرت شــمس بالقلــق وهــي تتابــع المشــهد أمامهــا والانزعــاج البــادي عــلى وجــه خالهــا نبيــل الــذي اســتفهم:

- في إيه يا عم توفيق؟ إيه اللي بيحصل بالضبط؟

أشاح الرجل بوجهه متحاشيًا نظراته، بينما تدخل رجل الأمن موضحًا:

- الحاج توفيق مقدم فيك محضر بيشكي فيه امتناعك عن دفع إيجار الأوضه.. والقسم بعتلك أكتر من جواب استدعا إنت مردتش عليهم.. فا يا ريت حضرتك تجهز وتتفضل معانا دلوقتي.

اتسعت عينا نبيل في دهشة قائلاً:

- بس أنا موصلنيش من القسم أي حاجة وأول مرة أسمع عن موضوع المحضر دا.

قالها ثم التفت إلى الآخر يستنكر:

- معقولة يا عم توفيق؟ هيا وصلت للمحاضر؟

لم يجبه توفيق مرة أخرى ثم التفت مستمرًّا في الشرح لعسكري الأمن وهو يشير إلى ما في يده من أوراق:

- زي مانت شايف أهو وأنا كاتب في المحضر اللي مرفق بيه رسومات المكان.. المفروض أنا مأجرله الأوضة الصغيرة دي من مساحة السطح وبيدفعلها ٣٠٠ جنيه في الشهر بس.. يا ريت تثبت دلوقتي إنه مستغل مساحة أكبر في المكان ومقفلها ومش عايز يدفع إيجارها.

عـاود نبيـل عقـد حاجبيـه ملتفتـًا نحـو شـمس التـي اضطربـت ملامحهـا مقتبسـة منـه التوتـر.. فتمتـم يُحـاول تهدئتهـا:

- متخافيش يا شمس.. متخافيش مفيش حاجة.

قالها ثم عاد بنظره مرةً أخرى للرجلين يحادثهم قائلاً:

- يـا باشـا أنـا المسـاحة الزايـدة الـلي مقفلهـا دي محـدش مـضرور بسـببها.. كل الحكايـة بـس إنــ...

قاطع صاحب البذلة الميري عبارته وهو يقول في ملل:

- أسـتاذ نبيـل بعـد إذنـك أنـا معنديـش وقـت أضيعـه.. أنـا جـي بأمـر ضبـط وإحضـار ومليـش لا في كلامـك ولا في كلام الأسـتاذ صاحـب المحـضر.. فالبـس الجزمـة حضرتـك واتفضـل معانـا وهنـاك في القسـم ابقـى قـول كل الـلي عايـز تقولـه.

قالهـا مفقـدًا نبيـل الواقـف أمامـه كل حيلـة وهـو ينقـل بـصره بـين الوجهـين أمامـه زافـرًا في ضيـق التفـت بـه مـرة أخـيرة نحـو الفتـاة التـي زادهـا القلـق شـحوبًا قبـل أن يغمغـم بصـوتٍ خفيـضٍ مشـيرًا إليهـا بيديـه:

- خليــكي هنــا إنتــي.. متقلقيــش عليــا.. هــروح مشــوار.. شــوية وراجــع.

كان يعلم أن الأمر قد يطول..

فعلها الجشع القصير..

شهور محاولاته السابقة لإنهاء العقد كانت تنذر بذلك..

الرجل كمالك عقار يطمع في إضافة طابق آخر فوق طوابق المبنى.. ولا يقف أمام طمعه مانع سواهم..

بكل تأكيد استخدم بعض علاقاته وربما أبرز حفنة من النقود أيضًا لبعض الفسدة منهم في القسم لإنهاء الأمر..

كان نبيل يفهم.. وكذلك كانت هي..

لهذا لم تصدقه..

تشبثت به متأبطة ذراعه، فأشار إليها:

- في إيه يا شمس؟.. قلتلك متقلقيش.. استنيني هنا عشان تفتحي حتى لعم بلال وفتحي اللي زمانهم جايين.. وأنا مش هتأخر.

بمواراة قلقه حدثها.. فزاد تشبثها به..

أشارت إليه بلن ترحل دوني..

تأملها لوهلة ثم وافق.. ولا يدري لأي الأسباب فعل..

ربما احتاجها معه.. وربما لم يجد في نفسه القدرة على منع الإصرار المطل من عينها..

وهكـذا.. أطفئـآ كل الشـموع.. أغلقـا المـكان معًـا.. ثـم هبطـا متجاوريـن يسـبقهما العسـكري وصاحـب البنايـة إلى حيـث انتظرتهـم سـيارة الأخـير فاسـتقلوها..

يعـاني الطريـق أمامهـم زحامًـا غـير معتـادٍ.. أضـاف لضيـق أنفاسـهم ضيقًـا جديـدًا..

"هو الشارع دا واقف كدا ليه؟.."

تمتـم بهـا توفيـق صاحـب البنايـة القصـير بعـد برهـة مـن القيـادة وهـو يتابـع الطريـق المتكـدس أمامـه، مشـيرًا بيـده إلى بائـع روبابيكيـا أتى في الاتجـاه المقابـل لـه يقـود عربـة خشـبية يجرهـا حـمار أوشـك أن يرتطـم بـه متابعًـا:

ـ حاسب يا عم هتعدي منين إنت كمان؟

نـدَّت مـن بـين شـفتي العسـكري الجالـس جنبـه ضحكـةً، ثـم قـال:

ـ الحمار يعدي من أي حتة.. متزعلوش يا حاج توفيق.

ظـل توفيـق متوتـرًا يراقـب بحـذرٍ مـرور الرجـل وحـماره في سـلامٍ محفـوفٍ بالخطـر قبـل أن يمسـح بمنديـل قـماشي عرقـه وهـو يسـأل العسـكري إلى جـواره مـرةً أخـرى:

ـ لا صحيح هو الطريق دا ماله النهاردة؟

جاوبـه الأخـير مشـعلاً سـيجارة ذات رائحـة نفـاذة نفـث دخانهـا عـبر النافـذة المفتوحـة قائـلاً:

- دول الألـتراس عامـلين قلـق وهتافـات وحاجـات مـن دي.. شـباب الثـورة بقـى يـا سـيدي.

زفر توفيق في ضيق متأففًا، وهو يُغمغم:

- مـش هنخلـص بقـى مـن ليلـة ينايـر دي؟ إحنـا بقالنـا سـنين في العـك ده.

استنشـق المجـاور نفسًـا آخـر مـن سـيجارته أخرجـه قبـل أن يـرد:

- عـادي مـا تشـغلش بالـك هتفـك في دقايـق.. في حملـة زمانهـا طلعـت مـن القسـم تلـم اللبـش دا كلـه.

هـزَّ العجـوز رأسـه في صمـتٍ رامقًـا بطـرف عينـه خلسـةً عبر مرآتـه الأماميـة أولائـك الجالسـين عـلى المقعـد الخلفـي وراءه لم يتبـادلا طـوال الطريـق حديثًـا غـير الصمـت ومسـحات مـن كـف نبيـل عـلى رأس صغيرتـه أن اطمئنـي..

سيكون كل شيء على ما يرام..

ظـل طـوال طريقهـم عـلى هـذه الحـال.. يُحـاول بالتربيـت عـلى رأسـها بـث بعـضٍ مـن الطمأنينـة التـي يفتقدهـا إلى نفسـه..

في النهايـة وصلـوا إلى وجهتهـم.. بوابـة القسـم أمامهـم دلفوا عبرهـا متضاعفًـا شـعوره الداخـلي بالقلـق وهـم يتجهـون إلى حيـث غرفـة اسـتقبال الشـكاوى التـي جلـس في غـير اكـتراث

علـى مكتبـه الخشـبي الصغـير بداخلهـا ذلـك الضخـم كـث الشـارب مرتديًـا بذلتـه الميري البيضـاء يطالـع أوراقًـا وضعهـا الحـاج توفيـق أمامـه..

كان يرفـع عينيـه بـين الحـين والآخـر إلى وجـه نبيـل الـذي وقـف متبـادلاً مـع ابنـة أختـه شـمس قلـق الترقـب والانتظـار..

يسـحب نفسًـا أخـيرًا مـن سـيجارته محليـة الصنـع نفـاذة الرائحـة قبـل أن يدهسـها بحذائـه فـوق أرضيـة المـكان..

"عليك مبلغ مستحق الدفع يا أستاذ نبيل..".

تمتـم بهـا في بـطءٍ مُحدثًـا نبيـل الـذي اندفـع يُجيبـه عـلى الفـور:

- أيـوه يـا أفنـدم عـارف.. عليـا شـهرين متأخريـن.. وطلبـت بـس مـن الحـاج توفيـق يسـتحملني شـوية لحـد مـا ربنـا يفرجهـا وهدفعلـه كل الـلي باقـي.

مـط الجالـس شـفتيه ناقـلاً بـصره في هـدوء إلى صاحـب المحـضر الـذي أشـاح بوجهـه مـرةً أخـرى عـن نبيـل مغمغـمًا:

- يـا باشـا أنـا لـو هصـبر عـلى كل واحـد لحـد مـا تتحسـن ظروفـه مـش هـأكل عيـالي.. وأنـا الصراحـة صـبرت كتـير.

هـم نبيـل بقـول شيء مـا بـتره دخـول تلـك المـرأة مـع طفلهـا ونهـوض ضخـم الجثـة لاسـتقبالهما في ترحيـبٍ ممـزوجٍ بالدهشـة، وهـو يهتـف:

- أهـلاً أهـلاً أهـلاً .. إيـه الزيـارات المفاجـأة دي؟ جنايـة بقـى والـلا جنحـة يـا فنـدم؟

ضحكـت القادمـة بدورهـا لمداعبتـه قائلـةً، بينـما الصغـير ينقـض عليـه ويحتضنـه:

- محمـد يـا سـيدي أول مـا قلتلـه إحنـا قريبـين كـدا مـن شـغل بابـا مبطلـش زن عايـز يشـوفك.. قلنـا نعـدي نسـلم قبـل مـا نسـبقك عالبيـت.

بادلهـا الابتسـام وهـو يطبـع عـلى جبـين الصغـير قُبلـة حانيـةً لم تكـن لائقـةً في عـين نبيـل مـع شـاربه الضخـم وملامحـه الجافـة القاسـية..

سـحب لهـا كرسـيًا اسـتقرت فوقـه وهـو يتابـع حديثـه في غـير اكـتراثٍ بالمحـضر ولا أصحابـه الواقفـين أمامـه:

- ها.. هتشربي ايه؟

أشـارت بيدهـا أن لاشيء في حـين تدخـل الصغـير يسـبقها طالبًـا في سرعـةٍ:

- أنا عايز بيبس يا بابا.

ضحـك مشـيرًا لأحـد زملائـه بتنفيـذ الأمـر في حـين تنحنـح الحـاج توفيـق قائـلاً:

- هـو إحنـا يـا باشـا خلصنـا المحـضر كـدا والـلا إيـه الـلي هيتـم بالضبـط؟

التفـت نحـوه يتطلـع إليـه سـارحًا بعـض اللحظـات في حـين انحنـى زميـل الضبـط والاحضـار لـه هامسًـا في أذنـه بتوصيـةٍ مـا في شـأن الرجـل رتَّـب بهـا أفـكاره قائـلاً بعقـلٍ منشـغلٍ:

- لا خلاص كدا يا حاج اتوكل إنت على الله.

ثم التفت نحو نبيل مستطردًا:

- والأسـتاذ نبيـل هيفضـل في الحجـز هنـا معانـا لحـد مـا يـاسر باشـا يرجـع مـع الحملـة ونشـوف موضوعـه هيخلص عـلى إيـه.

انقبـض قلـب نبيـل مـع كفـه فـوق يـد شـمس بقلـقٍ أدركته هـي دون أن تفهـم مـن حولهـا أي شيء..

بالإحسـاس انتقلـت إليهـا مشـاعره فنظـرت نحـوه بعـينٍ خائفـةٍ حـاول عبثًـا هـذه المـرة تهدئـة الارتيـاع فيهـا، وهـو يشـير إليهـا بيديـه قائـلاً:

- خـير يـا شـمس.. روحـي البيـت دلوقتـي مـع الحـاج توفيـق وأنـا مـش هتأخـر عليـكي بـإذن اللـه.

سـمع القصـير اسـمه فالتفـت إليـه مسـتفهمًا بينـما هـو يوضـح:

- معلش.. خدها معاك هيا مش هتعرف تروح لوحدها.

تشـبثت بذراعـه أكـثر وقـد أدركـت مـا يعنيـه بعينـين التمعـت فيهـما الدمـوع للحظـةٍ، بينـما امتـدت يـد أحـد

العساكر الموجودين بعد إشارة من الجالس تجذبه إلى خارج المكان..

خوفٌ حقيقي سيطر عليها في تلك اللحظة وهو يشير إليها متمتمًا:

- امشي إنتي يا شمس.. متخافيش الموضوع بسيط وهيخلص.

لم تصدقه..

انهمرت الدموع من مقلتيها ببكاءٍ حار وسط تنهيداتها الحارقة التي لفتت انتباه الجميع وأشفقت لها المرأة الجالسة بالمكان فمالت ناحية الضخم الذي جلس ببذلته الميري أمامها هامسةً بصوتٍ خافتٍ:

- بيومي.. البنت شكلها يقطع القلب.. متخليهم يروحوا دلوقتي مع بعض لو ينفع وابقى ابعتله في أي وقت تاني.

هزَّ رأسه بصرامةٍ أن لا..

ودون تردد.

***

"شغل السارينة يا بيومي.. إيه العطلة اللي إحنا فيها دي؟»

انطلقت العبارةُ المتوترةُ تنتزعه من ذكرياته بصوت ياسر الجالس إلى جواره داخل سيارة الشرطة الزرقاء التي حملت في صندوقها الخلفي اثنين من العساكر جلسا مستندين على كعبيْ مدفعيهما يُطالعان صف السيارات الممتد خلفهما على طول الشارع المزدحم..

في سرعةٍ امتدت يده لتنفيذ الأمر فارتفع صوت بوق النجدة عاليًا وتبادلت على سطح السيارة ألوان ما بين الأزرق والأحمر انعكست فوق زجاج السيارات المحيطة وهو يرمق بنظرةٍ مختلسةٍ وجه ياسر المفعم بالقلقٍ يُطالع ساعةً في يده أشارت عقاربها إلى السادسة والنصف قارئًا ما يحوم في عقله من خواطر..

كان رئيسه خائفًا..

عربد القلق في نفسه وتزايد مع العصبية التي خلفها الزحام من حوله..

اسمٌ واحدٌ كان يُسيطر على كل تفكيره..

نبيل إبراهيم العوضي..

"كلكس للبهايم اللي قدامك دول خلينا نعدي"

صاح بها مرةً أخرى وهو يضغط بيديه على آلة التنبيه المثبتة فوق مقود السيارة أمام بيومي بإصرارٍ مستمر..

السيارات المتوقفة من حوله تشاركه الصخب.. يجاوره بيومي الذي طالع الطريق الممتد بزحامه قبل أن يقول:

- لو فضلنا نتحرك بالعربية كدا مش هنلحق.. الظاهر إن فيه مشكلة موقفة الطريق من عند السينما.

تحركت السيارات أمامه لأمتارٍ قليلةٍ التهمتها بدورها عجلاته قبل أن تتوقف مرةً أخرى متعطشةً لمزيد..

ضرب ياسر براحته في عنفٍ ذلك السطح البلاستيكي في السيارة أمامه وهو يصرخ عبر مكبر الصوت المعلق على قائمها الجانبي:

- وسع الطريق يا ابني إنت وهو.. وسع الطريق.

انزاحت أمامه السيارات بشيءٍ من صعوبة.. مفسحةً لسيارتهم مجالاً بالكاد تمكنوا من المضي خلاله شيئًا فشيء..

العقارب تلتهم الوقت على يده.. يسبقها في التهامه قلبه الذي تسارعت دقاته قلقًا وترقبًا..

لقد فشل بجدارةٍ هذه المرة في الحفاظ على طبيعته الباردة..

كل ما فيه يرتعد..

سقط عنه قناع البرود المزيف في أول تجربةٍ له مع الخوف..

"الخوف دايمًا بيخليك تتصرف غلط"

عاجله بالكلمة في تباطؤ بيومي الذي بدى على قسماته الشرود فالتفت نحوه بحدةٍ في نفس اللحظة التي ضغط فيها الأخير على مكبح السيارة متوقفًا أمام شادية التي اندفعت بجسدها نحوهم تضرب بكفيها الزجاج الأمامي في لوعةٍ صارخةً:

- إلحقنا يا باشا.. أختي بيتحرشوا بيها في نص الشارع.

تراجع ياسر أمام اندفاعها المفاجئ، بينما لاحت ابتسامةٌ غير ملحوظةٍ على طرف شفتيْ بيومي ابتلعها في سرعةٍ قبل أن يصيح مصطنعًا تعنيفها:

- ابعدي يا بت انتي من هنا.

لم تلق بالاً لصياحه وهي على وضعها تُعيق مسارهم مستمرةً في ضرب الزجاج الأمامي بكفيها أمام ياسر الذي ارتبكت جوارحه للحظاتٍ أمام تصرفاتها..

((مفيش وقت يا باشا.. العربية كدا هتعطلنا وإحنا لازم نتحرك..))

قالها بذات النبرة العصبية بيومي ثم دفع الباب إلى جواره هابطًا من السيارة قبل أن يرفع يده عاليًا بمسدس فيها أطلق منه في الهواء طلقاتٍ متتاليةً تردد صداها عاليًا

وهـو يـصرخ بصـوتٍ هـادرٍ أجـش في تلـك الجلبـة المتلاحمـة مـن الأجسـاد أمامـه:

ـ طريق يا ولاد الكلب.

اندفعـت الحشـود راكضـةً أمـام صرخاتـه في كل اتجـاه ومـن بينهـم بعـض قائـدي السـيارات الذيـن ترجلـوا مـن سـياراتهم مبتعديـن عـن نطـاق الرصاصـات.. بينما تمـددت بعـرض الطريق أمامهـم فـوق الأرض تلـك التـي استندت برأسـها وعبـاءة ممزقـة عـلى حِجـر سـماح المولولـة تجاورهـا فتيـاتٌ أخريـاتٌ وبعـض سـيدات تعاطفـن، في حـين امتـدت يـد شـادية عـبر نافـذة السـيارة جاذبـةً ياقـة قميـص يـاسر القابـع في الداخـل وهـي تواصـل صيحاتهـا المسـتنجدة..

الوقت يمضي في عجل, والظروف من حوله تعطله..

والتوتر يجتاحه ولا يترك لحسن التصرف مجالات ..

دفـع يدهـا المتشـبثة بياقتـه بفـرط مـا فيـه مـن عصبيـةٍ ثـم هبـط مـن السـيارة بـدوره مشـيرًا إلى مسـاعديه بالخلـف الذيـن تبعـوه رافعـين أسـلحتهم يطلقـون منهـا الأعـيرة الناريـة في سـماء المـكان بـكل عنـفٍ..

ودون تفكيرٍ..

***

الخوف بيهز الصفوف.. بيشتتها.

خـوف الضعيـف دايمًـا بيخليـه يتـصرف غلـط.. بيخليـه يتهـور.. وسـاعتها بيديلـك عـلى طبـق مـن دهـب الفرصـة لأنـك تنسـفه..

***

حدسٌ ما، ما زال يؤرقها..

يُنذرها الهدوء المحيط بكارثةٍ..

يُخامرهـا شـعورُ القلـق وهـي تقـف مسـتندةً بكفهـا عـلى السـطح الرخامـي العريـض في ركـن مطبخهـا تتابـع بعـينٍ شـاردةٍ أبخـرةً تصاعـدت مـن فوهـة غلايـة المـاء المتصلـة بالقابـس الكهربـائي أمامهـا..

ينتزعهـا صـوتُ صفـير المـاء المغـلي داخلهـا مـن بعـض الـشرود فتضغـط زر الإغـلاق ثـم تصـب مـا فيهـا في كـوب الشـاي الـذي أعدتـه اسـتعدادًا لتقليبـه وهـي تفكـر..

لماذا اضطرب إحساسها إلى تلك الدرجة؟

رغم كل منطقي في حديث فتحي معها..

رغـم كل مـا رأتـه وينفـي الترتيـب لأمـر مـا.. مـا زالـت تشـعر بالقلـق..

حملـت كـوب الشـاي في يدهـا وخرجـت بـه إلى حيـث كرسـيها الهـزاز المفضـل في شرفـة المنـزل المطلـة عـلى مسـاحة واسـعة مـن النيـل..

أكـم مـن عـين ملتمعـة بانعـكاس الأضـواء تراقصـت فـوق سـطحه الممتـد تراقبهـا؟..

الصـورة وانعكاسـها فوقـه.. لوحـة ليليـة تناشـدها بالاسـترخاء..

السـيارات العابـرة وسـائقوها.. كل نوافـذ الأبـراج المضـاءة مـن حولهـا لماذا لا يستشـعر قاطنوهـا خوفًـا كهـذا الـذي تشـعر بـه؟

"توكتورا هانا"

انتزعتهـا ثانيـة مقاطعـةُ جليسـة طفلتيهـا الآسـيوية التـي دلفـت لتوهـا مـن خواطرهـا، فاسـتدارت نحوهـا بعـد رشـفةٍ مـن كـوب الشـاي قائلـة:

- نعم يا لي.. البنات ناموا؟

هـزَّت صاحبـة الجسـد الصغـير والعينـين الضيقتـين رأسـها أن لا وهـي تقـول بعربيـةٍ يُـرثى لهـا:

- بنات صغيرين مش ينامو إلا إنتي تشوفي.

عضت هناء شقتها السفلى مغمغمةً:

- وبعدين بقى في دلعهم اللي مش وقته دا؟

ثم استطردت بعد برهة تفكير وهي تنهض متجهة إليهما:

- طيب خلاص يا لي روحي إنتي أوضتك نامي.. أنا هدخل اشوفهم.

أومأت المرأة برأسها علامة الإيجاب، ثم انصرفت في حين عبرت هي الصالة معتمة الإضاءة بكوب الشاي في يدها متجهةً ناحية غرفة الأطفال قبل أن تستوقفها صورة بلال المتحركة على شاشة التلفاز الكبير مكتوم الصوت في منتصف المكان.. فأشارت بيدها إلى تلك التي لم تنصرف تمامًا قائلة:

- لي.. لحظة بعد إذنك.. ممكن تعلِّي صوت التلفزيون شوية؟

نفذت الأخيرة أمرها وانتظرت الآخر.. في حين انعقد حاجبا الدكتورة هناء وهي تستمع في تركيز إلى جزءٍ من حديث بلال الذي بات منهمكًا في الرد على سؤال لمضيفته:

"القوة برضو سبب أساسي من أسباب السعادة يا لبنى.. طبيعي جدًّا.. زيها زي الحب أوالنجاح أو غيرها من مسببات الفرح المختلفة.. إنك تملكيها دا إحساس مبهج في حد ذاته.. إنك تكوني واثقة في قدرتك على تحقيق أهداف

صغيرة متعلقة بهدف أساسي كبير دا شيء بيرفع من روحك المعنوية والنفسية لحد كبير..

القوة منحة إلهية كلنا اتميزنا بيها.. بس للأسف مش كلنا بنعرف نستغلها صح..″

زاد انعقاد حاجبيها مرهفةً السمع بكل تركيزها إلى ما تبقى من جملته..

تمتزج حروفه مع القلق المستعر بداخلها وتؤججه..

شيء ما في حديثه يُريب..

ما الأمر؟ ما الذي يقصده بالضبط؟

وما الذي يحدث؟

أشارت إلى حيث خادمتها أن التقطي كوب الشاي بما تبقى فيه.. ثم دارت على عقبيها متجهةً بخطواتٍ واسعةٍ نحو غرفتها الخاصة متناسيةً تماماً أمر طفلتيها..

دلفت إلى الداخل.. فتحت دولابها الخاص مفرغةً من رفوفه بعض الحاجيات ملتقطةً صندوقًا خشبيًّا صغيرًا معلقًا به مفتاح معدني دسته في فتحةٍ مناسبةٍ على جنبه وأدارته، فانفتح..

مدَّت يدها داخله تقلب بين الأوراق الصغيرة والبطاقات حتى التقطت مبتغاها..

ورقـة صغـيرة مطويـة فتحتهـا وتركـت عينهـا تلتهـم مـا عليهـا مـن سـطور بجـوار صـورةٍ باهتـةٍ..

تقـرأ البيانـات المكتوبـة في نهـمٍ وتركيـزٍ حتـى توقفـت عنـد جزئيـة العنـوان..

إنه نفسه..

ذات العنوان الذي التقت عنده فتحي منذ ساعات..

كيف فاتها الأمر ولم تنتبه؟..

اضيقـت حدقتاهـا وانعقـد الحاجبـان حـدَّ التلاقـي وهـي تهمـس محادثـةً نفسـها بصـوتٍ مبحـوحٍ مسـتنكرٍ:

- أنا إزاي غبية أوي كدا؟

لقد كان حدسها في محله..

كان مصدر الخوف داخلها أصيل..

ظلـت عـلى وضعهـا لثـوانٍ تُمسـك بالورقـة المهترئـة بـين يديهـا المتحفزتـين وعقلهـا تجتاحـه عواصـف تـدور بأفكارهـا كمراكـب ورقيـة وسـط دوامـاتٍ لا نهايـة لهـا..

تنهال فوق رأسها ذكريات المشهد القديم..

سـيارة الشرطـة الزرقـاء ترتـج متحركـةً في طريقهـا إلى القسـم وهــي داخلها..

يعتمـر رأسَـها تخـوف مُبهـم مـن هـذا التكليـف المفاجـئ الـذي أرسـلوه لهـا.. وإلى جنبهـا كان فتحـي يرمقهـا متمتـمًا:

- قلقانـة ليـه يـا دكتـورة؟.. عـادي دا مجـرد اسـتدعا طبيعي.. هنوصـل نعمـل التقاريـر المطلوبـة بـس وهنروح.

سألته حينها محاولةً إخفاء توترها:

- مـش قلقانـة يـا عـم فتحـي.. بـس دي أول مـرة يطلبـوني في حاجـة زي كـدا.

هز رأسه وهو يتابع الطريق ويغمغم:

- دا إجـراء طبيعـي يـا دكتـورة.. يامـا بيجيلنـا في المستشـفى اسـتدعاءات زي دي في حـوادث منهـا الـلي قتـل والـلي انتحـار والـلي حـالات تسـمم.. أي حادثـة بيبقـى فيها شـبهة جنائيـة يعنـي البوليـس بـس بيبقـى محتـاج مختصـ..

بـتر عبارتـه بغتـةً وهـو يلمـح ذلـك المنحنـي إلى جـوار فتـاةٍ منهـارةٍ عـلى الرصيـف المقابـل بـدت لـه مألوفـةً والسـيارة تعـبر بهـم مـن البوابـة الحديديـة الكبـيرة للقسـم ثـم التفـت محدثًـا السـائق في زي العسـكري إلى جـواره بعصبيـةٍ:

- نزلني هنا لو سمحت.

أربكها توتره فمدَّت يدها تمسك به قائلةً:

- رايح فين؟ خليك معايا يا عم فتحي؟

في حين أبطأ السائقُ من حركة السيارة أمام حشد العساكر المنتشرين داخل المكان قبل أن يتوقف بها تمامًا وهو يغمغم:

- إحنا وصلنا خلاص كدا كدا يا أستاذ.. اصبر لما أركن العربية.

مشيرًا لها فتحي بالتروي وهو يهبط معها إلى الخارج بعد استقرار السيارة:

- معلش يا دكتورة.. هروح بس أطمن على حاجة كدا وراجعلك فورًا.

تابعته بنظراتها الخائفة وهو يبتعد متجهًا إلى حيث أراد.. ثم التفتت بدروها تطالع ما يُحيط..

أثار العنف تبدو واضحةً رغم الهدوء الذي ساد..

رائحة الغاز الحارق ما زال أثر منها يفوح..

ما الذي حدث هنا؟

لم يمنحها الوجه الوسيم الذي اقترب منها مادًّا يده يُصافحها فرصة استبيان الأمور وهو يُعاجلها معرفًا نفسه بشيء من زهوٍ:

- النقيب ياسر رشيد.

لازالـت تذكـر ابتسـامة غـروره التـي ردتهـا بإبتسـامةً مرتبكةً وهـي ترمـق مـن خلفـه سـبعة أجسـاد ألقيـت في إهـمال عـلى الأرض تغطيهـا أوراق الجرائـد فأشـار بيـده دون اكـتراثٍ نحوهـا وهـو يقـول:

- هـو دا الشـغل الـلي طلبنـاكي عشـانه.. محتاجـة حـد يسـاعدك في كتابـة التقاريـر؟

مومئـةً برأسـها أن نعـم تمتمـت وهـي تلتفـت باحثـةً عـن فتحـي:

- أيـوه يـا فنـدم أنـا معايـا التمرجـي الـلي هيسـاعدني في الكشـف عـلى الجثـث.. مـش عارفـة بـس هـو راح فـين.

انطلقـت مـن بـين شـفتي يـاسر ضحكـةٌ تهكميـةٌ قصـيرةٌ لم تفهـم سـببها وهـو يلتفـت محدثًـا ذلـك الواقـف خلفـه يبـدو الـشرود الحزيـن جليًّـا فـوق ملامحـه:

- إلحق يا بيومي شوف الدكتورة بتقول إيه؟

ثم تغيرت نبرته إلى الجدية وهو يعود لمواجهتها:

- هتكشـفي عـلى إيـه يـا دكتـورة؟ إحنـا خـلاص كشـفنا.. ووقولنالكـوا قبـل مـا تيجـوا تجهـزوا التقاريـر.. بـس معلـش.. هعيـد الـكلام تـاني.. السـبعة الـلي ماتـوا دول ماتـوا وهـما بيحاولـوا في وسـط الاقتحـام ينطـوا مـن عـلى

سور القسم اللي وراكي ده.. محاولة هروب يعني.. بس كدا.. دا اللي إحنا عايزينه يتكتب.. لا أكتر ولا أقل.

ارتبكت الكلمات على شفتيها أمام نظرته الجادة، وهي تقول:

- أيوا يا فندم بس أنا عشان أكتب التقارير لازم أشوف بنفسي الجثث وأحدد سبـ..

قاطعها في صرامةٍ، وهو يقول:

- يا دكتورة أنا معنديش وقت للكلام دا.. زي مانتي شايفة المكان مقلوب والحدوتة دي عايزينها تخلص من غير ما حد يتضر.. والا إنتي رأيك إيه؟

التقطت التهديد الواضح في عبارته فصمتت للحظةٍ حاولت فيها التماسك قبل أن تقول ببعض التردد:

- حضرتك أنا مش هينفع أوقع على حاجة من غير ما أكشف بنفسي.. أمانتي الطبية بتقول كدا.

في برودٍ تام أمام إجابتها وقف غير مبالٍ وهو يُغمغم:

- للأسف برضو حضرتك أنا معنديش وقت لأمانتك الطبية دي.. نصيبك إنك الدكتورة المناوبة الوحيدة اللي كانت في المستشفى لما اتصلنا نطلب التقارير.. فا يا ريت متضيعيش وقتك ولا وقتي عشان مفيش جثث أصلاً هيتكشف عليها.. فهمتيني يا دكتورة؟

بعينين متسعتين من الذهول أمامه وقفت..

ما هذا الشَّرك الذي أوقعتها فيه الظروف؟

التقارير في يدها فارغة.. يطلب منها هذا الأخير بجرأةٍ تزييف البيانات عليها..

واثقٌ من نفسه حدَّ الجنون.. يستدير من أمامها مبتعدًا وهو يشير لبيومي الواقف خلفه غير آبهٍ بملامحه التعيسة آمرًا:

- خليك مع الدكتورة يا بيومي.. إديها أسامي السبعة دول وعايز التقارير على مكتبي جاهزة خلال ربع ساعة.

لم يُجبه الرجل بغير هزة رأس خانعة.. رفع عينيْه الجامدتين بعدها إليها مغمغمًا بصوتٍ مختنقٍ:

- التقارير معاكي يا دكتورة؟

لم يبد عليه في نطق العبارة أي شيء سوى الخزي الذي وصم به نفسه ولم تفهم هي أسبابه..

لا يُدرك من حوله غير نظرةٍ من عين ابنه رمقه بها منذ لحظاتٍ قبل أن يرحل مع أمه..

كل ما دون ذلك شرود .. وضبابية وعدم ..

فقط هزت هي رأسها اعترافًا بقلة الحيلة أمامه وهي ترفع يدها بالتقارير الخالية..

اندفع نحوها في تلك اللحظة فتحي عائدًا بوجهٍ باكٍ وعينيْن احمرتا من فرط الوجع هاتفًا:

- دكتورة هناء.. الناس دي اتقتلت يا دكتورة.. السبعة دول مكانوش بيحاولوا يهربوا زي ما بلغونا.

بكل القهر في عينيها رمقته بنظرةٍ نقلت له الصورة بينما شرع بعض العساكر في حمل الأجساد السبعة مبتعدين.

ما زالت تذكر الغضب الهادر الذي لاح في عينيه..

ما زالت تذكر ملامح بيومي المتأثرة أمامهما ويده المرتعشة تمتد لالتقاط الأوراق من بين يديها..

استعادت المشهد وكل ما حدث وهي تُطالع الورقة في يدها والصورة الباهتة لوجه نبيل..

لحظات بين تحفز وتراجع اتخذ التوتر عنها فيها القرار فألقت كل ما معها ملتقطةً سلسلة مفاتيحها وحقيبتها منطلقةً نحو باب الشقة أمام عينيْ المرأة الآسيوية التي راقبتها في غير فهمٍ وهي تفتح الباب خارجة منه هاتفةً لها بعصبيةٍ:

- أنا آسفة يا لي.. متناميش دلوقتي وخليكي مع البنات.. ورايا مشوار لازم أعمله.

قالتها ثم أغلقت الباب خلفها في قوةٍ..

وبمنتهى العنف..

***

"خبر عاجل جالنا دلوقتي بخصوص أعمال اشتباك بين الداخلية وبعض عناصر شغب في منطقة القصر العيني.. مفيش أي أخبار عن إصابات لحد دلوقتي.. ولا عندنا معلومات مؤكدة عن اللي بيحصل هناك.. ربنا يستر ونتمنى الأمور تعدي على خير.."

قرأت المذيعة (لبنى حرب) الخبر المكتوب على الشاشة الظاهرة أمامها وهي تجلس فوق مقعدها داخل الأستديو خلال لقائها مع بلال الذي استشعر في نفس اللحظة ذلك الاهتزاز المكتوم الصادر من الهاتف المحمول المستقر في جيبه فتحسسه بحركةٍ تلقائيةٍ قبل أن تلتفت نحوه مستطردةً تكمل الحوار الذي شارف نهايته:

- كنا بنتكلم أنا وحضرتك عن أسباب السعادة ودوافعها اللي ممكن تساعدنا كبني آدميين في الاستمرار والإضافة للمجتمع بشكل أفضل.. واسمحلي هنا أسألك عن حاجة في إطار حوارنا أعتقد إنها مش هتبعد بينا كتير عن الفكرة الأساسية..

في اعتقـادك أحـداث شـغب زي الـلي وردت لينـا دلوقتـي أخبـار عنهـا شـايفها ممكـن تأثـر عـلى النفسـية المجتمعيـة إزاي؟ وهـل تأثيرهـا ممكـن يكـون سـلبي والـلا إيجـابي؟

بنفـس عميـق مـلأ بـه صـدره وهـو يتراجـع في المقعـد الوثـير أمامهـا تنهـد ملتمعـة عينـاه ببريـق نشـوة مـا قبـل أن يجيـب:

- في الحقيقـة عـدم الاسـتقرار هـو عامـل أسـاسي مـن عوامـل البعـد عـن تحقيـق السـعادة.. بـس هنـا إحنـا لازم نوضـح أننـا نقصـد الاسـتقرار بمعنـاه الأشـمل.

نظرت إليه في غير فهمٍ، فأكمل مبينًا قصده:

- الاسـتقرار الحقيقـي الوحيـد الـلازم لتحقيـق السـعادة يـا أسـتاذة لبنـى هـو الاسـتقرار كامـل الجوانـب.. يعنـي الاسـتقرار العاطفـي والمعنـوي والنفـسي والاجتماعـي والمـادي كلهـم مـع بعـض لازم يجتمعـوا عشـان نقـدر مـن خلالهـم نخلـق سـعادة حقيقيـة..

وخلينـا ناخـد الاسـتقرار الوظيفـي في حوارنـا كمثـال.. الموضـوع مـش مرتبـط بدخـل ثابـت وكافي للمعيشـة وبـس.. الموضـوع ممتـد وشـامل مـدى الرضـا النفسي عـن الوظيفـة دي.. ومسـاحة الطمـوح الـلي نقـدر مـن خلالهـا نحققـه..

قصـة الاسـتقرار لـو تغافلنـا جزئياتهـا المختلفـة واختصرناهـا في جزئيـة واحـدة يبقـى مـش بعيـد نيجـي في يـوم نتجـرأ وندعي

مثلًا إن كل سجين تأبيدة مستقر في زنزانته هو شخص سعيد ومتصالح نفسيًّا مع وضعه ومع حياته..

ضحكت أمامه للتشبيه وهي تتابع:

- مستمتعة جدًّا أستاذ بلال بحواري الجميل معاك واللي كنت أتمنى لو يستمر لأكتر من كدا فعليًّا.. ولكن للأسف إحنا مرتبطين هنا بإطار زمني محدود مش باقيلنا منه غير تلت ساعة أخيرة.. فا اسمحلي على طول وبدون تضييع للوقت أنتقل لسؤالي الأهم في الحلقة.. واللي أصريت أخليه الأخير لأن ناس كتير من اللي بيتفرجوا علينا دلوقتي متشوقين يسمعوا ردك عليه.

كان يدرك جيدًا ما ترمي إليه بحديثها.. يتوقعه وينتظره.. لذا فقد اعتدل بعض الشيء في جلسته أمامها، وهي تستطرد مستكملة حديثها:

- بخصوص الفيديو الأخير اللي نشرته حضرتك على اليوتيوب.. واللي جذب عدد كبير جدًّا من المتابعين.. إيه اللي كنت قاصده بفكرة الاحتراق؟.. هل الموضوع وراه بعد فلسفي زي ما بعض الناس فهمت.. والا نقدر نقول إن الحكاية كلها مجرد نوع من أنواع البروباجاندا؟.. طريقة للفت الانتباه يعني بحثاً عن الشهرة مش أكتر؟

هـز بـلال رأسـه مجيبًـا في بـطءٍ حـاول بـه كسـب المزيـد مـن الوقـت:

ـ أعتقـد إن الـرد عـلى سؤالك دا هيكـون أوضـح مـن خـلال الفيديـو نفسـه يـا أسـتاذة لبنـى.

ابتسمت، ثم هزت كتفيها وهي تقول:

ـ شيء جميـل جـدًّا أن تكـون عنـد حضرتـك رغبـة لإثـارة فضـول جمهـورك حتـى اللحظـات الأخـيرة.. معرفـش دا نـوع مـن المماطلـة والتهـرب والـلا إيـه.. ولكـن ألا تعتقـد معـي أن انتظارهـم لمـدة أسـبوع هـو فـترة كافيـة جـدًّا يسـتحقوا منـك بعدهـا التوضيـح؟

أومأ برأسه أن نعم، قائلاً في ثقةٍ:

ـ أنـا مبماطلـش.. ومـش بتهـرب.. كل الـلي أنـا طالبـه ربـع سـاعة بتفصـل بيننـا وبـين عـرض الفيديـو الـلي هـيرد بنفسـه عـلى كل الأسـئلة.. وأعتقـد إن دا مـش كتـير.

بـدا عـلى ملامحهـا التشـكك وهـي تعقـد حاجبيهـا مسـتفهمةً :

ـ لأ أبـداً مـش كتـير.. بـس إزاي حضرتـك الفيديـو هيتعرض في معـاده كـمان تلـت سـاعة زي مـا بتقـول وإنـت لسـه معانا هنـا في الأسـتوديو؟.. المفـترض إن الفيديـو زي مـا قلـت

هيتعـرض عـن طريـق البـث المبـاشر.. يعنـي مينفعـش تكـون مسـجله مثـلاً .. صـح كلامـي والـلا أنـا غلطانـة؟

بثقة أكبر وابتسامة لم تر لها شبيهًا تساءل:

- وإيـه العـارض يـا فنـدم بـين وجـودي معـاكي هنـا وإن الفيديـو يتعـرض؟

نظـرت إليـه لا تفهـم مـا يعنيـه.. تحـاول سبر أغـوار نظرتـه الواثقـة بعـينٍ خالطهـا الفضـول متمتمـةً:

- العـارض واضـح يـا أسـتاذ بـلال.. منـين هتلحـق تصـور الفيديـو وإنـت هنـا في الأسـتوديو؟

أجابها مفصحًا عن مفاجأته للجميع في برودٍ:

- ومين قال إن أنا اللي هصور الفيديو؟

اتسـعت عيناهـا مـع الجميـع داخـل المـكان وأمام الشاشـات في دهشـةٍ، بينـما تابـع هـو:

- في أثنـاء حـواري الممتـع معـاكي حاليًـا صاحـب الفيديـو الحقيقـي في مكانـه قـدام جهـاز الكمبيوتـر وبيسـتعد لتقديـم العـرض الـلي يسـعدني ويشرفنـي أن يقبـل برنامجكـم اسـتغلال أحقيـة نقلـه الحـصري والمبـاشر الـلي بعرضهـا عـلى قناتكـم دلوقتـي مـن هنـا.

قالهـا ثـم اعتـدل مواجهًـا عدسـة الكامـيرا أمامـه وهـو يسـتطرد متجاهـلاً كل مـا حولـه:

- أعـزائي المشـاهدين الباحثـين مثـلي عـن السـعادة.. أهـلاً بكـم ..

دقائـق تفصلنـا عـن العـرض العـاشر والأخـير.. فكونـوا مسـتعدين.

بدا وكأن المكان كله بعد كلماته ارتبك..

لقـد وضعهـم بمنتهـى الجـرأة وبشـكل مفاجـئ بـين مطرقـة الأمـر الواقـع.. وسـندان الشـفافية التـي يدّعونهـا..

وتركهـم بعرضـه المقـدم مبـاشرةً أمـام الجميـع في حـيرةٍ مـا بـين القبـول السريـع.. أو الرفـض..

في بضعة دقائق..

***

-٩-

السَّبَبُ التَّاسِعُ لِلسَّعَادَةِ

....

ليس لأني لا أملكه..
ولكن لأني اكتشفت
أنه وبرغم كل الأسباب الماضية..
ما زال هنالك شيء مفقود..

***

السابعة إلا الثلث.. بتوقيت القاهرة..

بيلي..

نبيل إبراهيم العوضي..

محملـة بذكريـات حزنـه والفـرح عـلى الرصيـف المقابـل تمامًـا لبوابـة القسـم الحديديـة وقفـت شـمس تنتظـر..

هي التي شعرت حينها بالخوف الشديد..

للصمـت أصـوات مـن حولهـا تُخيـف.. نبراتهـا المشـاهد والصـور..

صرخـات مكتومـة أمـام عينيهـا تتعـالى.. لا تسـمعها لكنهـا تشـعر بأصدائهـا..

وجـوه غاضبـة.. وسـخط هـادر في قلـوب شـباب ثائريـن يصدهـم صـف عسـاكر بـزي أسـود ومدافـع رشاشـة مـن خلـف دروع معدنيـة حملوهـا..

يرتعـد جسـدها كلـه ارتعـاد العـاري وسـط مسـاحةٍ ممتـدةٍ مـن الثلـج بـلا كسـاء..

لقـد فقـدت غطاءهـا المتمثـل فيـه.. هـذا الـذي انتزعـوه مـن بـين يديهـا المتشـبثتين جـرًّا نحـو غرفـة الاحتجـاز..

يتقافـز قلبهـا في جـوفٍ خـالٍ كان هـو كل مـا يُحيـط بـه ويحميـه..

نصف كيانٍ لن تبرح هذا المكان إلا بصحبته..

رغـم إشـارات عـم توفيـق الواقـف إلى جنبهـا يدعوهـا للرحيـل ونظـرات القلـق الباديـة عـلى عينيـه مـما يُحيـط..

هـا هـم أولاء شباب الأولـتراس الغاضبـون محتشـدين أمـام أسـوار القسـم يصيحـون اعتراضًـا عـلى احتجـاز البعـض منهـم داخلـه..

الفـوران البـادي في أعينهـم والتربـص الواضـح في وقفـة رجـال الأمـن أمامهـم ينـذر بخطـرٍ قريـبٍ يستشـعره هـو..

يشـد ذراعهـا عنـوةً بأملـه المفقـود في انصياعهـا فتـصرخ مقـررة لـن أرحـل..

كسـمكة عـلى حافـة شـاطئ تصـارع للبقـاء بمـا تلقيـه لهـا أمواجـه مـن رذاذ.. شـاطئها كان هنـاك.. لديـه وحـده..

هـو بحـر الأمـان المحتجـز بالقـرب منهـا لا يفصلهـا عنـه غـير جـدارٍ عـالٍ مـن الحجـر انهالـت عليـه بأنـين نظراتهـا علـه يشـفق..

الرجـل العجـوز بدافـع مسـئوليته عنهـا مـا زال يُحـاول.. بينـما هـي بدافـع الرغبـة مـا زالـت ترفـض.

مهـما احتشـدتم أكـثر.. مهـما تزايـدت الأعـداد.. ومهـما تكاثـف الدخـان الأبيـض متسـللًا عـبر رئتيهـا بفحيـحٍ حـارقٍ يسـتل مـن مقلتيهـا دموعًـا فـوق الدمـوع سـتنتظره..

كانت شمسًا ينقصها شروقه.. أميرة تترقب فارسها النبيل الذي ظهر أمامها أخيرًا من خلف الصف الأمني الأسود مكبلًا مع غيره بسلاسل حديدية أعاقت حركته.. لكنها أبدًا لم تعق قلبه ولا روحه التي انتفضت برؤيتها تركض من بين حشد المتناحرين متجهة نحوه..

صاح بكل ما حواه القلب لها من حب..

بزفراتٍ أخيرةٍ لزينب.. واختلاجاتٍ في روح سلوى طالما حاولت مواراتها عنه:

- ابعدي يا شمس.

صاح بها في نفس آن انطلاق رصاصةٍ غادرةٍ من بندقية ضغط زنادها قناص انشغل رغم الضحية التي سقطت بذلك الدخان الساخن المتصاعد عبر فوهتها..

رصاصة تلاها وقوفٌ للزمن..

للأمل..

ولكل شيء..

ما زال يذكر مشهدًا للموت في عينيها رآه لحظة وصوله بعد انتهاء الأمر..

تلك التي استقبل يوم حضورها من خمسة عشر عامًا بنفسه..

تلك التي اختلق منها لنفسه فرصةً جديدةً للنجاة من بحر شعوره بالفشل والخذلان..

بأي صبرٍ تحامل على أوجاع قلبه المحترق وهو يقرأ بنفسه اسمها المدون فوق تقرير وفاة كتبته هناء أمامه ما زال يحفظ كل حرفٍ منه..

حيث تبلغ لنا نحن طبيب - طبيبة / هناء سليمان الطيب

أثناء تواجدنا بمقر عملنا بمستشفى القصر العيني محافظة القاهرة اليوم ١٢/ ٨/ ٢٠١٤ في تمام الساعة (الثامنة مساءً) من (مركز/نقطة) شرطة القصر العيني بوجود حالة وفاة (بمحيط القسم)

وعليه وبالتوجه وتوقيع الكشف الطبى الأولي تبين أن الجثة لأنثى في العقد (الثاني) من العمر..

ترتدي فستان زهري اللون ويوجد جرح قطعي بيسار الجبهة طوله حوالي ٢ سم وسحجات فوق الذراع

ويرجح أن سبب الوفاة هو السقوط من مرتفع السور المحيط بالمكان..

ولا يوجد شبهة جنائية ظاهرة والجثة تحت تصرف النيابة..

تحريرًا في: (الثاني عشر من أغسطس ٢٠١٤ ميلاديًّا)..

التوقيع

توقفت الخواطر في رأس فتحي عند هذا الحد فاستفاق على الشموع المتراصة أمامه بامتداد السور يتأملها ويتأمل البنايات الساكنة من حوله تترقب معه هطول المساء..

لحظات الغروب الأولى.. زرقة السماء تختلط مع اللون القرمزي المتباكي لوداع الشمس..

صوت أذان المغرب يرتفع..

أسراب الحمام تحط عائدةً لمساكنها مع مواء هرة ولود في ركن الحارة تدعو صغارها لستر دافئ بين خبايا الطريق..

رائحة الكربون تتسلل عبر أنفه نفاذةً.. يلتفت على إثرها مطالعًا وجه محمود الطالع إليه بحفنةٍ أخرى من الشموع شرع في رصها على ما تبقى من حافة السطح واحدةً تلو أخرى وهو يدندن بنغمات أغنيته التسعينية المفضلة..

سأله بصوتٍ خافتٍ:

- الفطيرة اتحرقت وللا إيه؟

جاوبه محمود وهو منهمك في إشعال الشموع:

- إنت لسه فاكر؟ دي ولعت.. أنا طافي عليها النار من عشر دقايق.. شكلك نسيتها.

لوى شفتيه في لا مبالاة، قائلاً:

- يجوز سرحت شوية مع نفسي.. بس عمومًا أنا كنت عايزها تتحرق زي ما كانت دايمًا بتعملها.

هزَّ رفيقه كتفيه وهو يقول:

- مع إني مش فاهم الهدف من تكرار نفس التفاصيل.. بس أديها اتحرقت.

صمت بعد عبارته لحظة ينتظر ردًّا لم يجئه فتبدلت نبرته وهو يتابع مهتمًّا:

- لسه محدش وصل؟

تمتم فتحي وهو يطالع الحارة من مكانه في هدوءٍ:

- هانت.. بيومي رنلي من شوية ودا معناه إنهم على وصول.

قالها بعينٍ شاردةٍ أطل بها على الأفق دون أن يضيف.. فاقترب محمود واقفًا إلى جواره يسأله:

- قلقان يا فتحي؟

هزَّ رأسه نافيًا:

- معنديش حاجة أقلق عشانها يا محمود.

أطلق محمود تنهيدةً طويلةً حارةً من بين شفتيه قبل أن يُغمغم:

- أنا بقى عندي.

رمقه فتحي في تساؤلٍ، فعضَّ على شفتيه وهو يكمل:

- أنـا قلقـان أخـسر الـلي نـدى عرفتنـي في مكالمتهـا النهـاردة إنـه لسـه موجـود.

لم يفهـم مـرةً أخـرى مقصـده فصمـت وتركـه ليفصـح عنـه مسـتدركًا:

- النهـاردة فهمـت إن الاحتيـاج شـعور مـش دايمًـا بيكـون وحـش.. أنـا بـس الـلي طـول عمـري كنـت بحـاول أهـرب منـه..

كنــت بحــاول أحســس نفــسي إني مفــرد.. واحــد كائــن بذاتـه.. عمـره مـا حـب أبـدًا فكـرة إنـه في يـوم يبقـى بيـدور عــلى حاجــة يتعكــز عليهــا.. أو حــد.

كان يتكلـم وقـد توقـف عـن الاسـتمرار في إضـاءة شـموعه أمـام الظـلام الـذي حـل عـلى غفلـةٍ منهـما مسترسـلاً:

- زمـان جنـب بيتنـا في البلـد كان في شـجرة كبـيرة فروعهـا مـادة وداخلـة مـن شـباك أوضتـي.. لدرجـة ان الشـباك بسـببها مكانـش بيتقفـل..

الموضـوع كان مسـببلي أزمـة مسـتمرة.. خاصـة اني كل مـا كنـت أحـاول أحلهـا بكـسر الفـروع دي أبويـا يمنعنـي..

ضايقني رفضه اللي مفهمتلوش أسباب ولا منطق.. لحد ما فيوم جيت من وراه وعملتها.. كسرت الفروع.. وقفلت الشباك.

ضحك مع التماعة ظهرت في عينيه عند هذه النقطة من ذكرياته ثم استمر:

- أبويا أما عرف تاني يوم طلع ضربني ضرب أكتر يمكن مااللي اضربته يوم ما عرف إني شربت سجاير..

حبسني في أوضتي يومين فضلت فيهم كل ما أبص ناحية الشباك عليها يجيلي إحساس إنها بتراقبني.. وإن عقابي دا مش هو انتقامها الأخير..

فاكر أياميها بعد تالت يوم عقاب جه خدني من إيدي ونزلني وقفني جنبها وأنا مرعوب وحاسس برهبة مش طبيعية قصاد شموخها..

وراني إنها ساندة حيطة مايلة من حيطان البيت.. وعرفني ساعتها هو ليه ضربني.. وليه كان رافض على حد تعبيره إنه يزعلها..

كان فتحي يستمع إليه وهو يرمق اسم الدكتورة هناء الذي أضاء فوق شاشة هاتفه المهتز في صمتٍ دون أن يجيب.. في حين استطرد محمود:

- يومهـا أنـا بصيـت للشـجرة دي بطريقـة مختلفـة.. شـفت سر عظمتهـا وقوتهـا.. عرفـت إزاي كانـت قـادرة وهـي ثابتة في مكانهـا بـدون مـا تتحـرك تكـون سـند داعـم لبيـت كامل بـكل الـلي فيـه..

لقيـت خـوفي منهـا في لحظـة بيتحـول لإعجـاب.. وكرهـي ليهـا بيتبـدل حـب.. بقـت الهيبـة الـلي جوايـا منهـا دافـع لأني أكـون شـبهها في يـوم مـن الأيـام..

شـجرة ثابتـة قويـة ميحنيهـاش الزمـن.. وتسـند كل شيء حواليهـا..

بقيـت كل يـوم أبصلهـا وأقـول لنفـسي بكـرة هكـون زيـك.. أقـوى مـن أي ظـروف.. سـيطرتي ممتـدة لأبعـد مـن مـدى وجـودي..

كل يـوم هكـبر.. ومـش هيغلبنـي أي شيء.. بالضبـط زي مـا كانـت هيـا قدامـي.. أو بمعنـى أدق.. زي مـا كنـت أنـا شـايفها..

قويـة.. إرداتهـا مفروضـة عـلى كل الـلي حواليهـا.. وأمرهـا نافـذ ومطـاع مـن غـير حتـى مـا تـصرح بيـه..

كـبرت عـلى كـده.. سـافرت القاهـرة أدرس عـلى كـده.. اتخرجـت واتجـوزت وطلقـت وأنـا لسـه كـده..

أوراقي خضرا وجذعي عنيد..

فـارض مـش مفـروض عليـه.. هـو الـلي بيختـار للـكل ومحـدش يقـدر يختارلـه حاجـة..

كل حيـاتي بقـت كـدا.. أنـا الـلي أشـوف مـراتي تكمـل في شـغلها والـلا لأ.. وأنـا الـلي أشـوف بنتـي تدخـل كليـة إيـه أو تتجـوز إمتـى ومـن مـين.. مفيـش عنـدي أي اعتبـار لطمـوح الـلي حواليـا وحريتهـم.. ولا حتـى مسـاحة للتفاهـم..

وأمـا كنـت أسـمع إن أبويـا في البلـد عيان كل الـلي كان بيجي في بـالي إني أبعـت فلـوس.. كأنهـم بالفلـوس هيقـدروا يعملـوا كل حاجـة.. كأن الفلـوس دي هتغطـي احتياجهـم المعنـوي والنفـسي بغـض النظـر عن وجـودي فوسـطيهم..

كنـت واعـي لنـص الـدرس القـاسي الـلي شـافته عينـي مـن صورتهـا بـس.. مكنتـش فاهـم إن ورا الجمـود دا حقيقـة تانيـة.. نـص تـاني مشـفتوش غـير لما أبويـا مـات ورجعـت آخـد عـزاه في البلـد بعـد سـنين غيبـة وغبـاء..

شـفته في ورقهـا الـلي وقـع.. فروعهـا الـلي نشـفت وبقـت تكسرهـا أي نسـمة ريـح.. وجذوعهـا الـلي اصفـرت وبـان عجزهـا تحـت حمـل الحيـط الـلي مـال أكـتر عليهـا..

كل الـلي آمنـت بيـه فيهـا لقيتـه قدامـي بينهـار.. وسـاعتها شـفت نـص الحقيقـة التـاني..

الشـجرة مرضـت لمـا مـرض الـلي كان مراعيهـا.. عجـزت معـاه.. حتـى هيـا برغـم قوتهـا كانـت محتاجـة لسـند..

مـراتي وبنتـي أنـا لمـا سـبتهم دبلـت.. كنـت بعجـز كل يـوم عـن الـلي قبلـه بـدون مـا أحـس.. ومـن غـير مـا أعـرف إيـه السـبب..

والشجرة العجوزة الساكتة دي هيا اللي فهمتني..

فهمـت إننـا ومهـما كانـت قوتنـا محتاجـين برضـو لـلي يدعمنـا ويسـقينا.. محتاجـين نـدى يرطـب الأرض الـلي واقفـين عليهـا..

مازحًـا تمتـم فتحـي مسـتغلاً لحظـة صمـت التقـط خلالهـا محمـود أنفاسـه:

- ندى برضو يا محمود؟

بادله محمود الابتسام على ذكر اسمها وهو يقول:

- النهـاردة فرحـت مـن قلبـي أمـا سـمحتلي بفرصـة رجـوع.. مـش بـس عشـان محتاجهـا هيـا.. أنـا برضـو محتـاج جـدًّا للبنـي آدمـة الـلي وقفـت جنبـي في بدايـة الطريـق.. البنـي آدمـة الـلي مـن غيرهـا مكانتـش نـدى أصـلًا اتوجـدت..

أنـا النهـاردة اكتشـفت إن أسـاس قـوتي مكتسـب أصـلاً مـن النـاس الـلي حوليـا..

مـن نـدى.. مـن مـراتي الـلي حسسـتها فيـوم إن ملهـاش قيمـة..

منك إنت يا فتحي.. من بلال وشادية ومن بيلي..

عشـان كـدا قلقـان دلوقتـي وخايـف عليكـو خـوف أسـبق مـن خـوفي عـلى نفـسي..

أنا من غيركم فعلا ولا حاجة.. وبيكوا بملك كل شيء.

تنهـد فتحـي في امتنـانٍ لـه دون أن يلتفـت إليـه وهـو يتابـع الشـارع بالأسـفل قبـل أن تتحفـز ملامحـه وتنقبـض يـداه فـوق السـور مراقبًـا يـاسر الـذي ظهـر مترجـلاً يهـرول عنـد نهايـة الطريـق إلى جـوار بيومـي في نفـس لحظـة ولـوج تلـك السـيارة الحمـراء الفارهـة عـلى نهايـة الاتجـاه الآخـر مـن الحـارة قائـلاً في سرعـة وهـو يهـم بالتراجـع إلى الداخـل:

- وصلوا يا محمود.. لازم نتحرك.

اسـتوقفته يـد محمـود الممتـدة تقبـض عـلى ذراعـه وهـو يتمتـم في عصبيـةٍ بالغـةٍ:

- بـلاش يـا فتحـي, أنـا مـش مطمـن.. خلينـا نلغـي كل حاجـة وكأنهـا محصلتـش.. قدامنـا لسـه مجال.

التفـت فتحـي نحـوه متطلعًـا إلى عينيـه بنظـرةٍ مبـاشرةٍ وعينـين تشـعان إصرارًا لا تراجـع فيهـما:

- مش هنلغي حاجة يا محمود.. إحنا هنكمل عشان كل حاجة حلوة عايزينها تعيش.. وعشان مفيش قدامنا أصلاً غير كده.

تمتم محمود أمامه بلسانٍ متلعثمٍ:

- وإذا باظت ؟

صاح به الأخيروهو يرمق مرة أخرى سيارة الدكتورة هناء التي وجدت لها ركنًا خاليًا على جنب الطريق توقفت فيه.. والنقيب ياسر الذي اقترب من مدخل البناية مع بيومي الذي تلاقت عيناه المطل بهما في لحظةٍ مختلسةٍ إلى أعلى مع عينيه:

- هنبقى كسبنا على الأقل شرف المحاولة.

قالها وهو يفلت من بين يديه متجهًا إلى الداخل قبل أن يستطرد مستحثًّا إياه بصوتٍ أعلى:

- عشان خاطري يا محمود يلا.. سيب باقي الشمع وافصل الكهربا عن الباب الخارجي .. بسرعة.

تحرك الرجل بغير حيلةٍ مستسلمًا لاضطرابه ينفذ الأمر في حين دلف هو إلى داخل المكان متجهًا بخطواتٍ سريعةٍ نحو المطبخ متناولاً الفطيرة المحترقة ليحملها معه إلى الخارج قبل أن يضعها إلى جنب زجاجتي مياه غازية وكوبين فارغين على منتصف الطاولة الصغيرة في الصالة.. كان يتحرك

بسرعة لم تستغرقه أكثر من ثوانٍ اتجه بعدهم نحو الغرفة الصغيرة وفتح بابها تشاركه الأضواء المنبعثة والموسيقى المعتادة.. مستقبلاً بابتسامةٍ متعجلةٍ الوجه الملتفت نحوه بقناع مهرج من أمام شاشة كمبيوتر ظهر فوقها مربع أسود لمساحة عرض فيديو في حالة تأهب وزر أحمر عريض أسفله لمح كلاهما فتحي وهو ينحني لالتقاط وعاء من أحد الأركان امتلأ بمادةٍ مشتعلةٍ شرع في إغراق الأرضية بها..

كل شيء في مكانه..

الفراش..

الكرسي الخشبي ذو الثلاثة أرجل..

وتلك الصورة الكبيرة المعلقة على الحائط المواجه تمامًا لشاشة الكمبيوتر تحمل وجه نبيل..

الوقت يمر على عجل..

وعقارب الساعة مع دقات قلبه تلتهمان الثواني المتبقية على نهاية كل شيء..

***

في صمتٍ أسترق السمع دومًا لصداه انتظرت..

طال انتظاري.. لكنه لم يكن أبدًا بلا طائلٍ..

أقـرأ البشـارة مـن عـين فتحـي.. وأبادلـه ابتسـامةً كانـت منـذ لحظـات كعادتهـا غائبـة..

أنتظـر رحيلـه مغلقًـا البـاب مـن خلفـه قبـل أن أضغـط بالمـؤشر أمامـي عـلى الشاشـة زر البـث المبـاشر..

لقد آن الوقت..

وهـا هـي ذي سـاعة الصفـر المرتقبـة بعـد صـبر يحـين أوانهـا..

***

"لحظات أعزائي المشاهدين ويبدأ العرض"

قالتهـا الإعلاميـة الشـابة لبنـى حـرب وهـي تتطلـع عـبر الشاشـة التـي باتـت منقسـمة إلى نصفـين نقـل صورتهـا في الأسـتوديو أحدهـم بينـما احتلـت النصـف الآخـر مسـاحة سـوداء نقلتهـا الكامـيرات إلى كل المشـاهدين القابعـين أمـام شاشـاتهم في البيـوت وعـلى المقاهـي مترقبـين..

لقد اتخذوا قرارهم بالموافقة على بث العرض..

لم يلزمهـم الأمـر غـير فاصـلٍ قصـيرٍ أقـرَّ خلالـه بـلال عـلى ورقـة صغـيرة مسـئوليته الكاملـة عـن كل مـا سـيتم نقلـه بعـد لحظـاتٍ عـلى الهـواء مبـاشرة ..

كان يجلس أمامها في نفس مكانه متطلعًا إلى ساعته التي أشارت عقاربها على السابعة إلا دقائق منتظرًا قبل أن يقول:

- اسمحيلي حضرتك أقدم الفيديو بنفسي.

أومأت برأسها له موافقة وهي تقول:

- اتفضل طبعًا.. كلنا مستنيين ده.

التقط نفسًا عميقًا من الهواء في نفس اللحظة التي أضاء فيها النصف الخالي بصورة ذلك الوجه القابع أمام الجميع بأنف أحمر مستدير وشعر مستعار له نفس اللون مع ابتسامةٍ متسعةٍ مرسومةٍ داخل حجرة صغيرة ضيقة التهمت تفاصيلها كل العيون..

بريقٌ خاص التمعت به عينا بلال الذي بدا على النصف الآخر من الشاشة وهو يعتدل متحدثًا بالفصحى التي اعتادها في عرض فيديوهاته يعرف الوجه المطل أمامهم:

"الخميس.. الخامس من أغسطس ٢٠١٥م.. الساعة السابعة مساءً..

أعزائي المتابعين جميعًا.. وتماماً كما وعدناكم

أهلاً وسهلاً بكم في موعدكم المتجدد مع الفيديو الأسبوعي العاشر والأخير للباحثين عن السعادة..

رحبوا معي بـ (بيلي)".

قالهـا والوجـه عـلى الشاشـة يطالـع عيـون المشـاهدين في ثبـاتٍ دون أن يُحـرك سـاكنًا للحظـاتٍ تشـابكت فيهـا الأصابـع واحتبسـت خلالهـا الأنفـاس..

كل بصره شاخص على الشاشة..

المصورين..

معدو البرنامج..

والقابعـون في منازلهـم وعـلى المقاهـي العامـة يتابعـون الحلقـة..

حتـى كـمال البنـداري مخـرج البرنامـج.. كان متحفـزًا قلقًـا مثـل الجميـع برغـم ورقـة الإقـرار المسـتقرة في يـده..

لحظات مرَّت لم يحدث خلالها شيء..

ذات الملامـح الضاحكـة في صمـت تنظـر لهـم.. وتتمتـم أمامهـا لبنـي في شيء مـن توتـرٍ:

- هو مبيتحركش ليه؟

نظـر لهـا بـلال أن تمهـلي وهـو يشـير إلى الشاشـة التـي تحـرك الوجـه فيهـا أمامهـم منزاحًـا يُفسـح المجـال لتلـك الصـورة الكبـيرة المعلقـة عـلى الحائـط خلفـه.. والتـي مـا إن ظهـرت للجميـع حتـى أكمـل بـكل مـا حملـه صوتـه مـن اختلاجـاتٍ:

- نبيل إبراهيم العوضي..

مواطن مصري..

ارتفع في تلك الأثناء إثر انفتاح باب الغرفة على الشاشة صوت نغمات السيرك لتبدو كخلفيةٍ موسيقيةٍ صاحبت صوت بلال الذي ارتفع أكثر وهو يستطرد:

- قُتل ظلمًا على يد ذلك الدالف أمامكم لتوه من خلف الباب الخشبي المفتوح.

قالها فاتسعت كل العيون لرصد ملامح الوجه المقصود..

وبمنتهى التحفز..

***

اللحظات الأخيرة

الثاني عشر من أغسطس ٢٠١٤م..

الساعة السابعة مساءً..

حين انطلقت الصيحات عاتيةً من حناجر شباب الأولتراس الواقفين أمام القسم وتدافعت أجسادهم تُحاول اقتحام المبنى الذي افترشت الحواجز الحديدية الشائكة بينهم وبينه..

حين سيطر الارتباك على صف رجال الأمن المركزي الواقفين خلف دروعهم بالخارج وعلى رجال الأمن المتدافعين في كل اتجاه داخل المكان..

وحين كان وحده هناك يقف.. في طابقه الأعلى داخل حجرة مكتبه الباردة..

يتابع المشهد ببرودٍ مماثلٍ عبر النافذة الكبيرة بخلفيةٍ موسيقيةٍ أبدع في عزفها موتسارت..

بدت الصورة أمامه هزليةً.. تافهةً.. تثير بداخله نشوة استمتاع لا مثيل لها..

كل هؤلاء الحمقى بالأسفل المستشاطين غضبًا لاحتجاز زملائهم بعد تظاهرة اعتراض قاموا بها مجرد حشرات لا قيمة لهم..

هاموش يتطاير بغير قدرة على فعل شيء..

هكذا رآهم..

بعكس جميع رجاله الذين سيطر التوتر عليهم كان الأمر في نظره مسليًا..

تتعالى الطرقات فوق باب مكتبه ثلاثًا قبل أن يفتح صاحبها الباب مندفعًا إلى الداخل وهو يصيح في قلقٍ:

- ياسر باشا.. العيال اللي برة عددهم بيزيد.. والرجالة ابتدوا يرجعوا قدام الضغط.. هنتصرف إزاي؟

أشار إليه دون أن يستدير نحوه رافضًا اقتطاع لحظة استمتاع واحدة من المشهد قائلًا بهدوئه المعتاد:

- تعالى يا بيومي قرب هنا أوريك حاجة.

اقترب بيومي إلى حيث أشار إليه وتطلع معه عبر النافذة على المشهد المحتدم بالأسفل والأعداد المتزايدة من الغاضبين فارتفعت ضربات قلبه المتوترة خوفًا على زوجته وابنه المنتظرين بالأسفل.. متناقضة مع نبرة صوت رئيسه الهادئة وهو يستطرد:

- عايزك تستمتع بالمنظر اللي إنت شايفه قدامك ده.

اندفع بيومي بفعل التوتر المعتمل في نفسه على زوجته القابعة بالأسفل مع ابنه هاتفًا:

- أستمتع إيه بس يا باشا؟.. الناس الغضبانة تحت دي بتزيد.. وشوية الحديد وصف العساكر اللي إحنا موقفينهم دول مش هيستحملوا كتير.. إحنا لازم نتصرف قبل ما الدنيا تولع.

ارتفعت ضحكاته أمام العبارة عالية.. والتمعت عيناه ببريق شبق لا مثيل له، وهو يقول:

- هـو دا بالضبـط المطلـوب إثباتـه.. صدقنـي أمـا الدنيـا تولـع المتعـة هتزيـد.. أنـا نفـسي الدنيـا تولـع.

تطلـع بيومـي نحـوه في غـير فهـمٍ فاتسـعت الابتسـامة فـوق وجهــه.. ثــم اســتدار ملتقطًــا جهــاز اللاســلكي المســتقر عــلى المكتــب الفاخــر خلفــه ورفعــه إلى فمــه ضاغطــا أحــد أزراره قائـلًا يُحـدث واحـدًا مـن أفـراد القناصـة الموزعـين عـلى سـطح المبنــى:

- فين قنابل الغاز؟

انطلقــت بعــد انتهــاء عبارتــه بلحظــات قنبلتــا غــاز مســيل للدمــوع انتــشر مــن حولهــما دخــان أبيــض كثيــف خانــق ارتبكـت معـه الصفـوف المحتشـدة وبـدت مـن خلالـه الرؤيـة في أعينهـم مشوشـة فتخبطـت الـرؤوس واختلطـت مـا بـين مندفـع ومتراجـع.. بينـما تابـع الصـوت الهـادئ بنفـس النـبرة البـاردة حديثــه:

- راقب معايا الخوف يا بيومي.. اتفرج..

الخوف هو أقوى سلاح تقدر تواجه بيه خصومك..

الخوف بيهز الصفوف.. بيشتتها..

خــوف الضعيــف دايمًــا بيخليــه يتــصرف غلــط.. بيخليــه يتهـور.. وسـاعتها بيديلـك عـلى طبـق مـن دهـب الفرصـة لأنـك تنســفه..

كانت كلماته التي أنصت لها بيومي.. لا يستوعب منها الكثير.. لكنه ظل ببصره يتابع انطلاق عدد أكبر من قنابل الغاز التي اختلط دخانها بالصيحات الغاضبة والهتاف الجهوري المستمر رغم كل شيء مضافًا إليها الخوف المقصود والذي خلف ارتباكًا دفع البعض منهم للعنف فتلاطمت الصفوف واندفعت القبضات في وجوه عساكر الأمن المركزي الذين ارتفعت بدورها هراواتهم تضرب الرؤوس في نفس اللحظة التي علا فيها رنين هاتف خاص وضعه الآخر فوق أذنه مجيبًا في سرعةٍ وبنبرةٍ جادةٍ:

- أمرك يا فندم.

انتظر قليلاً مانحًا مُحدثه فرصة الكلام قبل أن يقول:

- لا أبدًا يا فندم كله تمام.. مفيش داعي لأي إمدادات، الوضع تحت السيطرة وأنا بشرف عليه بنفسي.. اطمئن معاليك.. مع السلامة.. مع ألف سلامة.

قالها وأغلقه مرةً أخرى قبل أن يُعيد متابعة الموقف بنظرة حملت في نظر بيومي الكثير من الجنون غمز بعدها له بعينيه قائلاً في نشوة لا تناسب أبدًا خطورة الموقف:

- دلوقتي بقى مطلوب نضيف عالطبخة شوية بهارات عشان تظبط أكتر.

قالها للوجه المتعجب، ثم سأله:

- بيومي إحنا عندنا كام واحد محجوز في التخشيبة تحت؟

أسرع بيومي يُجيبه:

- معرفش سعادتك العدد الكامل بالضبط كام.. بس المشكلة قايمة على التسع عيال والبنتين بتوع الأولتراس اللي الحملة بتاعة حضرتك لسه شداهم.

حك بسبابته ذقنه في بطءٍ قبل أن يقول:

- طلعهم طيب .. عايز أشوفهم واقفين تحت في ضهر صف العساكر اللي بيننا وبين شوية الهمج دول.

ارتفع حاجبا بيومي في اندهاشٍ، وهو يتساءل:

- إيه دا يا باشا؟ إنت ناوي تطلعهم؟

أطلق ضحكةً قصيرةً متهكمةً وهو يُخبره:

- أطلع مين يا حمار إنت؟ هو أنا بتكلم عالـ ١١ بس؟ انزل يا اللا بلغ رجالة الحجز وإنت معاهم يطلعوا كل اللي فيه بس كلبشوهم بسلسلة واحدة جنب بعض عشان محدش فيهم يفلت..

نفذ.

نطقها بصيغة الأمر فانطلق بيومي لتنفيذه محاولًا فهم المغزى من وراء ذلك..

هبـط إلى الأسـفل حيـث غرفـة الحجـز.. مـارًّا في طريقـه عـلى زوجتـه المنتظـرة داخـل حجـرة تسـجيل المحـاضر والتـي نهضـت بمجـرد رؤيتـه مناديـة عليـه في خـوفٍ حقيقـي:

- بيومـي.. هـو إيـه الـلي بيحصـل بالضبـط؟ والـلي بـرة دول عايزيـن إيـه؟

توقـف أمـام بـاب الغرفـة مشـيرًا إليهـا أن اقبعـي كـما أنـت قا ئلًا :

- مفيـش حاجـة إهـدي.. نـاس بتعمـل شـغب عشـان يطلعوا زمايلهـم مـش أكتر.

كان يُحاول إخفاء توتره أمام عصبيتها التي صاحت بها:

- يعنـي أنـا حظـي الإسـود ميخلينيـش أعـدي عليـك غـير في الظـروف الهبـاب دي؟

كان ابنـه في تلـك اللحظـة يقـترب منـه متشـبثًا ببنطالـه، قائـلًا في بـراءة:

- بابا.. ممكن أجي أتفرج معاك؟

هـم برفـض طلبـه لـولا أن سـبقته هـي بـه في عصبيـة مناديـة:

- محمـد.. تعـالى اقعـد معايـا هنـا تـروح فـين؟ أنـا ناقصـة حرقـة دم؟

عـاد الفتـى مسرعًـا إلى حيـث تقـف.. بينـما أومـأ لهـا هـو برأسـه دون معنـى قبـل أن ينطلـق مكمـلًا طريقـه المنشـود..

دقائـق مـرَّت تكـون خلالهـا الصـف المكبـل مـن المحتجزيـن فـزاد الأمـور تعقيـدًا..

تعالـت صيحـات الغضـب فائـرة لظهورهـم مـن خلـف حاجـز العسـاكر المرتبكـين أمامهـم..

مضيفًـا إليهـا هـو.. ذلـك الواثـق مـن نفسـه بالأعـلى المزيـد.. بصوتـه الـذي تنحنـح بـه عـبر مكـبر صـوت في يـده قبـل أن يقـول محدثًـا ثورتهـم:

أهلاً بيكوا في دولة القانون.

لحظـة مـن الصمـت مـرَّت ارتفعـت فيهـا الـرؤوس جميعهـا نحـوه وهـو يقـف في شـموخٍ مـن خلـف زجـاج نافذتـه الكبـيرة متابعًـا:

- اوعـوا تكونـوا فاكريـن إنكـوا تقـدروا بشـوية الهبـل الـلي إنتـوا عاملينـه دا تلـووا دراعنـا.. أو تاخـدوا حاجـة إحنـا مـش عايزيـن نديهالكـوا..

النـاس الـلي إنتـوا جايـين تطلعوهـم قدامكـوا أهـم.. مـش هـما بـس.. هـما وكل الـلي محجوزيـن عنـدي جـوا في القسـم.. كل الـلي فاصـل بينكـوا وبينهـم صـف العسـاكر دول.. عايـز

أشـوف بقـى لـو فيكـوا راجـل واحـد يقـدر يعديلهـم.. بـس ساعتها ميلومـش إلا نفسـه.

صمت لحظة مراقبًا أثر كلماته عليهم، قبل أن يستدرك:

- وقـت الهـزار خـلاص انتهـى.. ودي آخـر فرصـة قدامكـوا للتراجـع.. المهلـة دقيقـة واحـدة كـمان.. يـا تمشـوا.. يـا هنعـرف إحنـا إزاي نمشـيكوا.. انتهـى.

كان ينطق كلماته مدركًا الدافع من ورائها..

كان يسعى لإثارتهم أكثر..

كان يمنحهـم حـدًّا مـن الغضـب يفقدهـم بـه القـدرة عـلى التمييـز.. متلـذذًا بصيحاتهـم التـي باتـت أقـوى هديـرًا.. مراقبًـا اندفاعهـم العشـوائي وضربهـم لـكل مـا ومـن أمامهـم.. انهمـروا عـلى رجـال الأمـن ومبناهـم بوابـلٍ مـن الحجـارة التـي عـادت لهـم في هيئـة قنابـل غازيـة اسـتمرت في الهطـول فـوق رؤوسـهم خانقـةً حارقـةً متتاليـةً.. تحجـب عنهـم ابتسـامته التـي اتسـعت ليبـدو أشـبه بشـيطان..

في بـرود المسـتمتع مـدَّ يـده نحـو زر التحكـم بسـماعات الحجـرة رافعًـا صـوت المعزوفـة الموسـيقية الراقيـة قبـل أن يُعاجلـه صـوتُ تحطـم مـدوٍّ لزجـاج نافذتـه إثـر ارتطـام حجـرٍ كبـيرٍ اخترقهـا قبـل أن يسـقط متدحرجًـا بـين بعـض الشـظايا فـوق السـجادة الفاخـرة في المـكان.. فتراجـع عـدة خطـوات

للـوراء محتميًـا بمكتبـه في لحظـةٍ كشـفت جانـب جـبن فيـه لم يـره حينهـا سـواه.. لكنـه تعمـد إخفـاءه خلـف قناعاتـه الشـاذة.. ونبرتـه القويـة الصارمـة التـي تمتـم بهـا وهـو يرفـع مكـبر الصـوت مـرةً أخـرى إلى فمـه هاتفًـا:

- مهلتكو انتهت يا سادة.

قالهـا ثـم التقـط اللاسـلكي المعلـق في حزامـه مـرة أخـرى وضغـط أزراره آمـراً في اقتضـابٍ:

- اضرب حي.

هكـذا.. وعـلى خلفيـةٍ مـن صـوت الرصاصـات المنطلقـة فـور أمـره اشـتعل الوضـع..

وهكـذا, اصطبـغ الشـارع بلـون دم اسـتعاده يـاسر في مخيلته وهــو يهــرول عابــرًا الأزقــة إلى جــوار بيومــي الــذي اســترجع بـدوره تراجعـه مـن خلـف صـف المكبلـين أمامـه بعـد طلقـة في رأس أحدهـم سـقط عـلى إثرهـا بثقـل وزنـه بـين صرخاتهـم وتوازنهـم الـذي اختـل..

بدافـع رغبتهـم في الحيـاة حاولـوا التراجـع إلى داخـل المـكان احتـماءً بـه..

استنشـقوا بشـهقاتهم المذعـورة كـمًّا لا يُطـاق مـن الدخـان الأبيـض.. وانتـثرت الدمـاء فـوق وجوههـم وعـلى أيديهـم..

الموت أمامهم.. وركلات بيومي ولطماته مع زملائه من الخلف..

سدد اللكمات فوق أجساد منهارة.. ووجوه تلوثت قبضته بدمائها..

كان يضربهم بدافع غلٍّ سيطر عليه خوفه الشديد على صغير يحبه ولا يزال داخل المكان..

محمد..

هذا الذي لم تلحظ أمه في غمرة توترها انسلاله من بين يديها واندفاعه بالفضول إلى الممر الخارجي للقسم..

رصاصة أخرى تخترق كتفًا آخر بالخارج.. ثم قدم أحد المحيطين..

غاز مستمر هطوله على عيونٍ التهبت.. وصدورٍ اختنقت..

الكل في الخارج يجري محاولًا النجاة بحياته من موتٍ مُحلق..

والعينان الصغيرتان تلمحان يدًا تألفها باتت مخضبةً بلون الدم..

انقباضـة في قلـب بيومـي شـعر بهـا عنـد هـذه النقطـة مـن الذكريـات فتوقـف معهـا عـن الركـض مسـتندًا إلى أحـد الجـدران يلهـث أمـام يـاسر الـذي رمـق السـاعة في يـده وهـو يصيـح:

- وقفت ليه يا بيومي؟ بسرعة مفيش عندنا وقت.

بمشـاعر حـاول إخفاءهـا وأنفـاس تلاحقـت في صـدره انفعـالاً أشـار لـه الأخـير الى البنايـة التـي باتـت قريبـة وهـو يقـول موضحًـا:

- خلاص قربنا نوصل يا باشا.. البيت أهو.

هرولا معًا في طريقهما مقتربين من الحارة الضيقة..

سور المدرسة القديم..

البناية المقصودة بابها أمامهما مفتوح يدعوهما للدخول..

صعـدا درجـات سـلمها عـدوًا رغـم الإجهـاد البـادي عـلى ملامحهـما يتخلـل الصمـت المسـيطر بينهـما سـؤال يـاسر بصـوتٍ خافـتٍ:

- متأكد إن هي دي العمارة؟

أومـأ بيومـي برأسـه مؤكـدًا فشرعـا في صعـود الـدرج العتيـق بسرعـةٍ في نفـس لحظـة ظهـور فتحـي الـذي اتخـذ مـع محمـود طريـق الهبـوط فـوق الـدرج أمامهـما..

بالريبـة رمقهـما يـاسر وكلاهـما يعـبر مـن جـواره رافعـين أيديهـما بتحيـةٍ مـا لم يميزهـا مواصلـين طريقهـما إلى الأسـفل بهـدوءٍ أثـاره..

"مش حد فيهم يا باشا.. أنا حافظ شكل نبيل.."

تمتـم لـه بهـا بيومـي، فالتفـت عنهـما مواصـلًا الصعـود مـع ذلـك الأخـير الـذي اسـتدرك بعـد رحيلهـما الآمـن بعـدة لحظاتٍ:

- يـاسر باشـا أنـا الرصـاص الـلي معايـا خلـص.. ناولنـي مسدسـك معلـش.

طلبها في لحظةٍ انتقاها بإتقانٍ..

اقتنـص القلـق مـن عـين رئيسـه وذلـك الـشرود الـذي اكتنفـه.. واعتمـد عـلى فكـرةٍ أهداهـا هـو لـه منـذ عـامٍ..

"خوف الضعيف دايمًا بيخليه يتصرف غلط"

كان يعـرف أن طلبًـا كهـذا في أي وضـعٍ آخـر سـيتم رفضـه.. لكنـه راهـن عـلى الظـرف..

راهـن عـلى الخـوف الماحـي لأي منطقيـةٍ أو تريـث أو تفكـير..

إن ياسر خائف.. وجبان مثله في تلك الأثناء لا يدقق..

مـدَّ يـده بالسـلاح يناولـه بيومـي الـذي احتـواه بقبضتـه في قـوةٍ مسـتكملاً مـع صاحبـه صعودهـما حتـى السـطح..

بخطواتٍ وجلةٍ متربصةٍ دلفا إلى المكان..

السطح الخالي أمامهما تضيء حدوده الشموع.. والباب الخشبي الموارب في مواجهتهما ينتظر..

اقتربا منه.. دفعه بقدمه بيومي ليصدر ذلك الصرير الخافت الذي بعث في نفس ياسر رهبةً..

المكان معتمٌ فارغٌ أمامه.. يميز إثر الضي المنبعث من وهج الشموع القادم إليه من الخارج تلك الفطيرة المحلاة الموضوعة إلى جانب كأسين فارغين وزجاجة مياهٍ غازية فوق مائدةٍ توسطت الصالة..

- فيه إيه بالضبط يا بيومي؟ هو كان في حفلة بتتجهزهنا ولا إيه؟

تمتم بها دون انتظار رد وهو يدور ببصره في أرجاء المكان قبل أن يستقر على باب تلك الحجرة الوحيدة في ركنه...

اقترب منها.. مد يده نحو مقبضها في بطءٍ متوجسٍ وأداره لينفتح منطلقة مع انفتاحه موسيقى السيرك والأضواء المتفاوتة التي تراجع على إثرها متطلعًا إلى من قبع في ملابس ملونةٍ ينتظره منذ عامٍ مضى..

كل الصورة تُربكه..

المهرج الجالس أمامه..

رائحة البنزين النفاذة..

الحجرة الضيقة..

كل شيء..

لم يلحظ حينها تلك الكاميرا المفتوحة التي رصدته وهو يصيح:

- مين انت؟

لم يعلم أن صرختة المرتبكة في تلك اللحظة رآها الآلاف..

لم يُدرك أن خوفه وصل عبر الشاشات إلى كل العيون وهو يقف إلى جوار الباب مترددًا في الاقتراب مراقبًا باندهاشٍ تلك التي محت عن وجهها بعضًا من أثر الألوان وهي تنزع عن رأسها الشعر المستعار ليظهر من تحته ذاك الحقيقي المنسدل..

في ذهولٍ نقلته الشاشة أمامه اتسعت عيناه للملامح المنكشفة التي لم يرها سواه.. في حين استمر من داخل الأستوديو بلال يتابع بنفس نبرته المتحمسة كاشفًا الحقيقة في لحظاتها الأخيرة:

- ياسر رشيد..

النقيب ياسر حسنين رشيد..

هـذا الـذي ارتكـب بـدمٍ بـاردٍ جريمـة قتـل شـنعاء اسـتطاع إخفاءهـا خلـف سـتر الصمـت في حـق نبيـل وسـتة معـه آخريـن..

هاهـو ذا الآن وبـكل وضـوح ترونـه.. قاتـل نبيـل الحقيقـي.. الـذي زيـف حقيقـة جريمتـه بتقريـرٍ كاذب منـذ عـام مـضى.. تحديـداً في الثـاني عـشر مـن أغسـطس العـام ٢٠١٤..

فلتتأملـوا لحظـة احـتراق قنـاع كذبـة اختلقهـا.. وارى تحتهـا حقيقـة كانـت لتعجـز نـيران الأرض كافـة عـن إجلائهـا..

ولتسـمحوا لي اليـوم أمامكـم وعـلى الهـواء مبـاشرة مـن هنـا.. أن أقـدم بلاغـي للنائـب العـام في شـأنه.

كان يتكلـم بصـوتٍ لامـس قلـوب المتابعـين جميعًـا وسرى عـبر آذانهـم مخلفًـا قشـعريرةً عجيبـةً عـلى الأجسـاد..

قشعريرة لم يألفوها من قبل..

لم يتصنـع اختلاجـات صـدره.. ولا تلـك الدمـوع المترقرقـة فـوق عينيـه مـن فـرط الحماسـة وهـو يُكمـل وكأن شـيئًا في الحيـاة لا يعيقـه عـلى الرغـم مـن مجموعـة البـذلات العسـكرية التـي دلفـت إلى الأسـتوديو مـن خلـف الكامـيرات وامتـلأ بهـا المـكان في تلـك اللحظـة:

- حدثتكـم فيـما سـبق عـن شيء ناقـصٍ يفصلنـا عـن البهجـة لم أسـتطع تحديـده..

عن عائقٍ وقف بنا على حافة الفرح ومنعنا من مواصلة الطريق إلى سعادة نرجوها..

والآن أخبركم وبكل الثقة عنه..

إن عائقكم هو الخوف يا سادة..

لقد أخطأنا جميعًا حين اعتقدنا أن للسعادة أسبابًا يمكن تعقبها.. وهي الحقيقة القائمة في كل ما يُحيط بنا خلف ستارٍ من الخوف والضعف والعجز والجبن واليأس والاستسلام..

لا تبحثوا بعد اليوم عن أسبابٍ للسعادة إن لم تنزعوا عنها كل القيود..

سعادتكم بداخلكم.. اما أن تتركوها مكبلةً.. أو تفضحوا مواطن القهر فيكم لفك قيودها واحدة تلو أخرى..

تحرروا.. فخلف كل قيدٍ على اختلاف صوره تقبع ضالتكم وتنتظر..

إن السعادة الحقيقية حريةٌ خُلقنا بها..

لن يمنحنا الخوف يوماً بهجتها..

ولن تسكن أبداً قلوب العاجزين..

***

.. النِّهَايَة..

أثرٌ ما تسلل من كلمات بلال عابرًا قلوب المتابعين ..

أثـرٌ مـا دفعهـم - برغـم انقطـاع البـث فجـأةً بأوامـر أمنيـةٍ - لـلإسراع نحـو أجهـزة الكمبيوتـر وهواتفهـم الخلويـة للولـوج إلى الصفحـة الخاصـة بالفرقـة ومشـاهدة مـا اسـتكمله بيومـي مـن العـرض لحظـة دخولـه مـن وراء يـاسر المشـدوه مشـهرًا المسـدس في رأسـه..

مـا زال يـاسر في غير اسـتيعابٍ لما يحـدث مـن حولـه يتلفت مـا بـين وجهـي المتطلـع إليـه في صمـتٍ ووجـه بيومـي الـذي ارتسـم فـوق ملامحـه ارتيـاحٌ لا حـدَّ لـه وهـو يُراجـع بصـوتٍ مرتفـعٍ تفاصيـل يـوم الجريمـة..

هـذا اليـوم الـذي شَـعَرتُ فيـه أنـا بقهـرٍ ظـالمٍ أراه الآن أمامـي وجـلاً يرتعـد..

أرى عينيـه الجاحظتـين في ارتبـاكٍ أمـام ابتسـامتي تلـك التـي شـابهت ابتسـامة بـلال مـن داخـل الأسـتوديو في ذات اللحظـة

وهـو يسـتقبل أولئـك الذيـن تقدمـوا نحـوه بملابسـهم الميري وأكتافهـم المرصعـة بالنجـوم لاحتجـازه..

صـوره التـي رصدتهـا الكامـيرات وانتـشرت عـلى صفحـات جرائـد اليـوم التـالي أكـدت ذلـك واسـتفاضت في الحديـث عـن تحقيقـات اسـتمرت فيـما بعـد عـلى مـدى أسـابيع مـع شـهودٍ كان مـن بينهـم هنـاء وفتحـي وغيرهـم كثـير..

يمكنكـم رسـم انفعـالات الذهـول التـي سـيطرت عـلى يـاسر وقـت صـدور الحكـم بوقفـه النهـائي عـن العمـل قبيـل اعتقالـه بتهمـة القتـل مـع سـبق الترصـد والإصرار..

بإمكانكم تخيل كافة المشاهد.. واستيعاب كل توابعها..

في اسـتطاعتكم بالتدقيـق استشـعار لمحـةٍ مـن الأمـل باتـت تسـكن قلـوب السـائرين في شـوارع المدينـة حولكـم..

أولئك المنهكين بحثًا خلف أسباب السعادة..

بمختلف المواقيت..

لقد انتهى العرض يا سادة..

ووصلت الرسالة..

أرى من فحواها فوق الوجوه علامات..

لم يعـد الخـوفُ هـو المسـيطر عـلى الدكتـورة هنـاء.. ظنـي أن شـيئًا مـن نصائحهـا عـلى عتبـة الحافلـة المدرسـية لابنتيهـا سـيختلف..

ستخبرهم أن يتمسكوا جيداً ببعض..

أن يأكلـوا كامـل شـطائرهم.. وأن يلتزمـوا الأدب حيـث كانـوا..

ولكنهـا أبـداً لـن تنصحهـم مـرة أخـرى أمـام الظلـم بالصمـت.. ولا الاستسـلام..

لا تستسلموا..

لا تستسلموا أبدًا..

لا تعيشوا فوق أرضكم هذه جبناء..

لم يعـد الحـزن هـو الرفيـق لمحمـود.. يبـدو مبتهجًـا اليـوم وهـو يتهـادى متأبطـة ذراعـه شـادية في شـوارع وسـط البلـد أمـام محـلات الملابـس الجاهـزة لانتقـاء بذلـة بيضـاء جديـدة اسـتعدادًا لزفـاف ابنتـه الـذي اقـترب..

عومـل بيومـي كشـاهد ملـك في القضيـة ونـال حكـمًا مخففًـا بالسـجن مـع وقـف التنفيـذ.. ذكـر لي أن أسـما أتتـه زائـرة عـلى اسـتحياء مباركـةً عـلى الحكـم ثـم رحلـت..

قـرأت في طـي نوايـاه التـي لم يـصرح بهـا أمامـي رداً منـه لمعـروف زيارتهـا.. ربمـا بعـد أيـام..

ستتجدد الثقة مع الوقت بينه وبين محمد ابنه.. تماماً كما تجددت في نفس بلال وهو يستقبل بعد انتهاء التحقيقات معه ذلك الكم الهائل من اتصالات رجال الصحافة والإعلام.. مسترجعاً معها مجدًا قديمًا كان ذات يوم له..

حوارات مختلفة.. ولقاءات صحفية متعددة.. وسؤال وحيد سيظل عالق دون إجابة عن صاحبة قناع المهرج التي ظهرت في العرض الأخير..

تلك التي توارت تماماً عن الحدث, وتواترت الأقاويل حول كونها فتاةً تم استبدال اسمها باسم نبيل في تقرير وفاة كتبته هناء ليلة حدوث الواقعة..

يتهامس القليلون حول حقيقة انتقالها للعيش مع فتحي في بيت والدته الذي عاد إليه أخيرًا وقد انمحى شعور الذنب من روحه وحل محله شعور بالرضا طال غيابه..

لقد انتهى العرض.. مخلفًا للجميع آثاره..

أرصدها أنا في صمتٍ كعادتي من شرفة غرفتي الجديدة في بيت عم فتحي.. وأستعيد من تفاصيل السعادة في مخيلتي ملامح الوجه الذي علمني كل شيء..

وجه نبيل..

ذلك الراحل دون غياب..

لقـد احتفظـت بـكل عاداتـه.. كل طباعـه.. وتجاربـه التـي رافقتـه بطـول مسـيرته مـع الحيـاة..

حتـى كنيتـه.. اسـتبقيتها لنفـسي تمامًـا كـما اسـتبقى هـو ذات يـوم في منـاداتي كنيـة رفيقتـه سـلوى..

(بيلي)

كـرروا الاسـم ليظـل بـاقٍ في العقـول إلى الأبـد.. تُحيـط بـه وبقصتـه المثـيرة علامـات اسـتفهام عالقـة..

فلتتـداول سـيرته الألسـن.. ولتختلـف حـول ماهيتـه وجهـات التوقـع والنظر..

على صفحات التواصل الاجتماعي..

في المواصلات العامة..

وعلى نصب المقاهي وفوق الأرصفة..

ليحيـا في أذهانهـم رمـزاً لنصـف حقيقة.. سـيدفعهم شـغفهم حتـماً للبحـث عـن نصفهـا الآخر..

أنا..

تلـك المجهولـة التـي ربمـا مـرَّت ذات يـوم بجمـع لهـم.. أو جاورتهـم مقعـدًا في الحافلـة بمحـض صدفـة, ولم يكترثـوا البتـة لوجودهـا..

فهم بكل تأكيد, ومهما افسحوا من مجالات لتصوراتهم, لن يتوقعوا أبدًا.. أن الصوت الذي أيقظهم.. صاحت به فتاة في السادسة عشرة من العمر.. صمّاء..

لازال الوقت مبكراً على كشف أمري..

سوف أكتب الحكاية على أية حال.. وسأؤجِل أوان الإفصاح عنها لما بعد..

ربما بعد عام.. عامين.. وربما أكثر..

لن أحدد الآن شيئاً.. فأنا أدرك جيدًا..

أن بعض الأشخاص مثلي لا بد أن يظلّوا مجهولين..

وبعض النهايات في رأيي لا بد وأن تبقى مبهمة..

الإمضاء

شمس

أغسطس ٢٠١٥

***

تمَّت بحمدِ الله